مهاجن حي الدهشة

رواية

مها حسن

حيّ الدهشة

رواية

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

«يزعم الحلبيّون بأنه سُمّي بتراب الهلك، لأنه تراب من هلك في طوفان نوح، بدليل أن جنوبي أرض الهلك توجد مقبرة اسمها "جبل العضام"، يتخلّل حجارة جبلها كثير من العظام... والآن غدت أرض تراب الهلك حيّاً كبيراً يصل إليه الماء والنور والباص».

موسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي، ص284.

كفر حمرا - ريف حلب - عام ٢٠٠٥

خيّال الزرقا

مغرمةٌ بالماء. تشطف كل صباح أرض الدار، تسقي الحديقة الصغيرة، حيث عروق البقدونس والنعنع والريحان التي غرستها سابقاً، ثم تترك خرطوم الماء الطويل الأحمر يتدفق وقتاً أطول تحت دالية العنب.

عشقت سميرة ثلاثة أشياء: الماء، وسميرة توفيق التي سمّتها أمها باسمها، وابن عمّها عبد الغني.

في آنٍ واحد تستمتع بالماء والغناء، ربما كان ذلك مجدياً في تخفيف شوقها لعبد الغني، الذي تغيّب عن البيت منذ شهر. كانت تلك أطول فترة غابها، فقد اعتاد السفر، بسبب طبيعة عمله، سائق تكسي على خطّ حلب - بيروت، ولكنّه لم يكن يغيب، في المرات السابقة، أكثر من يومين أو ثلاثة أيام بالكثير.

طال غيابه هذه المرة، بسبب السفريّات المتلاحقة، التي لم تمنحه فرصة للعودة من حلب إلى كفر حمرا، لتمضية بعض الوقت مع سميرة وابنهما الوحيد.

ممسكةً بخرقة ناشفة تمرّرها على بلاط الغرفة، كانت تنشف الأرض من الماء وتطقطق بعلكة «الشكلش»، مدندنةً مع سميرة توفيق أغنية «يا خيال الزرقا». عصرت الخرقة، نشرتها على سور الحديقة الصغيرة، عادت تتفقّد الدالية، أخذت الخرطوم مجدداً وراحت ترشّها وتغسل أوراقها واحدة تلو الأخرى.

كان عبد الغني قد اتصل بها في الصباح، وأخبرها بأنه سيعود بعد أسبوع. لم يكن جاداً، كان في الطريق إليها، لكنه أراد مفاجأتها والتمتع برؤيتها وهي تهرع إلى باب الدار لكي تفتحه حالما تسمع محرّك سيارته، ثم تهتف معاتبة إيّاه بغنج: «ما قلتلي إنك جاية، كنت ظبّطت حالي!»، وسيشرق وجهها الحزين بفرح.

كان واثقاً من كآبتها التي ترافقها في غيبته وهي تكرّر له: «قلبي بيعصّني لمّا بتغيب، والدنيا بتضيق بوجهي!».

حين دخل عبد الغني لم تشعر سميرة، بسبب صوت الغناء.

توقّف للحظات متضايقاً من ذلك، هي التي كانت تسمع صوت محرّك سيارته قبل أن يصل إلى مدخل الحارة، فتفتح الباب، وتنتظره.

هو أيضاً كان مغرماً بها، وظلّ غرامهما معقّداً وصعب المنال لسنوات. فقد كان الأخوان: حسن والد سميرة، وحسين والد عبد الغني، في قطيعة، بسبب خلاف على الأملاك والميراث. وركب والدها رأسه، مصمّماً على أن يزوّج ابنته للكلاب ولا يعطيها لابن حسين.

لكنّها قبلت أن تذهب خطيفة مع ابن عمّها، وتركت خطيبها الثريّ في ليلة الزفاف. وكان الصلح سيّد الموقف ليلمّ شمل العائلة من جديد، فيتباوس الأخوان، وتعود المياه إلى مجاريها.

كان ابنهما الوحيد يراقب المشهد من خلف زجاج

نافذة غرفته في الطابق الأعلى. كان يعدّ لامتحانات «البروفيه»، منهمكاً في الدراسة، محاولاً الاستعداد لتحقيق أمنية أمه في أن يصبح طبيباً.

لم تنجب سميرة غير هذا الصبي. أنجبته بعد معاناة، وكادت تموت أثناء المخاض، حتى اضطرّ الطبيب لشقّ بطنها واستئصال الجنين.

رفض عبد الغني المتيم بها، أن تحمل مجدّداً وتتعرّض لآلام الجراحة القيصرية، وخافت هي أيضاً من أن يشوّه الجرح الجديد بطنها، ويفقد زوجها رغبته فيها، فقنعت بصبيّ واحد.

كان ابنهما يرى الغضب ونفاد الصبر على وجه والده، وهو يراقب سميرة تغسل أوراق الدالية وتغنّي «يا خيّال الزرقا» دون أن تنتبه لوجوده، ففتح النافذة وصرخ: «بابا.. الحمدلله عالسلامة!».

توقّفت سميرة عن الغناء ورشّ الماء حين سمعت صوت ابنها، والتفتت فرأت زوجها. صرخت مندهشة: «عبد الغني.. إيمته وصلت؟ ما حسّيت فيك وأنت داخل!».

لم يُجبها. أطفأ سيجارته في طين الحديقة، قرب شتلات الريحان، وجلس على الحافة الأسمنتية ليخلع حذاءه وجوربيه.

ارتبكت سميرة وقد لاحظت علامات الضيق على وجهه. أطفأت المسجّلة، وأغلقت حنفيّة الماء، وراحت تلفّ الخرطوم لتعلّقه على مسماره في الحديقة.

اقتربت منه: «اشتقتلك ابن عمي!».

كان ابنهما لا يزال ينظر من غرفته متفرّجاً على مشهد الفتور غير المألوف بين والديه الشهيرين بقصة حبهما في العائلة وفي القرية.

على مائدة الغداء، حين نهض الصبي منهياً طعامه، مثجهاً صوب المغسلة في الحديقة، حيث تتناول العائلة الطعام حين يكون الطقس جميلاً، أشعل عبد الغني سيجارة بعد الطعام، دون أن يعلّق على طبقه المفضّل الذي حضّرته سميرة بسرعة ومهارة: الرز بالفول مع اللبن بالخيار والثوم. حاول ألا يرفع صوته، لكن الصبي سمع عبارة أبيه المتسائلة بما يشبه الهمس: «مين خيّال الزرقا؟».

نظرت سميرة إلى زوجها مندهشة، ونسي الصبي صنبور الماء مفتوحاً ويداه ترتجفان تحت الماء، إذ رأى وجه أمه الممتقع. هزّت سميرة رأسها باستغراب، كأنها لم تفهم السؤال، فقال وهو ينفخ سيجارته، إنه توقّع أن يراها على الباب حين تصل سيارته إلى أول الشارع، لتعانقه مثل كل مرّة يعود فيها. لكنها هذه المرة لم تشعر بوصوله، ولا بدخوله إلى البيت. لم تسمع موتور السيارة، ولا شمّت رائحة العطر التي تقول إنها تشمّها عن بعد. رائحة العطر الذي تشتريه له بنفسها، وتستطيع تمييزها بين كل روائح العطور في الأرض.

- «أنا مقهور يا سميرة! حسّيت وأنا عم أسمعك عم تغنّي لخيّال الزرقا، أنه في خيّال بشي مكان، خلّاك

تنسي عبد الغني. مين هالخيّال يا سميرة؟ مين نسّاك حبّك لابن عمّك؟!».

نهضت سميرة تلمّ الأطباق دون أن تنبس ببنت شفة. ارتطمت نظرتها بنظرة ولدها وهي تثجه صوب المطبخ، ولمح الصبي دمعة مجبرة على الانتظار في عين أمه، متأكّداً أنها ما إن تصل إلى المطبخ وحيدة، حتى تنفجر في بكاء صامت حزين.

أحسّ الصبي بحزنٍ ثقيل. لم يعرف ماذا يفعل، ولم يتمكّن من تحديد مشاعره. فهو متألّم لنبرة الحزن الموجعة في كلام أبيه، وكذلك ذبحته دمعة أمه ونظرتها الخائفة وهي ترتطم بعينه، كأنها تطلب منه الحماية، كأنها تريد شهادته الحقّ، لصالح امرأة عاشقة، لم يخفت غرامها للحظة وهي تعيش مع الرجل الذي حلمت به، وتؤكّد لنفسها في كل صباح أن الحياة منحتها هذه السعادة التي لم ترغب غيرها. وتشكر الله في كل نهار، على هذا العطاء: زوجي الذي أعشق، وصبيّ يوثّق هذا الغرام.

في المساء، كان ثلاثتهم يجلسون بانتظار مسلسل السهرة، حين نهض الولد متّجهاً إلى الحمّام، وكأن عبد الغني لم يُفرغ جعبته بعد، قال لها بالحزن نفسه وهو ينفث دخان سيجارته، إنها قبل الزواج كانت تنتظره على الشبّاك ساعات طويلة حتى يمرّ، بل كانت تغفو أحياناً وهي مستندة على حرف الشبّاك. كان يرى كيف تتغيّر ملامحها التعبة والحزينة ما إن تراه، وتضيء

عيونها بالفرح. على عكس ما حصل هذه المرّة، إذ لم يشعر أنها حزينة لغيابه، بل بان عليها النشاط والسعادة، وكأن غيابه لم يعد يضايقها.

- «كنت عم أتفرّج عليك وأنت عم تغنّي، مو شايفتيني، وغرقانة بحالة من الأمان والفرح، خاصة وأنت عم تهزّي راسك وتتمايلي كلما نطقت 'خيّال الزرقا'، قلبي عضّني يا سميرة، وخفت! حسّيت في حدا براسك، حدا تاني غيري أنا!».

تمهّل الصبي حتى سمع شارة المسلسل وصمت والده، فدخل مطرقاً جالساً بين أبوين شبه متخاصمين.

لم يتخيّل أن يكون الزواج بهذه الصعوبة والدقّة، ماذا يعني أن تغنّي امرأة في غياب زوجها وتتمايل وتشعر بالفرح؟ ماذا لو أن زوجها رآها قد تزيّنت وتعطّرت في غيابه؟ هل هذا هو الزواج، أن يحصي أبوه العاشق الولهان، أنفاس زوجته خوفاً من انزياح مشاعرها ولو لبرهة توقفها عن حبّه؟ أهذا هو الحب؟ القلق والهمّ؟

يومان فقط مرّا على ذلك العتاب القاسي تلاه صمتٌ بين الوالدين، إلى أن غادر عبد الغني في اليوم الثالث إلى بيروت. قال مودّعاً زوجته: «يا ريت شوفك بس أرجع، وما ياخدك مني خيّال الزرقا، يمكن ملّيتي من خيّال الصفرا!». قال ذلك ساخراً، فسيّارة الأجرة التي يعمل عليها صفراء اللون.

غاب عن ناظريها دون أن يسمع منها أيّ تعليق. لكن

الابن رأى وسمع كل شيء، رأى نظرة الحزن والدمعة الممنوعة من الخروج من مآقيها، حرصاً على كبرياء صاحبتها.

- «أمي، لا تزعلي، بيكون أبي تعبان من الشغل. أبوس إيدك لا تبكي!».

- «ما عم أبكي حبيبي.. لا تخاف علي!».

كان خائفاً على أمه من ذلك الحزن الثقيل، فأفاق في صباح اليوم التالي، جهّز المائدة: مكدوس وبيض مسلوق وخيار وبندورة ونعنع طازج وجبنة. انتظرها ليجهّز الشاي فيكون ساخناً، انتظرها طويلاً كي تستيقظ ليتناولا طعام الفطور في الحديقة. لكنها لم تستيقظ في ذلك النهار، ولا في النهارات التالية.

الفراشة

لم تكن هند معنية بحياتها الخاصة، بل أحسّت دائماً بالفشل والوحدة، إلى أن هجرت أحلامها الخاصة، ووهبت حياتها للشغف الوحيد الذي أنقذها من الفراغ والملل.

فبعد أن أيقنت أنها عاجزة عن فهم الحياة والانسجام معها، وكأنها لم تعش يوماً، فكرت طويلاً في ما ستفعله بعد الانتهاء من التخصص. كانت متوجّسة من العودة إلى حياة الوحدة والصمت بانتظار عدم حدوث أي شيء.

عاشت هند الحياة من قبل، في سنوات الطفولة الأولى، حين كانت تنطلق كالفراشة بين الحقول. وقد عثرت هناك، في تلك الحقول النائية عن المدينة والأضواء والبهرجة، على متعتها الوحيدة في الحياة. هذه المتعة ستنقيها مع الأيام، وتذهب بها إلى قاعات الجامعات، وتتخصص بها.

اعتادت أغلب البنات في طفولتهنّ على اللعب بالدُّمى، وثقة من حاولنّ صناعتها. الدمية التي تتحوّل إلى صديقة ملازمة، تقاسم الطفلة سريرها، وتعرف أسرارها ومشاعرها، وتكاد تكون توأمها. الدمية التي يكاد يكون وجودها ضرورياً في حياة كل صغيرة، تساعدها على النوم وهي تحضنها وتصنع تاريخاً

مشتركاً معها: تاريخ يكبر من يوم إلى آخر، وحين تكبر الطفلة، وتتجاوز السن الذي يتقبّل فيه الآخرون رؤيتها برفقة الدمية، فإن هذه الصديقة، لا تُرمى في مكب النفايات، بل تحتفظ بها الصبيّة، في صندوق الذكريات، كإحدى أهم صور الطفولة.

أيّ طفلة قادرة على تجاوز لذّة اقتناء دمية؟ دمية واحدة على الأقل!

لم يكن شغف هند متمثلاً في الدمى القماشية أو البلاستيكية، كان المعادل الواقعي، هو الطفل ذاته، الذي اعتقدت أنه الصيغة الأصلية للنسخة الدمية، الصيغة التي لا يحقّ للصغيرات أن يقتنيها.

هناك تعرّفت على لذّة اللعب، واكتشفت اللذّة الأعلى: تحويل متعة اللعب، إلى مهنة. وقد تأكدت لاحقاً، أن متعة اللعب مع الدمية، تكاد تكون غريزة أصلية تنمو مع البنات، كأنها تمرين على العناية بالأطفال. كأن الصغيرات يقلّدن أمهاتهن بأمومة مبكرة، فيتدرّبن بالدمى، وكأن الحياة برمّتها لعبة، مجرّد لعبة.

إلا أنها لم تجد مكانها وسط هذه اللعبة، فقد فشلت في لعب دور الزوجة، وكذلك عجزت عن أداء دور الابنة، ولم يكن لديها صداقات لكي تجرّب الألعاب الاجتماعية، ولم يكن لديها إخوة تستند عليهم لتحمّل وطأة الحياة الثقيلة، ولا أخوات تهمس في آذانهن بأسرارها الخطيرة أو الجميلة. منحت نفسها كليّاً لمهنتها التي تحب، والتي عبرها تستعيض عن اللعب بالدمى،

بالتعامل مع كائنات بشرية، كائنات فائقة الجمال، من لحم ودم، أجنّة وأطفال.

كان خيارها واضحاً. بعد التخرّج، لا شيء سوى ممارسة مهنتها: طبيبة مختصّة بحالات العقم والمشكلات الطبية الخاصة بالنساء. ولكن المعضلة كانت تتعلّق بالمكان، كانت خائفة من مشكلة معقّدة ستنشب مع عائلتها حتماً، إذا اختارت المكان الذي ظلت صورته عالقة في ذاكرتها منذ الطفولة. حين أخذتها مربّيتها إلى الهلك. أسرها المكان، وحلمت دوماً بالعودة للعمل في تلك الحارة، بينما كان والدها يجهّز لها عيادة في مركز المدينة التجاري، حيث المكان الأكثر حيوية، المليء بالبشر والعمل، المكان المتاح لأصحاب المشاريع التجارية من ذوي رؤوس الأموال الكبرى فقط، هناك حيث لا مكان لصغار الكسبة، وحيث تفصح المدينة العريقة بالمال والأعمال عن الهوّة السحيقة بين من يملكون كل شيء، ومن لا يملكون أيّ شيء.

كان الأب يرغب في احتفاء بالغ التأثير اجتماعياً بابنته الوحيدة. وكانت نظرته إلى المسألة تُطبق على أنفاسها، وتجعلها تشعر بأنها فراشة حبيسة في غرفة كبيرة بلا نوافذ. لهذا تهيّأت لمعركتها مع أبيها أولاً، ثم مع أمها عبر الهاتف، عازمةً على تحقيق حلمها غير المفهوم بالنسبة لأهلها: أن تتحرّر الفراشة من أسرها وتطير صوب ذلك الحي الفقير، المليء بالباعة المتجوّلين وصخب الأطفال وصياح النساء وشجار

الرجال. هناك فقط، كانت روحها تنعتق من يرقة التربية المترفّعة عن العالم، وتختلط بالضوء والغبار وأنفاس البشر العاديين.

أولاد حارتنا

دخل عليها العيادة كالثور الهائج وهو يصرخ: «فين الدكتورة؟ هاتولي الدكتورة!».

لم تتمكّن زينب، الممرّضة القويّة البنية، من التصدّي له ومنعه من اقتحام غرفة الطبيبة، التي كانت تجلس خلف مكتبها تدوّن لائحة الأدوية، بعد أن أنهت معاينتها للمريضة الحامل التي تعاني من نزيف مفاجئ.

رفعت رأسها وقد فاجأها اقتحام رجل لغرفة المعاينة، وصرخت به دون تردّد: «اطلع من هون بسرعة، هي عيادة نسائية!».

- «مستحيل أتحرّك من هون وحدي، لازم تجي معي! أمي داخت وخايف يصير عليها شي إذا ما لحقتيها!».

- «إذا ما بتطلع، بطلب الشرطة! أنا دكتورة نسائية وبس، روح شوف دكتور عام، أو اتّصل بالإسعاف!».

- «حتى يصل الإسعاف، بتكون أمي ماتت!».

كان يقول جملته الأخيرة وهو يلمّ عدّتها، بتوتّر، ويضعها في الحقيبة التي رآها على الطاولة، وخمّن سريعاً أنها حقيبة الكشف. ثم راح يجرّ الدكتورة من يدها: «مافي وقت دكتورة، يالله بسرعة! كل لحظة

تأخير عم تأثر على حياة أمي!».

أحسّت هند أنه لا مفرّ من الذهاب معه، وقد تعاطفت مع لهجته المتوسّلة المشوبة بغضب عنيف، فوضعت بقية أدوات الكشف في الحقيبة، واعتذرت من المريضة: «رح أكتبلك الروشيته، وأبعتها لبيتك.. زينب بتعرف بيتك؟».

هزّت الممرضة رأسها، فزينب بنت الحارة، وتعرف كل تفاصيلها وقصص سكانها.

خلعت هند معطف المعاينة الأبيض وأخذت رداءها الزهري المعلّق قرب الباب، بينما كان صبر شريف ينفد، وهو يكرر: «يالله، بسرعة، يالله».

على الدرج، كادت تسقط وهي تتبعه وهو لا يزال ممسكاً بيدها، حين باغتها وانحنى قرب ساقيها، فحملها، ونزل بها الدرج، وراح يهرول في الحارة، قاطعاً الشارع الصغير بين عيادتها وبيت أهله.

وقف أهل الحارة يتفرّجون على المشهد المفاجئ، بين ضاحكين ومندهشين، ومَن رأى راح يكرّر لمن لم يحضر ولم يرَ: «شريف حمل الدكتورة هند!».

كانت مرتبكة وشبه خائفة من عصبيته العنيفة، لكنها فجأة، وهي تنظر إلى الناس الملتفين في الساحة، مندهشين من منظرها محمولةً بين ساعدَي شريف، الذي لم تكن تعرف اسمه بعد، أحسّت بكوميديا اللحظة وكادت تضحك لولا وقوع فردة حذائها من قدمها، فصاحت: «كندرتي.. وقعت كندرتي!».

لم يهتمّ، بل تابع هرولته صاعداً الدرج حتى الطابق الثاني، بينما ركضت عبير، ابنة الفوّال الصغيرة، البالغة سبع سنوات تقريباً، تحمل فردة حذاء الدكتورة، وتلحق بها وبشريف إلى بيت أمه.

كان أولاد الحارة قد تجمّعوا مجدداً، بعد انتهاء الفرجة، أمام مدخل بناء البيت، بانتظار خروج الدكتورة، ليفهموا الحكاية، إذ سرت العبارات كأن الريح تنقلها، من بيت إلى بيت: «شريف حمل الدكتورة.. أمّ شريف داخت.. أمّ شريف ماتت.. شريف قتل الدكتورة...».

لم يكفّ أهل الحيّ عن ترديد الاحتمالات إلى أن نزلت هند بعد ساعات، منتعلةً فردتي حذائها، مرتبكة وهي تمرّ بين الجموع.

العين الأكثر زرقة

تمكّنت الدكتورة من إسعاف دريّة التي تعرّضت لنوبة قلبية مفاجئة. كانت مصابة باضطرابات في القلب، لكن بدرجة خفيفة لم تجعلها تشعر بالخطر، إذ تعاني من وقت إلى آخر من ضيق التنفّس وتوتّر خفيف، تعالجه بأخذ قرص أسبيرين ومحاولة النوم.

حين أفاقت دريّة من غيبوبتها، وجدت نفسها في غرفتها، وإلى جوارها تجلس صبيّة فاتنة، فابتسمت لها قائلة: «هند رستم؟ أنت ممثلتي المفضّلة!»، فقد ظنّت أم شريف للحظات أنها ماتت، وأنها في عالم الأموات

إلى جانب هند رستم.

ابتسمت الطبيبة وقالت لها: «الحمد على سلامتك، أنا الدكتورة هند.. فتحت عيادتي في حارتكم من كم يوم، وأنا هون مشانك.. أنت منيحة، لا تخافي! بناتك وابنك وحفيدك مشغولين عليك، رح خبّرهم أنك صحيتي، بس ما بيصير يفوتوا كلهم سوا، أنت محتاجة لهدوء.. اتفقنا؟».

كانت درية تشعر بحالة من السلام والاسترخاء. لم تصدّق أنها لم تمت، استغرقت هذه الحقيقة بعض الوقت لتدخل في رأسها. إذ تذكّرت كيف كانت في الصالة تقطّع الفاصولياء الخضراء وتجهّزها للغداء حين رنّ الهاتف، وما إن نهضت عن الكنبة حتى فقدت توازنها وأحست بغتة أن البيت يسقط فيها، وشعرت بنفسها تتهاوى على الأرض، فحاولت نطق الشهادتين متيقّنة من أنها تموت.

راحت تنظر إلى هند كأنها ملاك نزل عليها من السماء. تأمّلت أصابع يديها الرقيقة، ابتسامتها الهادئة، شعرها الأشقر، وهي تقول في رأسها: «يا الله، شو بتشبه هند رستم! ما أحلاها!».

كان شريف وأخواته الثلاث وزوجته والآخرون ينتظرون في الصالة بقلق. ولولا المصادفات لما نجت والدتهم، فقد مرّ شريف إلى بيته سريعاً لأخذ إيصالات الكهرباء، كي يرسل حسين لتسديدها، وكعادته، في كل مرّة يأتي فيها إلى بيته أو يغادره، يدخل إلى بيت أمه

ليطمئن عليها.

حين رآها على الأرض، فقد صوابه وهرول إلى الشارع حيث ركن سيارته، كان عازماً على نقل أمه إلى أقرب مشفى، لكنه خاف من مضاعفات قد تتعرض لها إذا ما حركها أو حملها. كان فاقداً للقدرة على محاكمة الأمور، يجول ببصره حائراً لا يدري ماذا يفعل، وفي اللحظة التي وقع فيها بصره على اللافتة التي تحمل اسم الدكتورة، قفز صوب العيادة متجاهلاً معارضة زينب الممرضة: «لو سمحت، من فضلك، هذا ما بيجوز.. الدكتورة عندها كشف!».

في هذه الأثناء كانت زوجته مديحة قد اتصلت بأخواته تعلمهن بما حصل لوالدتهن. كانت تبكي على الهاتف، مثيرة ذعر البنات الثلاث، اللواتي هرعن من بيوتهن، متدبرات أمر وصولهن دون انتظار أزواجهن. كانت أصغرهن نجوى، المقيمة في حي الميدان، لا تتحرك من البيت دون زوجها، لكنها حين سمعت الخبر ركضت بملابس البيت دون تغييرها، وأوقفت سيارة أجرة، لاهثة للوصول إلى أمها ودموعها لا تتوقف طيلة الطريق. أما الوسطى نجاة، المقيمة في حي سيف الدولة، فقد رافقها ابنها الذي تمكن من تهدئتها وإقناعها بتبديل ملابسها ريثما تصل سيارة عمه الذي يسكن في الحي ذاته، بينما جاءت نجلاء المقيمة في حي السبيل مع زوجها بسيارته.

حين خرجت هند من الغرفة، تسمرت الأنظار عليها.

ابتسمت للجميع، خاصة للنساء الأربع الممتقعات اللون. وصلت رسالتها المُطمئنة قبل صوتها الذي خرج هادئاً ووديعاً ومُريحاً: «الحجة بخير.. ممكن تدخلوا عليها، بس مو كلكم سوا! لازم يشوفها طبيب قلبية مختص، لنعرف إذا كان في مشكلة كبيرة في القلب».

ترك شريف أخواته يدخلن قبله، مؤجّلاً رغبته الحارقة في رؤية أمه ومسك يدها. نظرت الطبيبة إليه برقّة وقالت: «اللي بيشوفك راكض مثل المجنون، ومستعدّ تقتلني وتقتل الممرضة وتحرق العيادة، من خوفك ولهفتك على أمك، ما بيصدّق هدوءك بهاللحظة، كنت فاير متل الحليب اللي تحته نار قوية، كيف قادر تتحمّل وما تفوت تشوف أمك؟!».

- «الحمد الله، طالما أنك طمأنتيني، مافي مشكلة أني انتظر أخواتي يشوفوا أمي قبلي.. أنا رجل وفيني أمسك حالي!».

أشعل سيجارة، وجلس بعد طول وقوف. ومثله جلس بهاء ابن نجاة، وعمّه صافي، وعبد المنعم زوج نجلاء، بينما انتبهت مديحة إلى قواعد الضيافة، بعد أن اطمأنّت على سلامة خالتها، فقالت: «رح أعمل قهوة، خلص لازم نهدأ كلنا، ما عاد في داعي للخوف!».

ثم استدارت صوب الدكتورة وسألتها كيف تشرب القهوة.

- «سكّر خفيف».

صمت شريف صمتاً تاماً بعد ذلك، بينما أخذ كلٌّ من

صافي وعبد المنعم يثرثران قليلاً حول أوضاع المرض المفاجئ، ويستعرض كلٌّ منهما خبراته الشخصية مع أمراض الأهل، واستدعاء الإسعاف. انشغل بهاء عن الجميع، بهاتفه المحمول، ومتابعة الألعاب التي يقوم بتنزيلها وتتبع الجديد منها.

استغربت هند من الانقلاب الحادّ الذي أصاب الرجل الهائج الذي أثار ذعرها قبل قليل، إلى درجة أنها فكّرت فعلاً في الاتصال بالشرطة لتجنّب أذاه، وكيف تحوّل إلى رجل هادئ، رصين، صامت.

في اليوم التالي، طمأن الطبيب دريّة على سلامة قلبها، قائلاً إن المشكلة فقط في ضغط الدم، لهذا عليه مراقبة ضغطها لعدة أيام، قبل أن يحدّد لها درجة خافض الضغط الذي عليها تناوله، كما طلب منها إجراء بعض الحمية وتخفيف نسبة الأملاح التي تستهلكها. ثم غادر تاركاً إيّاها مع بناتها وكنّتها وابنها.

لم تعرف هند ما الذي أصابها، إذ وجدت نفسها في اليوم التالي، بدلاً من الانطلاق بسيارتها في فرصة الظهيرة إلى البيت لتناول الطعام والراحة، تتجه صوب بيت أم شريف، للاطمئنان على تطورات الوضع الصحّي للمريضة.

لم يكن ذلك من مهامها، فقد انتهى عملها ما إن أسعفت الحاجّة، وطلبت من العائلة مراجعة طبيب مختص، لكنها كانت قلقة كعادتها، تحاول إتمام الصور العالقة في ذهنها، كان لديها فضولها المهني والإنساني

معاً لمعرفة حالة دريّة والوقوف على تفاصيلها.

فتح شريف الباب، وأشرق وجهه، ثم ضحك بطريقة مفاجئة، لم تفهم هند سببها.

- «خير؟ ليش هيك عم تضحك؟!».

- «عم أتذكّر شكلي البارحة كيف هجمت عالعيادة وخوّفتك! كان بدّك تجيبي الشرطة؟».

كانا يتحدّثان وهي تدخل، وسرعان ما انتقلت عدوى الضحك إليها: «لأ وأنا شكلي كمان كان بياخد العقل.. كلما تذكّرت كيف كنت حاملني أمام أهل الحارة، أنفجر بالضحك.. فعلاً كان شكلك مجنون تماماً!».

خرجت والدته من غرفتها حين سمعت صوت الطبيبة: «أهلين بالدكتورة، أهلين بالغالية!».

تابعت هند حديثها مع شريف، وهي تضحك بطريقة فاجأتها هي نفسها: «والستّ والدتك بتظنّ إني هند رستم!».

رفع شريف حاجبيه مستغرباً: «بالله؟ ما خبّرتوني، كيف؟!».

أمسكت دريّة بذراعها واتجهت معها صوب الأريكة وسط الصالة، وهي تقول لابنها: «بشرفك.. طلّع فيها منيح، ما بتشبه هند رستم؟».

ارتبكت الطبيبة حين توقف شريف عن الضحك، وراح ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، كان ينظر باهتمام وإعجاب، ثم قال لأمه: «لا ماما.. شو هند رستم؟

الدكتورة أحلى بكتير!».

احمرّ وجه هند وتلعثمت: «شو صار معك.. شو قال دكتور القلبية؟».

خرجت نجوى من الغرفة المجاورة لغرفة أمها، وكانت قد أمضت ليلتها عندها، إذ تشاجرت مع زوجها، لأنها خرجت من البيت دون إذنه. كان مصرّاً أنه حتى لو تعلّق الموضوع بمرض أمها، حتى لو بوفاتها، فليس عليها أن تتحرك من البيت دون إعلامه.

في تلك اللحظة أيضاً كانت مديحة تدخل من باب الشقة، فراحت الاثنتان ترحبان بالدكتورة، ثم أسرعت نجوى لتحضّر القهوة.

سعل شريف مستعدّاً لكلام يُشعره بالحرج: «دكتورة، نحن ممنونين لمساعدتك لأمي.. لو تأخّرتِ عنها شويّ كانت النتائج خطرة.. البارحة كنت قلقان وما انتبهت أسدّد لك حسابك.. آسف!».

شعرت هند بما يشبه الإهانة، فنهضت متجهّمة وقالت بتهكّم: «آه صحيح.. لهيك جيت اليوم، حتى أطلب الحساب!».

نهض شريف مرتبكاً: «آسف، ما قصدت.. ولكن هاد حقّك».

- «أنا هون حتى أتطقّن على الستّ دريّة.. مو مشان أطلب أجرة المعاينة، أنت عم تهيننني!».

اقترب منها وقال متوسّلاً: «مستحيل فكّر أزعجك،

أو أسمح لأيّ شخص يضايقك.. فضلك على رأسي ورأس أخواتي.. بس هاد حقّك، هاد شغلك، أنت صاحبة عيادة مو جمعية خيرية!».

كان وجهه مليئاً يومئ بالذعر من غضبها أو انزعاجها، ولاحظت أنها بالغت في انفعالها، فقالت مبتسمة: «خلص، اعتبرني جمعية نسوية وأنا متبرعة بأجرة الكشف».

قالت دريّة بصوت هادئ: «كنت بحب كتير هند رستم، لكنك فعلاً أجمل منها، وقلبك طيّب وأخلاقك عالية.. أنا قبلانة تبرّعك بقيمة الكشف، بشرط تقبلي عزيمتي عالغدا!».

ابتسمت الطبيبة وهزّت رأسها موافقة، فيما كان قلب شريف يخفق من الفرح، لأنها رضيت وهدأت.

حين وصلت القهوة، واسترخت النساء الأربع، هند ودريّة ونجوى ومديحة، وشريف معهن، انتبهت هند بغتة إلى لون عيون النساء الثلاث أمامها، وكان الشبه واضحاً بين نجوى وأمها مع فارق العمر، لكن الغريب أن مديحة، زوجة شريف، لها لون العيون ذاته: الأزرق.

- «يبدو إنو زوجة ابنك من العائلة؟».

أجابت دريّة وهي تهز رأسها: «إي.. كيف عرفت؟».

- «في شبه بيناتكم، ما بعرف بالتحديد كيف، يمكن لون العيون؟».

- «مديحة ابنة أختي، لكنها مثل ابنتي، أنا ربّيتها بعد موت أختي، كان عمرها سنة تقريباً لما تيتمت».

تدخلت نجوى: «لون عيوننا أنا وأمي أكثر زرقة، لون عيني مديحة يميل إلى الفضي الغامق».

قال شريف مازحاً: «أخواتي الثلاث أخذوا لون عينين أمي الأزرق، ومديحة كمان أخذت من أمي لون عيونها».

قالت درية مؤكّدة: «صحيح، عيون أم مديحة كانوا بني غامق، مثل لون عيونك يا شريف».

- «يعني أنا أخذت لون عيون حماتي، وزوجتي أخذت لون عيون حماتها!».

لم تبتسم الدكتورة لمحاولته في الدعابة، بل شعرت بحزن مباغت. أنهت قهوتها ونهضت تستأذن الانصراف.

التقت بزينب في الطريق، كانت قد خرجت لتشتري خبزاً طازجاً كي تتناول طعامها الذي جلبته معها من البيت، مفضّلة البقاء في العيادة على الذهاب إلى المنزل في فترة الظهيرة.

زينب

فقدت عملها لعدّة مرات في المشافي الحكومية والخاصة بسبب زوجها، فقد كان يقتحم عليها أماكن عملها، ويشتمها على العلن مطالباً إيّاها بالمال. وكانت تلك الفضائح تتسبّب في طردها مرةً تلو الأخرى من أي عمل. لهذا فما إن وقّعت هند عقد شراء الشقة في عمارة متعهّد البناء، عبد الله مسلماني، حتى قال لها وهو يودّعها في المكتب العقاري، إن هناك صبية طيّبة

وشاطرة في العمل، لكن حظها السيئ أوقعها في شرك زوج عاطل، ثم أضاف بلهجة راجية: «الله يوفقك ويفتحها بوجهك يا دكتورة، بتكسبي حسنة هالمسكينة زينب وما بتندمي، هي ممرضة شاطرة وساكنة بالحارة».

وافقت الدكتورة على الفكرة، وطلبت منه إرسال الصبية إلى العيادة، بعد أن تنهي تأثيثها وفرشها.

وحين التقت بها، شعرت على الفور، أنها تحتاج إلى واحدة مثلها للعمل معها. فقد كانت صبية جميلة وضخمة قليلاً.

تربت زينب في الريف، على الحياة القاسية، والاستيقاظ المبكر قبل شروق الشمس للعمل في الأرض طيلة النهار. وحين نزحت العائلة إلى المدينة، اشتغلت في عيادة طبيبة أسنان، فكانت تنظّف العيادة وتستقبل المرضى، وتعلّمت مع الوقت بعض الإسعافات الأولية الضرورية للعمل كممرّضة.

بعد أكثر من عشر سنوات في التمريض، أغلقت طبيبة الأسنان عيادتها، وسافرت خارج البلاد، فاشتغلت زينب في مشفى «نافع أسود» الشهير في حلب، كممرّضة، ولكن زواجها جلب عليها الويلات، إذ بعد أقل من سنة على ذلك الزواج الأسود، اكتشفت أن ممدوح يعاني من الإدمان على الكحول، وكان ذلك سبباً في خراب حياتها وسبباً في فقدانها لأي عمل تعمل فيه.

كان عبد الله مسلماني من أقارب زوجها، فكانت كلما

مرت من أمام العمارة التي كان يبنيها محل البيت القديم الكبير، تشكو له همومها وحالها. وحين عرفت بشراء طبيبة شابّة لشقّة في البناية بهدف فتحها عيادة فيها، توسّلت إلى الرجل ليقوم بتزكيتها لدى الدكتورة. وهكذا عاد الأمل إلى زينب، في أن تستعيد حياة العمل، الحياة التي تحبها، والتي تعتبرها الخلاص الوحيد من بيت مليء برائحة الكحول، وصراخ الكحوليّين.

حفلة التفاهة ١

كانت مديحة تركب في السيارة إلى جانب زوجها عائدة من زيارة والدها في المنشية القديمة،

حين توقفت سيارة زوجها على الشارة الضوئية، ورأت الثوب في الفاترينة، شهقت: «يا إلهي، هذا ثوب أليسا! لو سمحت، وقّف، بدّي أشتريه!».

- «مستعجل، الناس عم ينتظروني بالمحل، بعدين مديحة، بعدين!».

- «لا.. مو بعدين، بدّي اشتريه فوراً!».

- «مستعجل، افهمي!».

قال غاضباً وأقلع ما إن أضاءت الشارة الخضراء، فيما راحت هي تصبّ جام غضبها متمتمة بكلامها ذاته في كل مناسبة، حين تغضب من زوجها: «بحياتك ما اهتميت برغباتي.. أنا آخر شخص بيهمّك أمره.. لو كانت أختك نجوى هي اللي طلبت منك توقّف، ما كنت رفضت طلبها، بس أنا مو مهمّة، وما بفرق معك!».

لم يجب شريف على كلامها، واكتفى برفع صوت الراديو على محطّة «مونتِ كارلو» ليسمع نشرة الأخبار.

في اليوم ذاته، وبعد عدّة ساعات، كانت دريّة مع ابنتها الكبيرة عائدتين من عيادة طبيب القلبية إلى المنزل، في سيارة صهرها زوج نجلاء التي قرّرت البقاء في بيت أمها بعد الحادثة الأخيرة، تاركةً زوجها وأولادها الأربعة: الصبيان الثلاثة وأختهم البكر المقبلة على الزواج، زينة. فرغم أن زوجة أخيها التي تقطن في الشقة المجاورة لم تقضر مع حماتها، إلا أن نجلاء لم تقبل بترك الثقل كله عليها، بعد أن تصالحت نجوى مع زوجها، حسب عادتهما المألوفة لدى الجميع بالخصام والصلح، وعادت معه إلى المنزل.

كانت مديحة تعتبر خالتها مثل أمها، فبعد أن ماتت بدرية في الشهور الأولى من عمر ابنتها، وتزوج الأب من أخرى بعد أسابيع قليلة، وافقت درية على أن تأخذ الطفلة بعد أن رفضت الزوجة الجديدة الاعتناء بها. كانت من عمر ابنتها الوسطى، نجاة، فربّتها معها، دون أن تفرّق بينهما، إلى أن كبرت وزوّجتها بابنها الوحيد.

كانت دريّة في سيارة صهرها إذاً، حين لفتها محل الألبسة النسائية، في حي السليمانية، فأشارت إلى ابنتها قائلة: «شوفي هالفستان، بيليق للدكتورة هند، شو رأيك؟».

كانت دريّة تشعر بالسلام العميق لنجاتها، إذ كُتبت لها حياة جديدة على يد الدكتورة هند، كما صارت تكرّر

أمام بناتها وكنّتها وجاراتها، وكانت نجلاء تعرف أن قمّة سعادة أمها ستكون أن تقدّم شيئاً ما للدكتورة، لذلك فإنها هتفت بحماسة: «يا إلهي، كأنه نسخة من فستان أليسا.. وقّف ابن عمي، بدنا ننزل هون!».

*

استغرب شريف حين رأى سيارة صهره تقف أمام محلّه، وتنزل منها أخته وأمه، فهرع تاركاً قضيب البرونز الذي كان يسحبه ولا يزال حامياً.

طمأنته أمه أنها بخير، لكنها تريد الصعود إلى عيادة الدكتورة لتأكيد دعوتها على الغداء في الغد، دون أن تدخل في تفاصيل، لا تهمّ الرجال برأيها، بخصوص الثوب الذي رأته وشعرت أنه مناسب لهند، وكأنه مفصّل خصيصاً لها.

صعدت مع ابنتها حتى الطابق الثاني، وجلستا تنتظران. حين خرجت الدكتورة من غرفة الكشف بعد نصف ساعة تقريباً، ورأتهما، عاتبت زينب بلطف: «كان لازم تخبريني إنه الحجة أم شريف عندنا!».

- «مو مشكلة يا بنتي، بعرف أنك مشغولة، وشغلك أهمّ».

دعتهما كي يدخلا الغرفة، وطلبت من زينب أن تعدّ لهما الزهورات.

أخرجت دريّة الثوب من الكيس وقالت لها بكثير من المرح: «يا ريت يعجبك.. لمّا شفته في الفاترينة، حسّيت أنو عم يناديني ويقول تعالي اشتريني!».

أمسكت هند بالثوب وشهقت: «يا الله يا خالة، أرجوك ما تشعري أنك مضطرّة تقدميلي شي، أنا ما عملت غير واجبي كطبيبة!».

- «لا أبداً.. أنا حبّيت الفستان، يا ريت يطلع على مقاسك!».

- «إي هو مقاسي، لكن أنا ما بلبس من هالموديلات».

قاطعتها دريّة: «صحيح صدره مفتوح، ودون أكمام، لكنه للمناسبات.. أرجوك اقبليه مني، بفرح كتير إذا بشوفك لابستيه!».

تردّدت هند وراحت تقلب الثوب، وقالت بغتة: «أحمر؟ وغامق؟ وتطريز على العنق، وفراشة من الدانتيل الأسود! بحسّ حالي غريبة عن حالي بهيك فستان!».

قالت ذلك وهي تضحك، فقالت نجلاء: «أنت صبية وحلوة، جربي تغيّري شكل.. إذا ما حبّيتيه، فيكِ ترميه بعدين، بس جربيه بالأول!».

وضعت الدكتورة الكيس والثوب على طاولتها، ونهضت تعانق دريّة وتشكرها على الهدية. فيما أكدت الأخيرة دعوتها على الغداء. سألت هند عن إمكانية تأجيل الموعد إلى العشاء، لارتباطها بعملية في المشفى، ووجدت دريّة أن هذا أكثر ملاءمة، فهكذا ستجد وقتاً أطول للبقاء بعد الطعام، ولن تكون في عجلة كي تعود إلى عيادتها ومريضاتها المنتظرات.

حين رجعت مديحة في آخر النهار، بصحبة نجوى، لشراء الثوب، اعتذر البائع منها: «كان آخر قطعة.. بعته اليوم الصبح!».

انزعجت مديحة وراحت تتمتم بصوت مسموع: «الله يلعن اللي اشترت الفستان، وحرقت قلبي عليه!».

الصخب والعنف

كانت سيارة «البيك آب» تسدّ مدخل الشارع المفضي إلى عيادة الدكتورة هند، حيث تصفّ سيارتها «الستروين» الحمراء عادة، عند مدخل المبنى، بمحاذاة محل شريف، وبمحاذاة سيارته «البيجو» السوداء. أطلقت هند زمّور سيارتها عدة مرات، منبّهة صاحب «البيك آب»، ليأتي ويزيحها عن الطريق، لكن دون فائدة.

هرع حسين، الذي يعمل في محل شريف، لمساعدتها. وطلب منها أن تنتظر للحظات حتى يطرق باب عماد، ويطلب منه تحريك سيارته التي تسدّ الطريق. كانت متوتّرة وغاضبة، وتنتظر أن تركن سيارتها وتصعد إلى العيادة، فلديها العديد من المواعيد.

لكن عماد خرج غاضباً يصرخ بوجه حسين، فنزلت هند من سيارتها ومشت صوبهما، وحين رآها عماد صار يصيح بها: «شو يعني أنك دكتورة؟ أنا بترك سيارتي محل ما بدي، أنا في حارتي وحارة أهلي، وما حدا بيطلعلوا يعلّمني شو أعمل!».

ردّت هند عليه بهدوء، رغم توترها، وشرحت بأنها

متأخرة عن العيادة بسبب سيارته، وطلبت منه بطريقة مهذبة، أن يزيح سيارته عن طريقها. لكن عماد أخذ يتحدث معها بفوقية، ممتلئاً بالإحساس بأنه رجل، وأنها أمامه مجرد امرأة، لا يحقّ لها توجيه الأوامر. قال لها ساخراً: «السيارة بتبقى هون، وإذا ما عجبك تفضّلي، اضربيني متل الرجال.. لولا أنك امرأة ولولا العيب، لتصرّفت معك!».

تدخّل حسين مرتبكاً: «شو هالكلام يا جار! من حقّ الدكتورة توقّف سيارتها أمام مدخل بناية عيادتها.. عندك محل فاضي قدّام بيتك، عطيني مفتاح سيارتك، وأنا بجيبها لهون!».

- «ما حدا بيمشي كلامه علي، بآخر هالزمن بدّك أسمع كلام امرأة؟ انقلع من هون يا ولد، خود دكتورتك من وجهي، قبل ما أتصرّف بطريقتي، طزّ فيك وبالدكتورة!».

في هذه اللحظة، كان شريف يترجّل من سيارته التي تركها في الشارع الخلفي، أمام مدخل مبنى بيته، فقدّر الموقف سريعاً، بعد أن انتبه لوجود سيارة «السيتروين» خلف «البيك آب»، ووجدها فرصة ليعلن لأهل الحارة جميعاً انتماء الدكتورة لهذا المكان، واعترافه بفضلها عليه وعلى أمه.

لم يشعر عماد إلا وقبضة يد قوية تمسك بقميصه من ناحية الكتف، ثم سمع صوت شريف يعلو على صوته: «ولاك خرا.. لسانك طويل أمام النساء لأنك

واطي. هات مفتاح السيارة!».

ارتبك عماد الذي يعرف تهوّر الرجل وقبضته العنيفة، فوضع يده في جيب بنطاله مرتبكاً، وأخرج المفتاح الذي التقطه شريف سريعاً وناوله لحسين: «هات البيك آب لهون!».

هرول الصبي باتجاه البيك آب يحرّكها، بينما وقفت هند مرتبكة.

في هذه الأثناء، وبسبب الأصوات العالية، كان أهل الحارة قد بدؤوا يتجمعون: خرجت سعاد إلى شرفتها المطلّة فوق الساحة، وخرج من دكانٍ أسفل البناية ذاتها، والدها القصّاب أبو فؤاد، كما خرجت زوجة عماد، صاحب محل الكعك في الحارة الخلفية، ووقف بعض السكان على الشرفات، واقترب بعض الصبيان والرجال.

بعد أن ركن حسين «البيك آب» أمام بيت عماد، وسدّ بها مدخل البيت تقريباً لضيق الشارع، قام بتقريب سيارة الدكتورة التي كان المفتاح موجوداً داخلها، وركنها في مكانها المعتاد منذ أسبوعين.

أحسّت هند للمرة الثانية أنها في موقف «الفرجة». في المرة الأولى حين حملها أمام أهل الحارة وركض بها غاضباً صوب أمه فاقدة الوعي، والآن وهو يعنّف عماد لفظياً ويهدّده.

بغتةً وكأنه يلقي خطاباً كما في المسلسلات المحلية، وقف شريف وقال بصوت جهوري مغطّياً على صخب أهل الحارة المثرثرين: «اسمعوا منيح! هالسث - أشار

إلى هند - من عيلتي، وهي مثل واحدة من أخواتي، أي حدا بيزعجها أو بيتطاول عليها، بيعرف شو فيني أعمل معه! بتعرفوا كلكم شو بيطلع معي إذا حدا قرّب على وحدة من أخواتي!».

ثم توجه صوب الدكتورة وقال لها: «تفضلي دكتورة على عيادتك، اللي بيفكّر يزعجك، بتكون أمه ما جابته!».

ارتبكت هند ولم تعلّق أبداً على كلامه وتصرّفه المشهدي بطريقة فظّة، إذ وضعها في مركز النظر، تتّجه إليها العيون التي تملؤها نظرات التساؤل عن شكل العلاقة بينها وبين شريف الذي يعلن أنه مستعدّ لقتل من يضايقها.

دخلت المبنى بقلق، ولمّا وصلت إلى العيادة قامت زينب بتحضير القهوة لها، وجلست تحدّثها بزهوّ عن رجال الحارة.

- «دكتورة أنت ما بتعرفي حارتنا منيح.. شريف معروف في الحارة، وكلمته ما بتصير اثنتين.. بعد كلامه اليوم، ما حدا بيقدر يتجرأ يزعجك ولو بنظرة».

ثم أخبرتها أن جميع أهل الحارة يخافون منه ويحسبون له ألف حساب، لأنه لا يمزح أبداً بما يخصّ أخواته. وعلى الرغم من أنه يبدو لطيفاً في الغالب، فإنه يتحوّل إلى وحش إن تجرّأ أي شخص وأزعج واحدة منهن، ولو إزعاجاً بسيطاً.

- «لو تعرفي شو عمل بفؤاد ابن القصّاب، لأنه

تحركش بأخته، اسمعي لأحكيلك القصة كاملة».

حيّ الهلك - حلب - عام ٢٠٠٥

حفلة التيس

في حفل خطوبة سعاد من ابن عمّها، وقعت الحادثة.

اعتاد أهل الحارة إطلاق اسم «التيس» بدلاً من إدريس، على ابن عمّ سعاد، في غيابه، حتى أنها هي أيضاً، كانت تمزح أحياناً، حين تتحدث عنه بين صاحباتها، فتطلق عليه اللقب ذاته.

في ذلك اليوم نصب أهل العروس، أو بدقّة أكثر، والدها القضاب المعروف بأبي فؤاد، خيمةً في وسط الساحة لاستقبال الرجال فيها، أما النساء فسيتم استقبالهنّ في منزله، الذي يقع في الطابق الأول، فوق محلّه تماماً.

كان للحارة شارعان، واحد رئيسي يمر أمام الساحة التي يقع محل الحدادة في طرفها الشمالي مقابل الباب الأول لمحل أبي فؤاد، والشارع الآخر يتفرع عن الأول من الطرف الأيمن للمحل، وفيه باب فرعي، وفيه أيضاً مدخل البناء الذي تسكن فيه عائلة فؤاد. تحيط بالساحة من الجانب الأيمن بناية اشترت الدكتورة هند إحدى شققها، أما من الجانب الأيسر فهناك طريق ملتوٍ يبدأ من أمام بيت عماد كعك جي، ويمرّ من أمام بناية شريف وأهله، ثم يلفّ إلى الحارة الخلفية التي يقع فيها محل عماد.

كان فؤاد واقفاً أمام باب المحل الفرعي، يدخن

سيجارته ويتحدث على الهاتف، حين رأى نجوى تخرج من بيتهم وحدها، وعلائم الغضب على وجهها.

سألها بهدوء: «ليش الحلو زعلان؟».

فوقفت فجأة، وهي بكامل زينتها الاستثنائية، الزينة المخصصة للحفلات والأعراس، وصرخت به: «أنت قليل أدب، وبدك تربية.. ما بتعرف مين أنا؟».

ارتبك فؤاد وصار يعتذر من نجوى، بينما هي تكيل له الشتائم وكأن عقرباً عقصها. هرع الأولاد صوب أخيها: «شريف.. شريف.. فؤاد تحركش بأختك!».

كان الرجل معروفاً بأنه يفقد صوابه حين يتعلق الأمر بأخواته، لذلك ما إن لمحه فؤاد قادماً، حتى أخذ يوضح له: «ما عملتلها شي، والله العظيم ما لمستها!».

وقبل أن ينهي كلامه كان شريف قد هوى بقبضته القوية على وجهه، ثم شدّه من قميصه الذي تمزق على الفور، وأخرجه من الممرّ الضيق الذي يفصل بين المحل وجدار المبنى المقابل، جرّه إلى وسط الساحة، قرب الخيمة، وانهال عليه ركلاً بحذائه.

طار صواب أبي فؤاد حين أخبره أهل الحارة: «شريف سيقتل ابنك!»، فركض حاملاً ساطوره.

أما النساء اللواتي كنّ جميعهن في منزل العروس، فالتقطن مناديلهن ليضعنها على رؤوسهن، وركضن يخفّفن من غضب الرجال.

كانت المعركة قد احتدمت بغتة بين الاثنين، الأول

بساطوره، والثاني بالمطرقة التي أخذها من يد حسين الذي جاء لنجدته.

نهض فؤاد والدم ينزف من شفته الممزقة، محاولاً الفصل بين الاثنين وتهدئتهما، لكن شريف لكمه متوعّداً: «حسابك بعدين.. رح أقتلك أنت وأبوك.. اللي بيمسّ شعرة من أخواتي، بذبحه هو وكل عيلته!».

كانت أمه درية قد صارت بقربه، فصاحت به: «اهدأ يا ابني وخلّينا نفهم القصة!».

ردّ فؤاد: «والله العظيم يا خالة ما لمستها، وما قلّلت أدبي عليها، هذه بنت حارتي، وأنا حريص عليها، وشرفها من شرفي».

- «أنت قليل شرف». صاح شريف، محاولاً دفع الرجال الممسكين به ليبعدوه عن ساطور أبي فؤاد. استطاع بصعوبة الإفلات منهم، وهوى بمطرقته، التي لم يفلح أحد في سحبها من يده، على كتف فؤاد.

انفجر الدم من ذراعه، وفقد الوعي فجأة وسقط على الأرض، وبدأ الأولاد يصرخون: «مات.. فؤاد مات!». فيما صارت النسوة تولول، والرجال يصرخون: «اتصلوا بالإسعاف.. الزلمة عم يموت!».

في تلك اللحظة، سمع أهل الحارة صوت زمور سيارة الشرطة. لا بدّ أن أحد الأشخاص اتصل بهم. أخذوا شريف وأبا فؤاد، بينما نقلت سيارة الإسعاف فؤاد، وقد صعدت معه أمه، وخطيب ابنتها الشؤم، إدريس، أو التيس.

تحوّل اسم ذلك اليوم المشؤوم، في حكايات أهل الحارة وذكرياتهم إلى «يوم خطبة التيس». وقد تمّت الخطوبة لاحقاً بصمت، ودون احتفال، بعد أن عاد فؤاد إلى البيت متعافياً، وأسقط حقّه أمام الشرطة، رافضاً الادّعاء على شريف، الذي يعتبره مثل أخيه.

- «أخ وغلط في حقّ أخيه.. نتصالح بيناتنا بعدين!»، قال لأهله المصدومين من قراره.

العاشق

لم تصدّق أم فؤاد ما سمعته من ابنها. كأنها تحلم، أو كأنه يهذي.

فؤاد كان مجنوناً بنجوى.

أحبّها منذ الطفولة حين كان الثلاثة يذهبون معاً إلى المدرسة، هو وأخته سعاد، ونجوى التي يمرّان عليها وتكون في انتظارهما أمام مدخل بنايتها. كان يراها تكبر أمام عينيه يوماً بعد الآخر، ويزداد حبّه لها.

لم تكن علاقة سعاد بأخيها مجرّد علاقة عادية بين أخوين، بل كانا أصدقاء. كانت تسرّ له بكلّ شيء، وكان يحكي لها، هو أيضاً، كل شيء. لذلك كانت تعرف إعجابه بالفتاة، ووشت بذلك لها.

لم يجرؤ هو، ولا لمرّة، على الاعتراف أمام نجوى بهذا. كان خجولاً ورقيقاً، وكلما أراد التحدث إليها، ارتبك وتلعثم، وصمت. وكانت هي حائرة من سلوكه نحوها، فهو يعاملها بلطف، ولكنه لا يعلن أمامها حبّه، ما

جعلها تظنّ أنه غير متأكّد من مشاعره، لذلك كانت تشعر بالغضب منه، وتتعامل معه بمزاج عنيف أحياناً، فكان يقول لها بصوت هادئ: «يا لطيف شو بتشبهي أخوكِ.. دمكم حامي وبتعصّبوا بسرعة!».

وكانت ترد عليه بسخرية: «أحسن من الناس الباردة اللي ماعندها إحساس».

وكان يضحك: «أنا ما عندي إحساس؟».

فتجيبه بغضب: «ما بعرف.. أنا ما حكيت عنك.. وما بتهمّني أصلاً لأحكي عنك».

لولا تلك الضربة من مطرقة شريف، التي هدّت كتفه، وأوقعته في الفراش لأسابيع، حتى يلتحم عظمه وجرحه، لما تحرّك فؤاد، ولظلّ كاتماً عشقه الأفلاطوني، كما يوصف نوعٌ كهذا من الغرام الكبير.

لكن ما حدث وضع حاجزاً صلباً بين العائلتين. انقطعت الزيارات بين نجوى وسعاد. وتوقفت الأمهات أيضاً عن تبادل الزيارات، وصار العداء واضحاً بين شريف وأبي فؤاد، اللذين يلتقيان عدة مرات في اليوم - إذ إن محلّيهما متواجهان - دون أن يلقي أيٌ منهما السلام على الآخر. بل كان الشجار دائماً قاب قوسين أو أدنى من كليهما.

كان شريف يوجّه لأبي فؤاد نظرات لاذعة ملؤها الاحتقار والتهديد والاستفزاز، دائماً، وحين استجاب الأخير لها مرة، وخرج من محله حاملاً ساطور اللحم، قائلاً: «شو؟ ما عجبك؟ ليش هيك عم تطلّع فيني؟».

- «إي ما عجبني.. وما نسيت اللي صار، والقصة لسه ما خلصت، ودمي ما برد!».

قفز فؤاد من شرفة الطابق الأعلى، وحطّ أمام محل أبيه، وسحبه إلى الداخل: «أبوس إيدك أبي!».

كان فؤاد يشعر بانكسار عميق، فقد أصيب بذلٍ ثقيل. ولم يستطع نسيان صورته وهو مرميّ على الأرض، يتلقى الركلات من شريف، أمام عيون أهل الحارة، وأمام عيني نجوى. لذلك كان يتجنّب الخروج من البيت سوى إلى المحل، عبر الباب الداخلي. ولم يكن يقف على الباب الرئيسي حرصاً على ألا تلتقي عيناه بأحد من أهل الحارة.

ورغم إحساسه العميق بالمهانة هذا، فإنه لم يستطع الشعور بالكراهية تجاه شريف. فهو يعرف حجم حبّ نجوى لأخيها، ولأنه متيّم بها، رغم تسببها بالضررين المادي والمعنوي، اللذين وقعا له، إلا أنه ظلّ يحبها، ويحترم كل من تحبه.

حين صارح أمه بحبه للفتاة، نادت الأم على ابنتها، لتسمع تخاريف أخيها، وهي تضرب كفّاً بكفّ وتستغفر ربّها من الدهشة والصدمة، كانت تتخوّف من أن يقدِم ابنها على قتل شريف، ثأراً لكرامته أمام أهل الحارة، وأن يمضي حياته في السجن، ولم تتخيّل أن يأتي ليخبرها برغبته في الزواج من أخت غريمه.

قالت لابنتها: «تخيّلي أنه يتزوج أخت شريف.. معقول يا سعاد؟ أخوكِ مجنون، أو أنا ما عم بفهم..

اشرحيلي، أنت فهمتِ شي؟!».

قالت سعاد وهي تجلس واضعة ساقاً على أخرى لتطلي أظافرها باللون الأحمر: «أنتِ ما بتعرفي ابنك يا خديجة.. ابنك عشقان، والعشق طامره من رأسه لأصابع رجليه.. وما في على العاشق ملام!».

- «وكرامته؟».

- «ما في كرامة في الحبّ».

- «شريف بهدله وأذلّه أمام أهل الحارة، ومن يومها أخوكِ بيخجل يطلع من البيت.. كيف رح يتزوج أخت اللي ضربه وأهانه، ويدخلها بيته، وينام معها، ويأكل معها.. شو هالجنون!».

تدخّل فؤاد وهو يشعل سيجارة: «يعني برأيك، أقتله وأقضي حياتي في السجون؟!».

- «لا.. أكيد لا.. بس ما فيني أتحمّل أخته تدخل بيتي، وتعيش معنا، مو لهالدرجة يا فؤاد، يعني أنت يا طخّه، يا اكسر مخّه؟!»[1].

كان فؤاد يحاول أن يقنع أمه من خلال اللعب على وتر العداوة التي نشأت بين الجارين. لذلك قال لها إنه حتى لو لم يكن عاشقاً لنجوى، فكيف ستمضي الأيام وكلما تحرك هو أو أبيه سيلتقي وجهه بوجه شريف الذي يقع محلّه مقابل محلّهم. هل يمكن أن يعيشا على احتمال اندلاع حرب بينهما في أي لحظة، خاصةً أن الأب لم يغفر له ما حصل، ويظل يردّد بصوت مسموع كلما رآه: «والله لأذبحك وأخلّي دمك يلوّن حيطان

الحارة، والله لأحرق قلب أمك وأخواتك متل ما حرقت قلب زوجتي، والله لأذلّك مثل ما ذلّيتني أنا وابني!».

أضاف فؤاد بعد ذلك، سائلاً أمه: «عندك حل لهالمعضلة؟».

- «عندي حل».

- «هاتي.. إيدي بزنارك!».

اقترحت أمه عليه، وهي ترى إصراره، أن يتزوج الفتاة، ولكن يأخذها ليعيشا في حارة أخرى، بعيداً عن عينيها، فهي ستشعر بالقهر كلما رأت تلك الأفعى تتأبّط ذراعه. وأضافت أن أبيه أيضاً سيقبل الأمر بمرور الوقت.

كان فؤاد مؤمناً بأنه لن يستطيع العيش مع نجوى في الحارة ذاتها، التي شهدت مهانته ومهانة عائلته. فقال: «صحيح، أنا هيك مفكّر أعمل، ومع الأيام بتهدا الأمور».

ثم أضاف مفاجئاً أمه، مثيراً غضبها: «يعني موافقة تروحي لعند أهل نجوى وتخطبيها؟».

كادت أمّ فؤاد ترميه بأي شيء تراه أمامها، وراحت تصرخ: «أنت بهيم؟ أنا أدخل بيت شريف؟ أنا بتمنى طالع عيونه بإيديّ، مستحيل دوس بيت أهله، ومستحيل بنتهم تدخل هالبيت، طالما أنا عايشة!».

انتقام امرأة

لم تكن تلك أول مرة يحاول فيها فؤاد التغزّل

بنجوى، بل حتى إن العبارة نفسها: «ليش الحلو زعلان؟»، سبق أن قالها لها في مناسبات أخرى، لكنها افتعلت ذلك الشجار، دون أن تتوقع أن تتصعّد الأمور سريعاً، وتصل إلى تهديد بالقتل متبادل بين شريف وأبي فؤاد، أو أن تُعرّض فؤاد لتلك المهانة.

رغم ذلك فإنها لم تشعر بالذنب، ولم تتراجع، حين كان فؤاد ينظر إليها متضرّعاً لتتدخّل وتشهد على صدق كلامه وهو يقسم لأخيها: «والله العظيم ما لمستها»، لم تنطق بكلمة، ولم تحاول تهدئة شريف، بل ظلت تنظر بدم بارد، إلى مشهد العنف الذي قد يقتل أحدهما الآخر في نهايته، دون أن يرفّ لها جفن.

كان الغضب الذي يسري في شراييّنها، أقوى من خوفها على أخيها، وحرصها على عدم توريطه في جريمة يدفع ثمنها حياته، ولم تشفق ولو للحظة على آلام فؤاد.

كانت رغبتها في الانتقام منه وإذلاله أقوى من أي شيء، كانت تريد شيئاً يخفّف نار القهر الذي شعرت به، حين عرفت بالمصادفة، ما لم تكن تعرفه عنه من قبل، وشعرت بخيانته وكذبه عليها، فراحت تضرب كفّاً بكف، وهي تهرول نازلة الدرج من بيتهم، تلعن نفسها وسذاجتها، وتكرّر عبارة: «ما أغباني.. ما أغباني! أنا حمارة.. أنا حمارة!». كانت نجوى تغلي من الغضب والإحساس بالغدر، حتى سعاد خدعتها حين صوّرت لها هيام فؤاد بها. قررت نجوى الانتقام من فؤاد وتحطيمه،

كما حطّم قلبها.

كانت رغبتها في الانتقام خالصة، لا يشوبها أي تردّد أو شفقة، وحين رأته أمامها، وسمعته يقول تلك الجملة، أفلتت جام غضبها وصبّته عليه، ولو أنه قال لها كلمة «مرحبا»، أو «كيفك؟»، لكان ردّها ذاته، ستصرخ وتتّهمه بقلة الأدب، وتُخجله أمام أهل الحارة، وتُهينه، وتبصق عليه، حتى تبرّد نار عذابها.

كانت في غرفة العروس، حيث كانت سعاد تتزيّن استعداداً لاستقبال خطيبها وأهله والمدعوّات. وضعت عقد الياقوت الأحمر المعروف باسم «دم الحمام»، لكن الأم حين رأته أثبتها على الفور، وطالبتها بنزع العقد عن عنقها، وهي تذكّرها بأنها تحتفظ به لتهديه لزوجة أخيها فؤاد.

خفق قلب نجوى. عن أيّ زوجة أخ تتحدث المرأة؟ صعد الدم إلى رأسها ولم تعد تركّز في الجدال الطويل بين الاثنتين. سعاد تتهم الأم بأنها تفضّل المرأة الغريبة، العروس المستقبلية لفؤاد، عليها. والأخرى تشرح قيمة العقد المعنوية الذي ورثته من حماتها، ويجب أن تعطيه لزوجة الابن التي ستنجب الصبي، فهو من سيحمل اسم العائلة، لا أولاد سعاد، الذين سيحملون اسم عائلة غريبة.

- «صار مليون مرة بعيد هالكلام، أولاد فؤاد أحفادنا، أولادك أحفاد أهل زوجك.. افهمي!».

في تلك اللحظة، دخلت منى الغرفة، وانتبهت نجوى

لما حدث، فطار صوابها، إذ رأت كيف سحبت أم فؤاد العقد سريعاً، كأنها تسرقه، وأخفته خلف ظهرها، حتى لا تلحظه منى.

كانت نجوى تظن أنها تملأ يدها من فؤاد وأنه يحبها وحدها، ولم تتخيل أن يكون ثمة مشروع عائلي مُتفق عليه في غيابها.

لم تفكر في تلك اللحظة أن تعاتب سعاد لإخفائها عنها ذلك الأمر، ولا حتى معاتبتها على نقل رسائل غرام وهمية من أخيها، بل كان غضبها كله محصوراً بفؤاد، الذي لم يعد لها، الذي حطم أحلامها، وضحك عليها.

الدون كيشوت

- «السلام عليكم!».

قبل أن يرفع شريف رأسه عن لوح الحديد الذي يضعه أمام وجهه لحمايته من شظايا اللحام، أحس أنه يعرف هذا الصوت جيداً، وحين رفع رأسه، تجمّد للحظات غير مصدّق دخول فؤاد عليه بتلك السحنة الهادئة.فنظر إليه دون أن يردّ التحية، متوجساً من اللحظة التالية. ظنّ أن فؤاد هنا لينتقم. كان يمسك بلوح الحديد جيداً، في حال باغته بضربة ما، فسوف يردّها حتى لو قتله، فهو القادم إليه في عقر محله، ويستحقّ القتل إن حاول الاعتداء عليه.

نظر حوله سريعاً متفحصاً وجود حسين، لكنه تذكّر أنه أرسله لشراء بعض الأغراض.

لو كان هنا، لأعلم معلّمه باقتراب الرجل قبل أن يدخل المحل، فهو كالصقر، يراقب كلّ ما يدور حول شريف، ليُبعد عنه الأذى، لكنه ليس هنا. وها هو ذا فؤاد يقف فوق رأسه ويكرّر ثانية: «السلام عليكم، أخي شريف!».

نهض متباطئاً، ولا تزال الدهشة تعقد لسانه.

ارتبك أمام يد فؤاد الممدودة، ولم يتمكّن من رفض المصافحة، إذ كان هو من ضربه، وحطّم كتفه وأذلّه أمام أهل الحارة.

قال فؤاد ممازحاً، رغم صعوبة الموقف: «عازم حالي على فنجان قهوة عندك!».

في تلك اللحظة، وصل حسين مندهشاً هو الآخر، ووقف ينتظر أوامر معلّمه، ولو طلب منه ذبح فؤاد لما تردّد لحظة.

- «حضّر لنا القهوة، يا حسين».

- «أمرك معلمي!».

أخرج فؤاد علبة سجائره من جيب قميصه، وناول سيجارة لشريف، وأخذ واحدة. وبعد أن أشعلهما، قال له: «أكيد مستغرب من زيارتي».

- «خير؟ عم أسمعك».

لم يصدّق شريف ما سمعه من فؤاد. ظلّ صامتاً للحظات، وهو يقلّب المسألة في رأسه، مستغرباً أن يأتي الرجل طالباً يد أخته نجوى للزواج.

سأله عن موقف أهله، وذكّره بأنه وفق التقاليد فإن

الأهل هم الذين يطلبون العروس لابنهم. كان متوقعاً أن العائلة سترفض هذا الزواج بعد الشجار الأخير، وهذا ما أكّده فؤاد، مضيفاً أنه يحترم نجوى (لم يجرؤ على القول بأنه يحبها)، وهو يراها الزوجة الأفضل له، لذلك فإنه مستعدّ لتجاوز رغبة أهله. ثم وعد شريف، أنه في حال وافق على طلبه، فإنه سيخرج مع زوجته من الحارة، ويسكنان في حي الميدان، حيث وجد عملاً هناك، وقد وافق صاحب العمل أن يعطيه سلفة من المال، تكفي لتسديد أول دفعة من الإيجار، وبمدخراته سيؤمن نفقات العرس وفرش البيت. أما من جهة أهله، فسوف يذعنون حين يصير الأمر واقعاً. هم يعارضون الآن آملين أن يلغي فكرة الزواج بنجوى من رأسه، لكنه لا يريد من الحياة سواها.

أضاف بعد ذلك: «هاد حلمي.. وأنا عم بحكي معك حديث رجل لرجل.. وأنا واثق أنك بتعرف مصلحة أختك وبتعرف لمين تزوّجها».

ابتسم شريف وسأله: «واللي صار بيناتنا؟».

فابتسم الآخر ببراءة واضحة على وجهه: «أخ كبير أعطى درساً لأخيه الصغير». ثم ضحك وأضاف: «الدرس كان صعب، لكني بحترمك، وبقدّر حرصك على أخواتك، وأنت شخص كبير في نظري».

- «يعني مانك حاقد عليّ؟».

- «لا أبداً.. أنا زعلت وانجرحت، لكن احترامي الك ما نقص، بالعكس، أنت كبرت أكتر في عيني».

صمت شريف قليلاً، بينما كان حسين يسمع حوارهما، إذ لم تكن من عادة شريف إقصاءه عن حياته، كان مثل ابنه الأكبر، وكان يوصيه دائماً: «أنا وحيد، وأنت أخي الصغير، أو ابني الكبير.. إذا صار لي شيء، أخوك أدهم أمانة في عنقك. هاد المحل إلك وإله.. لا تتخلّى عن أدهم! هو وحيد مثلك كمان!».

لم يكن يعرف الكثير عن الصبي قبل أن يعمل معه، أخبره أبو فؤاد، زوج عفة حسين، بأنه يتيم الأبوين ويبحث عن عمل، فشغّله، وسرعان ما أحبه واعتبره واحداً من أفراد عائلته، وما زاد في ثقته به بعد ذلك أن الشجار الذي وقع بينه وبين زوج عمته وابنها لم يؤثر عليه، بل وقف معه وقال له: «أنت معلمي وبتهمّني أكتر من عيلتي.. أنت وأهلك عيلتي».

كان حسين صادقاً في كلامه، فهو يشعر صوب هذه العائلة بالانتماء والولاء، إذ كانت أم شريف تحنّ عليه وتعامله أفضل من معاملة عفته له، فالأخيرة كانت تعتبر إذعانها لقرار الأخ الكبير في أن تعتني هي بابن الأخ المتوفي، قراراً عائلياً فُرض عليها، دون أن تكون لديها رغبة حقيقية في ذلك. إضافةً إلى أنها كانت تكره أمه، حتى بعد موتها، وتعتبرها السبب في موت أخيها.

انتظر الصبي المتفرّج على المشهد ردّ معلّمه بلهفة، فهو يتعلّم منه في كل يوم درساً جديداً في النبل والدفاع عن الآخرين، الأضعف منا، والذين يحتاجون إلى حمايتنا.

وقد كان يؤمن بالبطولة المثالية، تلك التي تشبه بطل سيرفانتس الذي كان يصارع طواحين الهواء.

لم يكن وحده دون كيشوت هذا المشهد، بل حمل فؤاد أيضاً بذوراً دونكشيوتية، وهو يحدّث شريف، المعتدي عليه، عن احترامه له لحرصه على أخواته، متجاوزاً نفسه، والألمين الجسدي والنفسي، لأنه يعتقد أن القيمة الأخلاقية التي يحملها شريف، أعلى من حالة الألم الفردية التي يعاني منها هو.

كان يرى في هذا الزواج تحقيقاً للعدالة، إذ سيمحو العداوة الخفية والظاهرة بين العائلتين، سيكفّ والده عن النظر إلى شريف كمعتدٍ على ابنه، وسيكفّ أيضاً عن التفكير بالانتقام ورد الاعتبار. وسيشعر هو بالتوازن وبأنه استعاد كرامته أمام أهل الحارة حين يتزوج من أخت الرجل الذي ضربه، هكذا سيظهران أن لا عداوة ولا اعتداء، وأن هذه أمور تحصل بين الأهل دون أن تترك آثاراً سلبية. كان هذا ما يطمح إليه: العدالة والسلام في الحارة، للعائلتين وللآخرين.

شرد شريف مطوّلاً، ثم قال: «عطيني وقت أفكّر وأشاور أمي وأختي».

أشرق وجه فؤاد بابتسامة كبيرة، ثم نهض وصافحه ليغادر، وقبل أن يصل إلى الباب سمعه يناديه، فالتفت إليه: «أنت كبرت في عيني يا فؤاد.. بتمنى أنه أختي توافق عليك»، ثم غمزه وأضاف: «رح أقنعها.. رجل بأخلاقك بيستحق يكون من عيلتي!».

رأت أم شريف أن هذا الزواج سينهي التهديد المستمر باحتمال اندلاع الحرب في أي لحظة، بين رجال العائلتين. وبغضّ النظر عن تلك الخلافات، فإن فؤاد شاب لطيف ومهذب وكسَيب ولا يعيبه أي شيء، سوى اعتراض أهله على هذا الزواج. وهي كأمّ، لا تهمّها سوى مصلحة أولادها وسعادتهم، وبهذا الزواج، ستطمئنّ على سلامة ولدها في عدم انجراره إلى الدم، وعلى ابنتها في تزويجها واستقرارها، واعتقدت، مثل فؤاد، أن أهله سرعان ما سيذعنون للأمر حين يجدون ابنهم زوجاً لابنتها.

طلبت من ابنها أن يسمح لها باستقبال الخاطب والتحدّث إليه، قبل أن تقول رأيها النهائي، وقبل استشارة ابنتها، فدعاه إلى الغداء في اليوم التالي.

جهّزت نجوى الطعام بمشاركة أمها ومديحة، ثم اختفت الاثنتان في الغرفة حين وصل الضيف. وحدهم، شريف وأمه وفؤاد، اجتمعوا على طاولة الغداء. وراحت دربّة تتحدث مع الرجل في أمور عادية، حول عمله، وخططه الحياتية، ثم دخلت معه في تفاصيل مشروعه بالانفصال عن أهله، في السكن وفي العمل، واستقلاله، وهو وحيدهم، وسألته عن مدى قدرته على احتمال نتائج هذا الانفصال، وفيما لو كانت رغبته عارضة، فقط لأنه شاب ومندفع عاطفياً ربما.

قالت له: «بعرف أنك بتحب بنتي»، لم تحتج إلى

المواربة واللعب بالألفاظ أمام ابنها، فالحب ليس عيباً حين يكون هدفه الزواج في نظرها، ثم أضافت أنها تعرف أنه لم يسئ لها، كانت قد سألت نجوى عن ذلك.

كانت الأم تعرف أن ابنتها عنيدة ومغرورة قليلاً بسبب أخيها الذي أفسدها بمبالغته في تدليلها بعد وفاة الأب وأخذه لمكانه في البيت والعمل، كان يخاف أن تشعر بالحرمان واليتم لأنها الصغيرة في العائلة، وهذا ما جعله لا يرفض لها طلباً.

وكانت تعرف أيضاً أن ابنتها لن تعيش إلا مع رجل يحبها كثيراً ليستطيع تحمّل طباعها القاسية ومزاجها الصعب. نجوى بنت لطيفة ومرحة حين يحلو لها الأمر، ولكن بخاطرها، ليست بنتاً مطيعة وسلسة، وهي لا تحتمل الإهانة ولا الأوامر، ولا تفعل إلا ما في رأسها.

شرحت أم شريف كل ذلك لفؤاد، ثم قالت له: «عم أحكيلك كل هالكلام لتعرف وين رايح في حياتك.. ممكن بنتي ترفض أن يتدخل أهلك في شؤونها، ويمكن تقبل، ما بعرف، لأنها مزاجية وصعب نتوقّع ردود أفعالها.. بعد هالكلام، إذا كنت مستعدّ تتحمّل مزاجها، ومعاملتها بلطف ومسايرة، فأنا من جهتي موافقة».

هزّ الأخير رأسه وقال: «بوعدك يا خالة أنه حطّ بنتك في عيوني!».

- «انشالله خير يا ابني.. لازم شاور البنت، وشوف رأيها».

جاء فؤاد في اليوم التالي وحده، ومعه خاتم

الخطوبة.

أما العرس فقد تمّ بعد شهرين، باحتفال صغير أقامته عائلة نجوى ودعت إليه نساء الحارة، دون الكثير من الضجيج والمراسم احتراماً لأهل العريس الرافضين لهذا الزواج.

دخل العريس إلى حفلة النساء متأبّطاً ذراع حماته التي أخذت محل أمه، فنهضت نجوى لاستقباله وهي بثوب العروس. وبينما هو يجلس إلى جوارها، همست له: «أنا رضيت فيك نكاية بأمك، لكن مشاعري مو إلك!».

احمرّ وجه فؤاد، وخفق قلبه بشدة، وكاد يموت من الوجع النفسي، همس لها وسط الغناء والموسيقا: «في حدا تاني؟».

فهزّت كتفها كأنها تقول ربما. لم يكن جوابها واضحاً، ولم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل. أهله يخاصمونه من أجل هذا الزواج، فهل يلغيه في آخر لحظة، ويهين شريف وأهله؟ هل سيغفر له إن فعل؟ ستكبر دائرة الدم الصغيرة من الرغبة في ردّ الكرامة بين متشاجرين، إلى ردّ الكرامة الأكبر، بين رافض للزواج في ليلة العرس، وأخي العروس.. ماذا يفعل وهي تقول له في ليلة الدخلة: «مشاعري ليست لك!».

قرّر أن يضع على جرحه ملحاً، ويكمل ما بدأه. وحين انتهت الحفلة أخذ عروسه وخرجا معاً من الحارة إلى بيتهما الجديد.

بعد ثلاثة أيام، تمكّن فؤاد من أخذ «بياض وجه» عروسه، كما يُقال. ثلاثة أيام وهو عاجز عن الاقتراب منها. ثلاثة أيام وهي منكسرة وحزينة ونادمة، إذ اعترفت لأختيها، نجاة ونجلاء، أنها كانت تمزح معه لتغيظه وتهدّده، لكن المزحة كانت قوية، ولم تتوقع أنه لن يغفر لها هذا.

لم تقل له إنها كانت مزحة. كان كبرياؤها أكبر من ضرورة التوضيح الذي سيكون اعتذاراً، وهي امرأة لا تتنازل ولا تعتذر، ولو على جثّتها، ولو على خراب حياتها.

طلبت منها أختاها مراراً أن تخبر زوجها أن لا أحد في حياتها، كانت تظن أنها ستمتلكه عبر التهديد بالخسارة، فالرجال في البلاد الشرقية لا يستحقّون الأمان. وبمجرد حصولهم عليه يركضون خلف امرأة ليست لهم. الرجل لا يقدّر المرأة التي معه، وتبقى عينه دائماً على البعيدة وصعبة المنال. إنهم مثل الأطفال، التملّك يُفقدهم الدهشة وحبّ ما بين أيديهم. التجويع هو التقنية الأصحّ، فالرجل حين يشبع يتلصّص على موائد الآخرين.

هذا ما وضّحته لنجاة ونجلاء، ثم حذّرت أختيها من إشباع زوجيهما: «خوّفيه دائماً أنك رايحة لعند غيره.. وبيحطّك بعيونه».

خمسة أعوام على الزواج لم تنجب فيها نجوى. لكنها حافظت على تقنية عدم إشباع الحبيب، وتخويفه

بالفقد، وظلّت طيلة هذه الفترة تحرد في بيت أمها من شهر إلى آخر، وتهدّده بالانفصال.

---

1 مثل شعبي يُقال لمن لا يعتدل في تصرفاته.

بياض الثلج[2]

حين وقفت النساء على النوافذ والشرفات، ونزل بعضهن إلى الساحة، للاقتراب من مشهد الشجار بين شريف وعماد، تسنّى لمعظمهن الوقت والمسافة لتأمل الدكتورة، وراحت القريبات، اللواتي رأينها في الساحة، يؤكّدن للبعيدات، اللواتي رأينها عبر الشرفات والنوافذ، ولمن لم يرينها حتى، أن الدكتورة هند مصنوعة من ندف الثلج الأبيض.

وكانت النسوة اللواتي زرنها في عيادتها، ينسجن عنها القصص الخيالية، ويشرحن لجاراتهن وصديقاتهن، مآثرها، ومصدر بياضها، وصرن يؤكّدن أن هذا البياض الناصع والنظيف، ليس سوى نتيجة للترف الذي تعيش فيه، إذ ثقة نساء بيضاوات البشرة في الحارة، لكن بياضهنّ باهت وشاحب وقريب من الصفرة، على عكسها، وكأن البيئة التي تتنفس هواءها، تكسب بشرتها، بياضاً مشعّاً.

قالت النسوة إن الدكتورة لا تأكل اللحم الأحمر وتكتفي بالأبيض منه، من لحوم الدجاج والأسماك، وقالت أخريات إنها لا تأكل اللحم أصلاً، ولا الخضار الملوّنة كالبندورة والفجل، بل تكتفي بالبيض والحليب! فيما اختلفت أخريات مع السابقات وأكّدن أنها مثلهن، تأكل كل شيء، لكنها تنقع جسدها في كل صباح، ثلاث

ساعات وربما أكثر، في الحليب، حتى تتشرّبه مسامات جلدها، إضافة إلى أنها لا تستحمّ بالماء والصابون، بل تغسل جسدها به، ثم تجفّفه بفوطة من القطن الأبيض. وأضافت أخريات أن الدكتورة تنثر حفنات من الحليب المجفّف على سريرها قبل النوم، ثم تدهن جسدها بالمراهم المليّنة للبشرة، فهي طبيبة درست في الغرب، تعرف أنواع الكريمات والمساحيق، ولديها أسرارها، لهذا فإن بشرتها تمتص الحليب الجافّ طيلة الليل، وحين تفيق في النهار يبدو جلدها كجلد الأطفال، كأنها مولودة للتو، ولم تلمس الغبار ولا حتى الهواء.

بل حتى إن إحداهن أقسمت إنها حاولت لمس ذراع الدكتورة أثناء الكشف الطبي في عيادتها، فانزلقت يدها على ذراعها كأنها تلمس حريراً، وأنها حين اقتربت منها ملأت رائحة الحليب أنفها، وكأن الدكتورة مصنوعة من ذلك الحليب.

كانت نساء الحارة يتأملن الدكتورة هند، كلما وصلت سيارتها في الصباح، ويرقبنها حتى تغيب في مدخل البناية، ويتداولن بينهن، الحاضرات تخبرن الغائبات، عن تفاصيل ملابسها لهذا اليوم: قميص أزرق سماوي، تبدو معه كغيمة متنقّلة في السماء، تنّورة زهريّة تجعلها كقطنة في حقل ورد، حقيبة يد بيضاء، قرط ألماس... نعم، تقسم النسوة، إنهن يرين قرطها من بعيد، يشعّ كما تشعّ الشمس المنعكسة على المرايا، يلمع القرط ويتداخل لمعانه مع أشعة الشمس ونوافذ البيوت

المطلّة على الساحة.

لم يكن بياضها عادياً، بل كان ممزوجاً بقليل من الحمرة، أو اللون الوردي، فتبدو بيضاء متوَرّدة، مُضيئة، لامعة.

لم تكن هند تحب لون بشرتها الفاضح. كانت تشعر أنه يضع حاجزاً بينها وبين الآخرين، قبل أن يعرفوها. وتذكّر بحرقة، كيف كان مامد يحدّثها عن خوفه من الاقتراب منها، وكيف أنه يخاف أن يلوّث بياضها بأنفاسه المغبرّة، «بتعرفي كيف منخاف على الأقمشة البيضاء أنه تتوسّخ بسرعة؟ وكيف ما منلمسها إلّا لمّا نكون متأكّدين من نظافة أيدينا؟!.. أنت بتشبهي هالشراشف البيضاء، اللي منخاف عليها تتوسّخ من أي شي.. بتشبهي فستان العرس، بتلمعي وبتضوّي، وبيخاف الواحد يقرّب عليكِ، أو يؤذيكِ!».

أحبّت هند بشرة مامد الحنطية، كما أحبّت لون زلوخ، وألوان المزرعة والفلاحين، وكرهت لونها المتفرّد، البياض الذي لا يحتمل الضدّ. كانت تشعر كأنها في حالة امتحان دائمة لإثبات نظافتها البرّانية ونقائها الداخلي، كأنها يجب أن تكون ملاكاً، خالياً من الأخطاء. ربّتها أمها بصرامة، لتحاول أن تخلق منها كائناً متفوّقاً ومختلفاً، بل متعالياً. ولولا زلوخ، لكانت هند امرأة بيضاء فقط، بقلب أحمق. ولولا مامد، لما صار قلبها أينع وأنظف وأجمل من لون بشرتها، تماماً، كقلب مامد شديد البياض، المصنوع من ندف القطن لا الثلج، فالقطن

دافئ بعكس الثلج البارد، وهي تحب القطن، والشاش، والكحول، وتملأ حقيبة يدها بهذه الأغراض، التي تنظّف العالم من بشاعته، تقصد عالم الروح القابعة تحت الجسد، حيث البياض الأهم والأثرى تحت الجلد.

حفلة التفاهة ٢

ما إن دخلت من الباب حتى شهق الجميع تقريباً، والتمعت عينا دريّة وهي تقول: «ما شاء الله!.. جمالك لا يُعلى عليه.. فعلاً فعلاً أحلى من هند رستم!».

حين خرج شريف من المطبخ ورأى هند أمامه ضبط انفعاله، وكان يقول في سرّه: «سبحان من خلقك بهالحسن!».

كانت دريّة قد دعت عائلتها بالكامل، فقد كانوا يجتمعون عادة من وقتٍ إلى آخر، خاصة في العيدين الكبير والصغير: بناتها الثلاث وأزواجهن الثلاثة، وأحفادها الستة، وشريف ومديحة. وكما في كل مرة خصصت طاولتين للمدعوين، تسعة كراسي للكبار، في غرفة السفرة كما يدعونها في حلب، وطاولة للأحفاد الستة، الصبيان الأربعة والبنتين، في غرفة الجلوس، حيث تنفتح الغرفتان إحداهما على الأخرى، بوجود باب متحرّك يسهل تثبيته، فتبدو الغرفتان كغرفة واحدة.

أضافت هذه المرة كرسياً عاشراً، وضعته في قمة طاولة الكبار، لضيفتها التي أقامت الوليمة على شرفها، بينما وضعت مقعدها على رأس الطاولة من الطرف

الآخر، قبالة هند. ووضعت بناتها الثلاث وكنّتها على اليمين، وقبالتهن الأزواج الثلاثة وابنها، بحيث يجلس كل زوج قبالة زوجته. ومن باب التقدير للدكتورة كان كرسيها يتوسّط شريف من جهة، وزوجته من الجهة الأخرى.

كان الجميع مستمتعاً بالطعام، يكيل المديح لدرية التي أشرفت على جميع الأطباق، ساعدتها بناتها في لفّ ورق العنب وطحن الكبّة وحشوها وقليها، بينما احتفظت لنفسها بتحضير القبيوات[3]، أما نجلاء فاختصّت بتحضير الملوخية والرز، وتفرّغت نجوى للسلّطات والتبولة والفتوش.

وحدها مديحة لم تكن تشعر بطعم الأكل في فمها، كأنها تلوكه في نومها. كانت تكتم غيظها وهي ترى هند ترتدي الثوب الذي رغبت به، رغم أنها، من شدّة غضبها، كانت تودّ لو تخنقها لا لأنها حصلت على الثوب الذي أرادته فحسب، بل لأنها ظنّت أن زوجها فضّلها عليها، وذهب لاقتناء الثوب بعد أن أوصلها إلى البيت. كان عقلها مشغولاً بتخيّل سيناريوهات تخطيط زوجها لشرائه.

عادة لا يهتم شريف بملابس النساء. لم يُهدِها في أيّ يوم ثوباً، ولا ذهب مرّة معها، كأزواج أخواته، لشراء الملابس، بل كان يعتبر أن هذه التفاصيل تافهة. راحت تتساءل عن اللحظة التي خطر له فيها أن يقتني هذا الثوب بالذات للطبيبة، ولامت نفسها لأنها طلبت منه

التوقف عن القيادة لشرائه. لو لم تعلن أمامه عن جمال هذا الفستان لما انتبه له. اختارت هي بنفسها الهدية التي سيأخذها للمرأة التي ستغيظها بارتداء ثوب أرادته لها. هزّت رأسها نافية الفكرة.

كانت قد انفصلت تماماً عن المكان، حين سألها شريف مندهشاً: «شو مديحة؟ عم تحكي مع حالك؟».

ولأنها أرادت أن ترد له الصاع على الفور، قالت متخابثة: «فستان الدكتورة دوخني، بحسدها من قلبي على ذوقها في اللبس!».

تدخلت دريّة على الفور: «أكيد الدكتورة هند ما حدا مثلها.. دخيل روحها ما في حدا بجمالها، ولا حتى هند رستم بذاتها!».

قالت جملتها الأخيرة ضاحكة، وراحت تروي كيف ظنّت أن الطبيبة هي الممثلة الشهيرة حين أفاقت من الغيبوبة وظنّت أنها في عالم الموتى.

أرادت نقل الحديث إلى مكان آخر، واستوعبت هند على الفور أنها لا ترغب بأن تعرف كنّتها أن الفستان من اختيارها.

كان هذا اقتراح ابنتها نجلاء التي أكدت لأمها أن مديحة تغار من كل شيء، وأنها ستكره الدكتورة حين تجد أن خالتها لم تشترِ لها ثوباً هي الأخرى، وذكّرتها كيف كانت تخاف أن تشتري لأيّ واحدةٍ منهن شيئاً دون أن تشتري لابنة أختها مثله، وإلا فإنها ستبكي وتفتح أمامها موشح أنها يتيمة ومظلومة. هذا على الرغم من

أن الأخوات الثلاثة لم يكنّ يغرنّ حين تنسى إحداهن، أو حين لا تكفيها النقود، فتشتري حقيبة أو حذاء أو بيجامة لواحدة دون الأخرى. حصّتها كانت دائماً محفوظة، ولو لم تكن هذه هي القطعة الأخيرة في المحل لاشتريا لها واحداً بالتأكيد.

أحسّت مديحة أنها صفعت شريف بعبارتها، وأنها تؤنّبه لأنه أهدى الطبيبة الثوب الذي أرادته لنفسها. واغتاظت منه أكثر حين لم يهتمّ بملاحظتها، ولم يحمرّ وجهه خجلاً من تآمره عليها وكذبه حين قال لها كي لا يتوقف لشراء الثوب: «مستعجل، في ناس بانتظاري بالمحل».

في لحظة سريعة، وهي في قمّة الغضب، نهضت عن كرسيها ومدّت جسدها مادّةً يدها عن قصد، صوب المملحة في الطرف الثاني من الطاولة، لترتطم يدها بيد هند التي كانت تمسك بملعقة الملوخية الكبيرة لتسكب منها في طبقها. مال الصحن من يدها، واندلق السائل على ثوبها، فصرخت متفاجئة ومرتبكة: «يا ويلي.. آسفة!».

- «لا.. أنا السبب.. ما انتبهت». قالت مديحة بدم بارد، مستمتعة بالبقعة الكبيرة التي ملأت الثوب من صدره وحتى البطن.

همست نجلاء لنجاة إلى جوارها: «أكيد هيك عملت عن قصد، بتعرفيها شو بتغار!».

هزّت الأخيرة رأسها موافقة أختها.

بعد انتهاء الطعام انقسم الحضور إلى ثلاث مجموعات. ذهب الرجال يلعبون الورق في بيت شريف الملاصق لبيت أمه، وذهب الصبيان الأربعة مع أدهم، ابن شريف، إلى غرفته ليلعبوا معاً، بينما ظلت النساء الست والحفيدتين، زينة ابنة نجلاء، ودريّة ابنة شريف، في الصالة يشربن الشاي ويثرثرن.

كانت نصف ملابس نجوى تقريباً في بيت أهلها، لأنها اعتادت الحرد من بيت زوجها والبقاء لدى أمها بين فترة وأخرى، لذلك قادت هند من يدها ودخلت بها إلى غرفتها لتنتقي ما تلبسه بدلاً من الفستان المتّسخ.

اختارت ثوباً كحلي اللون من دون أكمام، وشديد البساطة، لأنها كانت تكره الزخارف والدانتيلات والإكسسوارات التي توضع غالباً على الملابس، فبدت مجدداً كأنها سيّدة خارجة من سينما السبعينيات بهدوء ملامحها وشعرها الذهبي ولونها الفاتح وثوبها البسيط المُظهر لرشاقة جسمها ورقّة خصرها وضمور بطنها.

حين خرجت من الغرفة سمعت وشوشات خجولة تنتقل من زينة، ابنة نجلاء، إلى أمها، ومن ثم إلى دريّة التي أشاعت موضوع الوشوشة بصوت مسموع، قائلة لابنتها وحفيدتها: «ليش الخجل؟ الدكتورة أمامكن.. اسألوها!».

فقالت نجلاء بارتباك: «عرس بنتي الأسبوع القادم، وزينة حابّة أنك تشرفينا، وأنا كمان بيشرّفني تحضري العرس!».

- «معقول؟ زينة؟ ما صغيرة؟!».

- «عمري 16 سنة دكتورة.. أمي كانت أصغر مني لما تزوجت».

ضحكت هند: «يعني أنت موافقة؟».

صمتت الفتاة وظهرت على وجهها المحمرّ ابتسامة خجولة.

قالت دريّة: «هيك عاداتنا يا دكتورة.. البنت لما بتصل لسن البلوغ، لازم تتزوج».

- «شو قلتِ دكتورة؟».

سألت نجلاء مجدداً، فهزّت هند رأسها: «أكيد.. بيسعدني أحضر العرس واجتمع فيكن مرة تانية».

الاحتقار

مثل لصّة، نزعت مديحة الثوب الأخضر المنشور على حبل الغسيل في شرفة خالتها، متسلّلةً به إلى شقّتها.

رأتها نجوى، وسألتها قبل أن تفتح باب الشقة: «ليش آخدة معك فستان الدكتورة؟».

فاجأتها نجوى التي ظهرت كأنما فجأة، بينما هي تفتح باب الشقة، فارتبكت واخترعت بسرعة جواباً ينقذها: «لازم نكويه، بيرجع جديد مثل ما كان».

حين دخل شريف في المساء إلى منزله ورأى زوجته ترتدي الثوب، سألها مندهشاً: «هاد فستان الدكتورة؟».

- «نعم، الفستان اللي أنت اشتريته!».

- «أنا؟ أنا اشتريته؟ شو هالكلام؟».

- «مو كنا سوا لما شفناه بالمحل، وأنت ما قبلت توقّف السيارة؟».

- «تخيلي أني أنتبه على فستان.. شو عقلي فاضي لهالقصص؟».

- «من يوم ما دخلت الدكتورة حياتنا، صار عقلك فاضي لهالقصص».

- «أنتِ جنّيتِ مديحة؟ عيب هالكلام، الدكتورة مثل أختي. يالله بسرعة اشلحي الفستان ورجعيه لصاحبته!».

- «أنا صاحبته.. الفستان من حقّي، من مصاري زوجي.. اللي راكض ورا غيري!».

- «أنت مجنونة، ما عم صدّق كمية الغيرة والحقد اللي عندك. الدكتورة بالنسبة إلي مثل أختي تماماً، كبري عقلك!».

طال الجدال بين شريف ومديحة، التي راحت تسرد له تفاصيل اهتمامه بهند، وتذكّره كيف تبنّاها أمام أهل الحارة، وكيف راحت أمه أيضاً تدلّلها وتعتني بها وكأنها من العائلة، فتدعوها إلى الطعام، ولا تكفّ عن مقارنة جمالها مع هند رستم، وراحت تتشكّى وتبكي، وتلعن حظها. بينما حاول شريف كتم غيظه وسأمه من سرديات زوجته التي اعتاد عليها مراراً وهي تتذمّر من علاقته مع أمه وأخواته. وحسماً للجدال، قال لها: «أنا تعبت وراسي صار يوجعني، من فضلك، اشلحي

الفستان ورجعيه بكرا للدكتورة!».

ردّت مديحة عليه باستفزاز: «رح أعطيك الفستان يا شريف، خده أنت للدكتورة حبيبة القلب، أكيد بتعرف بيتها، روح لعندها، هي صار عندك سبب لتزورها!».

راحت مديحة من جديد، تسرد تخيلاتها عن علاقة زوجها السرية بهند، وتتهمه بأنه زير نساء، وأن نظراته صوب الدكتورة واضحة ومكشوفة.

فجأة، أحسّ شريف بالرغبة في السخرية من كل ذلك الحوار التافه، الممل: «على شو الدكتورة هند بدها تهتم فيني؟ أنا حدّاد مسكين، وهي دكتورة، شو جاب لجاب يا مديحة! خلص اشلحي هالفستان وخلينا نسكّر الموضوع!».

- «ما رح تتهنّى دكتورتك بالفستان يا شريف.. شوف شو رح أعمل!».

وكمن أصابها مسّ خلعت الثوب وأمسكت به من صدره، ثم شدّته حتى انشقّ بين يديها.

نظر شريف إليها مذهولاً: «بدّك أضربك؟ عم تعملي هالشي حتى أفقد أعصابي، بس لا تحلمي.. ما رح أضربك يا مديحة.. رح أمسك حالي، بسّ لا تظني أني ساكت.. بكرا بتشوفي شو رح يصير!».

دخل غرفة نومهما، ثم خرج يحمل مخدّة وبطانية، وقال لها: «الفاجر هجره ولا فجره، متل ما بتقول أمي». بينما جلست هي مضطربة وحائرة. الثوب ممزّق، ولا يمكن خياطته.. ماذا ستقول لصاحبته؟ بل ماذا

ستقول لنجوى إن سألتها عنه؟

في صباح اليوم التالي، مرّت هند إلى بيت درية، لتعيد الفستان الكحلي. اعتذرت عن عدم الجلوس لاضطرارها للّحاق بمريضاتها في العيادة.

أخذت نجوى ثوبها، واتجهت فوراً إلى شقة أخيها لتطلب من مديحة ثوب الدكتورة.

- «الفستان احترق!».

- «كيف احترق؟».

- «المكواة كانت حامية، وما انتبهت عليه لغا احترق».

- «هاتيه لأشوفه.. يمكن يتصلّح».

- «رميته!».

- «كيف بترميه؟».

- «فستان محروق، لازم أرميه!».

لم تصدّقها نجوى، واتهمتها بالكذب والغيرة، وقالت إنها رأتها وهي تسرقه من منشر الغسيل، وفي نيّتها الاحتفاظ به.

أصرّت على رؤيته، حتى وهو محترق، لتثبت لمديحة بأنها كاذبة، فنهضت لتبحث عنه في صفيحة الزبالة. وجدت الثوب الأخضر فعلاً هناك، لكنه كان ممزّقاً لا محترقاً.

أطرقت مديحة وأخبرت ابنة خالتها بصوت منخفض أنها تشاجرت مع شريف، وفقدت أعصابها فمزّقت

الثوب. حلفت لها أنها لم تقصد، وأنها كانت ستمزق أي شيء يقع بيدها، والثوب كان بالمصادفة أمامها.

لكن نجوى كانت تعرف أنها ليست مجرد مصادفة، لذلك صرخت بالأخيرة أن تكفّ عن الكذب، فقد تربّت معهم، وهي تعرفها. قالت لها إن أمها ربّتها كما ربّتهم، وعاملتها كما عاملتهم، ولكنها حقودة وغيورة.

لم تتمالك نجوى نفسها من الغضب، فراحت تصبّ الكلمات على رأس المرأة المرتبكة. لأول مرة تلفّظت بتلك الكلمات التي احتفظت بها طويلاً في صدرها. قالت لها بأنها تحتقرها، لأنها أنانية ولا تحب الخير لغيرها، وأنها دون شك ستدفع ثمن كراهيتها لمن حولها. ولا معنى لتبريراتها المتعلقة بخوفها على زوجها، فهو رجل وفيّ ونبيل، لكنها لا تستحقّه وتشك فيه دون سبب.

- «أنت مجنونة يا مديحة.. أمي وأختي اشتروا الفستان، وما قالوا، حتى ما تغاري مثل عادتك.. أنت ما بتستاهلي أخي، وكوني متأكدة أنه زواجك مو مطوّل.. أخي رح يتركك، تأكدي يا مديحة، أنه شريف مو إلك!».

كانت مديحة ترتجف من الغضب حين غادرتها نجوى. لم تهتم بكل التهديدات التي أطلقتها بخصوص زواج شريف، بل كانت لفظة واحدة هي التي فجّرت غضبها، كأن عود كبريت أولع بثوب مبلل بالبنزين، كانت لفظة «الاحتقار» هي عود الثقاب، الذي أشعل روحها المبللة بالغيرة والخوف من الفقدان.

عرس الزين

كانت أم شريف قد اقترحت على الدكتورة أن تأتي إلى منزلها في نهاية عملها المسائي، كي ترافقها إلى حفل زفاف حفيدتها زينة، أو زين، كما يدعونها من باب التحبب.

ارتدت هند ثوباً أسود دون أكمام، مفتوح الظهر، لكنها وضعت شالاً كبيراً ذهبي اللون يغطي كتفيها وصدرها وظهرها، ويكاد يصل إلى ما تحت ركبتيها.

حين أطلق شريف زمور سيارته، معلناً لأمه وزوجته عن جاهزيته ليوصلهما إلى العرس، تأبطت والدته ذراع الدكتورة ونزلت معها على مهل، بينما أغلقت مديحة باب شقتها، والتحقت مع ابنتها بحماتها.

صعدت أم شريف من الجهة اليمنى بعد أن دخلت قبلها دريّة، بينما فتح شريف الباب للدكتورة من الجهة الأخرى ووضع يده على كتفها برفق وهي تدخل السيارة ثم أغلق الباب بهدوء. أما مديحة فقد جلست في المقعد الأمامي بجانب زوجها.

حين لمست أصابعه كتفها أحسّت بدفء غامض، وإحساس بالأمان، كأن يده كانت تحمل مرهماً سحرياً تغلغل أثره في شرايينها، فارتخت وراحت تتأمل الطريق بصمت، وهي تستمع إلى فايزة أحمد تغني: «عشان بحبك أنا.. حرمت عيني النوم».

لم تكن تركّز مع الأحاديث المفتوحة حولها، إذ دخلت أم شريف ومديحة في عتاب طويل عن رغبة الأخيرة

في شراء فستان جديد للعرس، وإصرار الأولى أن الفستان الذي تلبسه أجمل من أثواب بناتها الثلاث، حتى أمّ العروس.

كانت هند غارقة في إحساس دافئ، وشهوة مفاجئة بالنوم. أحسّت برغبة في أن تطير إلى بيت والدها في المزرعة حيث تستطيع الجلوس على الشرفة، واضعةً على كتفيها شالاً خفيفاً لتتقي برودة الليل، وتستمع إلى أغنيات فايزة أحمد أو محمد عبد الوهاب، ثم تنام باسترخاء لذيذ.

حين نزلت النساء الأربع من السيارة رافقهن شريف حتى باب الصالة، وطلب منها أن تتصل به إذا شعرت بالرغبة في الانسحاب في أي لحظة، فهو يتوقع ألا تحتمل هند هذه الأجواء.

بعد انتهاء الحفل الذي كان ممتعاً بأجوائه الجديدة على هند، اقترحت أم شريف عليها أن تمضي ما تبقى من الليل في بيتها، فالساعة قاربت على الثالثة: «بقي كم ساعة للصبح.. مو محرزة.. وأنا وحدي والبيت كبير».

ولأنها كانت متعبة وتشعر بالنعاس، إضافة إلى شعورها بالألفة مع أفراد هذه العائلة، فقد وافقت فوراً على الاقتراح.

سبقت مديحة وابنتها الآخرين على الدرج، بينما أمسك شريف بذراع أمه التي راحت تصعد ببطء، ووراءهما هند، وحين وصل الثلاثة إلى الأعلى كان

الشال على كتف الدكتورة قد انزلق، فما كان من شريف إلا أن أعاده إلى مكانه بحركاته الآلية التي يقوم بها مع أخواته. لكن رقّته الفائضة في فعل هذا أذابت قلب هند.

كيف يمكن للمسة يد أن تقلبها هكذا؟ وكأنه وهو يضع يده على كتفها ويعيد الشال أزاح ستارة كانت تقف أمام حياتها، وتمنعها عن رؤية الخارج.

بعد أن أغلقت باب الغرفة عليها وارتدت واحداً من قمصان نوم نجوى، شعرت أنها تنام في بيت المزرعة والنافذة المواربة قرب رأسها تُدخل نسماتٍ خفيفة. سحبت الغطاء على جسمها وغطّت رأسها فشمّت رائحة شريف في اللحاف، وأحسّت بيده تمسح على كتفها، فوضعت يدها هناك وغفت.

لم تعرف ما إن كانت تحلم وهي نائمة، أم أنها تتخيّل وهي مستيقظة. كأنها ثملة. شعرت أنها تدخل أماكن لم تعرفها من قبل.

تساءلت عن سبب إحساسها بالراحة، وفسّرت لنفسها: الحنان.. إنه الحنان. كأن في يده يكمن حنان العالم، حنان لا يشبه طعمه شيء.

تلك الليلة حلمت بمامد، كانت تضحك وهي مستلقية بين عيدان القمح الأخضر، تُصغي لحكاياه عن أميرات الجن.

أفاقت على صوت ضحكها، تلفّتت حولها واستوعبت أنها تنام في بيت أم شريف، في غرفة البنات، وكأنها

تعود إلى صباها المبكر، إلى ما قبل عشرين سنة، حين كانت الحياة طازجة بطعم حبات القمح الخضراء، حين كانت الضحكات طازجة تنطلق مع حليب الصباح وحكايات مامد المعجونة برائحة التبغ.

أوراقي حياتي

حول طعام الفطور اجتمعت هند وأم شريف وحفيدتها. فقد خرج شريف باكراً إلى المحل، أما مديحة فكانت ما تزال نائمة. بعد أن أنهين فطورهن دخلت الجدّة لتصلّي صلاة الصبح، فيما تبادلت الدكتورة مع دربّة الصغيرة بعض الأحاديث الخفيفة، وهما تشربان الشاي.

- «عجبك عرس زين؟».

- «إي، انبسطت كتير.. هي أول مرّة بحضر فيها عرس نسوان».

- «لمّا تزوّجتِ، كان عرسك مختلط؟».

- «إي، في عائلتي، الأعراس مختلطة».

- «نيّالك.. يا ريت عندنا هيك!».

- «بتحبّي الأعراس المختلطة؟».

- «إي.. ولكن تقاليدنا مختلفة».

- «إي، غالباً هيك.. إذا بتحبّي تروحي معي شي مرّة على عرس مختلط؟ أكيد أهلك ما رح يمانعوا إذا كنتِ معي».

- «بصراحة، أنا حابّة تاخديني لغير محل!».

- «احكي.. وين حابّة تروحي؟».

- «على المكتبة المركزية في الجامعة».

فوجئت هند من طلبها وتابعت الحوار بشغف معها. وحين أنهت أم شريف صلاتها وخرجت راقها مشهد الاثنتين المستغرقتين في الحديث، فجمعت كؤوس الشاي، واتجهت إلى المطبخ لتحضّر القهوة.

كانت دريّة بنتاً صامتة على الأغلب، متكتّمة، تلحق بأمها التي تسحبها معها كنعجة كيفما تحركت، وتهيّئها لزواج ثري مماثل لزواج زينة التي زُفّت البارحة لأحد أبناء العائلات الثرية المعروفة في المدينة، فقد كان العريس يعمل مديراً لأحد محلات بيع السيارات العديدة التي يملكها والده، ويلعب بالمال لعباً.

كانت الفتاة غير راضية عن الحياة التي تخطّط لها والدتها، إذ كانت تطلب منها باكراً، وقبل أن يأتيها الحيض حتى، الاعتناء بجسدها. وكانت مديحة تقوم بنفسها بنتف حواجب الصغيرة، وتنظيف تحت إبطيها وساقيها بالسكّر والشمع، لتبرق من النظافة، وتفخر بها حين تقدّمها إلى الأخريات في كل مناسبة تُتاح لها.

حين حاضت دريّة منذ عام تقريباً، طلبت مديحة من زوجها أن يتوقف عن إرسالها إلى المدرسة: «البنت بلغت والعيون عليها.. لازم تقعد في البيت!». لكن شريف الذي كان يحلم بمتابعة دراسته، أجابها بأنه لن يحرم ابنته من التعلّم، ما دامت هذه رغبتها.

كانت الفتاة تعرف أن المسار المخطط لها لا يمكن

الخروج عنه، فهو شبه مصير مدبّر ولا يمكن تغييره أو تبديله: ستنتصر أمها وتوقفها عن التعلّم لتزوّجها من عريس ثري.

كان عرس زين البارحة محرّضاً لمديحة كي تنقّب عن ورقة الحظ التي ستكسب عبرها حياة جديدة، لها ولابنتها، فقد كانت تحلم بشراء بيت كبير وفاخر مستقل عن خالتها وعن الحارة، مثل أكابر المدينة.

وكان هذا العرس نفسه سبباً إضافياً لإحباط دريّة وتأكيد يقينها بأنها لن تنجو من خطة الزواج الرابح، والكسب الذي سيقلب حياة أمها ويحيلها إلى سيدة مجتمع، تفيق على قهوة حضرتها الخادمة، وعلى بيت نظيف تملؤه الشغّالات.

الحديث الذي بدأ ثرثرة عادية لم يكن هدفها سوى تمرير الوقت إلى حين عودة أم شريف كي تستأذنها هند وتنصرف، تحوّل إلى حديث ذي قيمة تابعته بحرص.

كانت الصغيرة ترغب في حضور معرض الكتاب، لشراء بعض الكتب، لكنها طلبت منها الاحتفاظ بهذا السرّ بينهما، فهي تدّخر المصروف الذي تحصل عليه من أبيها، حتى تحظى بفرصة الذهاب إلى أي مكتبة، شاكيةً من عدم وجود مكتبات في الحارة، وبأنه من غير المسموح لها الخروج منها. اعتادت أن تستعير الكتب من صديقتها روعة، فقد كان والدها يملك مكتبة كبيرة، لكنها الآن تريد أن تقرأ كتباً سمعت عنها، ولكنها غير موجودة في مكتبته.

كان الكتاب الذي ترك أثراً مهماً لديها هو «أوراقي حياتي» لنوال السعداوي، ومذ قرأته وهي تحلم بأن تصبح مثلها كاتبة وطبيبة.

نسيت هند نفسها وهي تستمع إلى أحلام الطفلة الصغيرة. شعرت أنها في القرية، تتحدث إلى ذلك الصبي الذي كانت مولعة به، غرقت في إحساس جميل، واختلط عليها المكان والشخوص. وتدفقت مشاعرها القديمة التي كانت تملكها صوب أهل القرية، وتغيّر صوتها وصار حنوناً.

تلقّت دريّة ذلك الحنان دون أن تفهمه أو تفسّره، لكنها أحسّت به، ولأول مرة في حياتها، تتحدث إلى شخص كبير، كما تتحدث إلى شخص من عمرها. شعرت بالطمأنينة وهي تفضفض عن قلقها وأحلامها.

- «بتحبّي تقرئي كتابتي؟ أنا كاتبة مذكراتي، مثل نوال السعداوي».

فاجأت العبارة هند، وهزّت برأسها، فقفزت دريّة بسرعة عجيبة لإحضار دفتر مذكراتها، وناولته لها، قبل أن ينتبه أحد من العائلة. ثمة عقدٌ غير مخطوط أو مرئي أو مُتفَق عليه من قبل، وُلد في هذه اللحظة، عقد من الثقة والتفاهم بين الاثنتين. حتى أن هند كادت تبكي من الفرح لاحقاً، وهي تقلّب في دفتر دريّة الذي بدأت الكتابة فيه، متخذة العنوان نفسه: «أوراقي حياتي!».

العطر ١

حين أنهت هند قهوتها نهضت لتغادر. في اللحظة نفسها كانت مديحة قد جاءت لتشرب القهوة مع خالتها بعد أن استيقظت.

اعتذرت الدكتورة منها لأنها مضطرة للانصراف، وقبل أن تذهب فتحت حقيبة يدها ورشت بضع قطرات خفيفة من العطر. كانت حركة آلية اعتادت هند على القيام بها قبل الخروج من البيت، إذ كانت في كل صباح تنظف أسنانها وتغسل وجهها وترتدي ملابسها وتمشط شعرها وتتعطر، ثم تختار عقداً لعنقها وقرطين متناسبين مع لون ملابسها. وفي النهاية تحمل حقيبة يدها، وآخر شيء تقوم بها قبل فتح الباب أنها ترش العطر من الزجاجة الموجودة في حقيبتها، فقد أخذت هذه الخصلة من أمها التي كانت تحتفظ مثلها بزجاجتين من العطر نفسه، واحدة على طاولة زينتها والأخرى في حقيبة يدها. كانت هذه الحركة كمن يضيف لمسة فائضة من العطر ذاته لتأكيد الرائحة.

قالت أم شريف: «الله! اللهم صلي على النبي.. شو هالريحة الطيبة!».

- «تفضلي خالة، جربيها!».

- «لا.. لا، العطر للصبايا، أنا ختيارة، بتكفيني الكولونيا».

- «لا، خديها، كلما تعطرت بتتذكريني».

أخذت دريّة الزجاجة مُحرجة أمام إلحاح هند، وشكرتها، ثم ودّعتها حتى الباب.

حين نهضت أم شريف بعد ساعتين للوضوء قبل صلاة الظهر، تسلّلت مديحة إلى غرفة خالتها، فتحت الدرج القريب من السرير، وكما توقعت رأت زجاجة العطر التي لا تزال مليئة، إذ لم تكن هند قد استعملتها كثيراً بعد. قرأت الماركة «جيفنشي»، ورشّت منها على عنقها، ثم أعادت الزجاجة إلى مكانها.

حين عاد زوجها في فترة الغداء التصقت به في المطبخ. مدّت عنقها وقالت له: «شمّني»، فوجئ وضحك وهو يشمّها، ثم سألها: «شو الجديد؟».

- «ما شفيت؟».

هزّ رأسه نافياً.

- «عطر جديد.. شمّ!».

قرّبت عنقها مجدداً صوبه، فشمّها بقوة قائلاً: «أووه.. رائحة بتجنّن.. جيفنشي؟».

- «كيف عرفت؟».

بدأ الشرر يتطاير من نظراتها الملتهبة بالشك. كيف يعرف زوجها ماركة ذلك العطر؟

- «بعرفه، كانت وحدة من زبونات المحل تتعطّر منه، ولمّا توصل عالمحل، تتعبّى الحارة برائحتها.. حتى جيراني أصحاب المحلّات، صاروا يعرفوا أنها عندي من عطرها».

لم تصدّق مديحة رواية زوجها، وظنّت أنه يعرف الاسم لأنها رائحة الدكتورة، لذلك ما إن عاد إلى محلّه بعد الغداء حتى نزلت واستقلّت سيارة أجرة متجهة إلى

سوق العزيزية، لتشتري من العطر نفسه، لكنها فوجئت بسعره، فما كان منها إلا أن دخلت إلى محل الصاغة قرب بائع العطور وباعت إسوارة من أساورها لتشتري بثمنها: عطر الدكتورة هند.

صارت تضع منه في كل صباح ومساء، وتقف أمام المرآة مزهوّة بنفسها، محظمةً الدكتورة التي لا يمكن أن تكون أجمل منها ولا أهمّ منها، إلا في فارق الشهادة التي تحملها. هكذا راحت تخطط لتجاوزها والتفوّق عليها بالأناقة والجمال، فتمارس تمريناتها أمام المرآة لتصبح امرأة راقية، تتحدث بصوت منخفض، وبابتسامة، ودون انفعال.. كانت ترسم هند أمامها كلما تحدثت، وكأنها تجلس قبالتها، وترى نفسها داخل المرآة لا تشبهها فحسب، بل أهمّ منها بكثير.

لا مكان في بيت أبي

أنجب والد مديحة صبيّين من زوجته الجديدة التي تزوجها بعد وفاة الأولى، وبينما كبر الولدان في كنف والدهما، كبرت هي في بيت خالتها.

بعد أن شبّ الولدان توسّلا إلى أختهما أن تأتي لتعيش معهم في المنزل، لا عملاً بالعادات والتقاليد التي تقضي بأن تعيش البنت في بيت أبيها وتخرج منه إلى بيت زوجها، بل لأنهما أحبّاها وافتقدا وجود الأخت في البيت أيضاً.

كان أخوها الكبير عادل يداعبها بقوله: «حسّ البنت

بالبيت مختلف.. نحن الصبيان منحبّ نتعارك ونحطم.. وأنتو الكائنات اللطيفة بتخيطوا أزرار قمصاننا المقطّعة بالعراك، وبتلمّوا الأشياء المحطمة». وكانت ترد عليه ضاحكة: «بدّك أجي لقطّب أزرار قميصك بس؟».

شعرت مديحة بالشوق للعيش في بيت أبيها، وعانت بعض الانقسام النفسي بين العائلتين، إذ رغبت بأن تعيش بعض التفاصيل التي تجهلها عن حياة الأخوات مع الإخوة، فقد كانت تغار كثيراً من تلك العلاقة بين شريف وأخواته، لكنها في الوقت ذاته كانت مرتبطة عاطفياً بعائلة خالتها.

حين تناقشت مع والدها بذلك، شرح لها أن ذلك بسبب العادة، لكنها لم تجرّب العيش في بيت أبيها، مع أخوين يحبانها. وعليها ألا تخاف من تغيير عاداتها. ثم قال لها شيئاً ظلّ عالقاً في رأسها، إذ أخبرها أن الإنسان يخسر أهم تجاربه بسبب الاعتياد على أشياء معينة، يشعر معها بالأمان فيخشى من فقدانها، لكن حين يتجرأ ويغيّر هذه العادات، ويدخل في تجارب جديدة، سرعان ما يكتشف كمية ما كان سيضيّعه من خبرات ومتع في الحياة، إذا بقي على خوفه من التغيير.

قرّرت مديحة أن ترد على اقتراح والدها، خاصة أنها لن تخسر لو فشلت التجربة، فهي ليست ذاهبة للعيش في بلد آخر أو مدينة أخرى، ولن يكلّفها الأمر سوى أن تلمّ أغراضها من جديد، وتتّصل بخالتها.

في المرة الأولى التي عادت فيها إلى بيت والدها،

كانت في العاشرة من عمرها، لكنها أحسّت باكتئاب وغربة فوراً. وبعد ثلاثة أيام، اتصلت بخالتها وهي تبكي: «خالة، ما بقدر أبقى أكثر من هيك.. الله يخلّيكِ، ابعتي شريف ياخدني!».

قال والدها إنها ربما تحتاج إلى بعض الوقت للتأقلم، ونصحها بأن تأتي من وقت إلى آخر في زيارات مطوّلة قليلاً، فربما عبر هذه الزيارات ستشعر ببعض الانتماء إلى هذا المكان.

كانت مديحة تحاول أن ترضي أخويها اللذين تحبهما، ولكنها في العمق كانت مشدودة إلى بيت خالتها. هناك تشعر بالراحة والأمان، وبأنه مكان استقرارها، أما حين تذهب إلى بيت أبيها، فتشعر أن هذا وضعٌ مؤقت. كأنها ضيفة أو على سفر. كأن البيت فندق، أو بيت الغرباء.

حاولت طويلاً شرح مشاعرها لأخويها لتتعرّف بدقة على الفوارق بين البيتين: هل السبب هو وجود البنات وأجواؤهن المختلفة والحميمية مع بعضهن؟ هل السبب هو الخالة ذاتها الأقرب إلى الأم المتوفاة أكثر من زوجة الأب التي سبق لها أن رفضت الاعتناء بالصغيرة، قبل مولد الصبيّين ونموّهما؟ هل تشعر بالغربة مع أبيها لأنه لم يحمِها ولم يتمسّك بها، بل تخلى عنها وأرسلها إلى بيت أمّ شريف لتتربّى مع أولادها، ويرتاح هو مع زوجته الجديدة، ويؤسّس لحياته دون ابنته؟ كأنها كانت زائدة عن الحاجة، وقد ركنها على طرف! وجاء

اليوم يقترح عليها تجريب العيش معه ومع زوجته، وكأنه يحاول التخفف من ذنب التخلّي عنها.

كانت مديحة تحاول طرح جميع الاحتمالات، بقصد تحويل هذا الفندق أو بيت الأغراب، كما تسمّي بيت أبيها، إلى مكان تشعر فيه أنها في بيتها. وكانت تشارك أخويها في هواجسها تلك.

كان أخواها مسحورين بطريقة سردها لتفاصيل علاقتها مع بيت خالتها، كانت تشرح لهم عن الحياة المحببة والأليفة. وكيف تشعر أنها تحفظ أماكن الأشياء، وتعرف روائحها.

كانت تخبرهم كيف أنها تمشي في الليل إلى المطبخ دون أن تشعل الضوء ودون أن ترتطم بشيء، تفتح باب الثلاجة في العتمة لتشرب من زجاجة الماء ثم تعيدها وهي نصف نائمة، وبعد ذلك تعود إلى غرفتها لتندسّ في السرير. كأن الأشياء نفسها في هذا البيت تعرفها.

هذه هي الألفة، أن تحفظ المكان وموجوداته بدقّة، فلا تحتاج إلى التفكير للحظة أو محاولة التذكر: أين وضعت علبة الكفون؟ أين سأجد سائل الجلي؟

ربما تكون تفاصيل سخيفة، لكنها كانت تنظر إليها على أنها حياتها التي تراها ممدودة بهدوء، ومنبسطة أمامها.

في بيت والدها كانت تشعر أنها بحاجة إلى دليل، مثل عامل جديد في مصنع، يسأل زملاءه السابقين في العمل كيف يتصرّف وأين يجد غرضاً ما، يرتبك، يخاف

من الخطأ، يخشى العقاب ولو بنظرة لائمة. بينما في بيت خالتها كانت تشعر أنها تمتلك المكان، ومهما فعلت تبقى تصرفاتها مقبولة، حتى حين ثلام أو تعاتب فإن هذا يحدث بألفة.

كانت تشعر حقيقةً أنه لا مكان لها في بيت أبيها. مكانها هو دائماً، ومهما ابتعدت، في بيت المرأة التي تحتها أمها.

حياة أحدنا إذاً ليست في بيت أبيه، بل في بيت أمه. هذا ما كانت مديحة تؤمن به.

مذكرات فتاة صغيرة

لم تكن تعرف آن فرانك حتى سنٍّ متأخرة. حدث هذا في لندن، حين كانت تعدّ لشهادة الماجستير، وحدثتها صديقتها البريطانية مارغريت عنها.

شعرت في ذلك اليوم بالكآبة وهي تسمع من صديقتها حكاية الطفلة التي ماتت في مخيمات الاعتقال، ولم تكن هند، مثل الكثير من أبناء المنطقة، تكنّ أي مشاعر لليهود، بل كانت تمقتهم وتخاف منهم كأنهم من طينة غير طينتها. أشفقت على آن فرانك، وخافت من مشاعرها، كأنها تخون وطنها وهي تتعاطف مع «يهودية»، ثم حاولت نسيان أمر تلك الطفلة أمام قصص الفجائع الكبرى التي تحدث لأطفال العالم، العربي منه خاصة، في فلسطين والعراق...

استعادت تلك المشاعر كلها حين أخبرتها دريّة عن

كتابتها. شعرت بالفرح لاكتشافها لهذه الموهبة في حارة مهملة، ولثقة دريّة بها، إذ لولا هذه الثقة، وهذه المصادفة، لظلّ كرّاسها وموهبتها مدفونين.

هذا الفرح لم يمنعها من الإحساس بالقلق صوب الفتاة التي تريد أن تصبح طبيبة وأديبة ومدافعة عن حقوق النساء.

قرأت مذكراتها المكتوبة بلغة صافية، لا يملكها عادةً الناس في هذه السنّ المبكرة. «هذه كاتبة»، قالت لنفسها وهي تراجع عشرات الروايات والأعمال الأدبية التي اكتشفتها في بريطانيا لكاتبات يدوّنّ سِيَرهنّ الشخصية.

كانت مولعة بقراءة هذا النوع من الكتابة الذاتية. وأحبّت بصدق كرّاس دريّة الصغيرة، وخافت عليها من المصير المُنتظر: زجّها في بيت زوجية مبكّر، مثل أمها وعمّاتها.

مشاعر الحزن تفوقت على مشاعر الفرح. بل مشاعر المسؤولية. هي التي تركت الأحياء الفاخرة، لتفتح عيادتها هنا، إحساساً منها بالمسؤولية تجاه النساء المهمّشات، المسكينات، الفقيرات. وها هي ذي تلتقي بطفلة موهوبة، قد تتحوّل ذات يوم إلى كاتبة مهمة، لا تقل أهمية عن فيرجينيا وولف أو إيميلي برونتي.

أحسّت بصخرة ترزح على صدرها، كأن حياتها تتدحرج صوب أمكنة لا تعرفها. كما لو أنها عثرت على صرّة مجهولة تحت جذع شجرة في غابة نائية، وعليها

البحث عن حكاية الصرّة، وهجر حياتها. كما لو أن ثمّة قدراً جديداً يقف على بابها، يطرق بلطف لتخرج من حياتها الحالية، وتذهب إلى حياة مختلفة. أمران يدخلان حياتها معاً: يدٌ تحط على كتفها بحنان فتهزّها وتقلب روحها، كما كانت عائشة في المزرعة تهزّ جرّة اللبن لتخرج الزبدة، وكرّاس مليء ببذور مستقبلية لفتاة قد تصبح إحدى أهم كاتبات البلد ذات يوم.. كيف تدير ظهرها لكل هذا العالم الجديد، وتتابع عملها طبيبةً فقط؟

قصر الشوق

زادت هند في الأيام التالية زياراتها لبيت أم شريف في أثناء فترة الظهيرة، أو بعد انتهاء العمل، كي تتمكن من مصادفة شريف والتحدث إليه.

كانت تراه في كل صباح وهي تصفّ سيارتها قبالة محله، إذ يصل قبلها، وكان بإمكانها أن تدخل محلّه، أو أن تدعوه للصعود إلى عيادتها، لتتكلم معه، لكنها كانت تنتظر فرصة يبدو فيها الحديث تلقائياً، إذ إن دربّة الصغيرة حذّرتها ورجتها ألا تخبر أحداً حول رغبتها في الدراسة وعدم الزواج، ورغم أن هند ترتاح له إلا أنها لم تكن تعرفه جيداً، ولم تكن تتوقع ردّ فعله حول خروج ابنته عن قانون العائلة الذي يؤكد أن الزواج المبكر قدر البنات.

لذلك حين اتصلت بها أم شريف تدعوها إلى الفطور يوم الجمعة، وافقت على الفور، رغم أنها لا تعمل في

يوم الجمعة، ولا تأتي إلى الحارة.

أخرج شريف سيجارة من علبة سجائره بعد انتهاء الفطور، فطلبت هند منه أن يناولها واحدة: «مشتهية دخّن سيجارة، حتى غيّر طعمة البصل!».

قالت مازحة فناولها سيجارة، وهمّ بإشعالها.

- «شو رأيك ندخّن عالبلكون حتى ما نزعج الوالدة؟ الدخان مو منيح لصدرها».

أحسّ شريف بحدسه الخاص، أنها تريد التحدث إليه بمعزل عن الآخرين، فنهض على الفور.

- «تفضلي دكتورة!».

كانت زوجته منشغلة مع أمه في المطبخ، بينما اختفت دريّة لأنها أدركت أن الحديث في الخارج يدور عنها.

- «حلوة لمّة العيلة.. أنا من زمان ما عشت هيك أجواء.. أبي منعزل بالمزرعة، وأمي عايشة بلندن لحالها، وأنا هون لحالي.. انبسطت معكم اليوم، حسّيت بطعم العيلة».

- «أنا سعيد جداً بهالكلام.. بتعرفي أمي بتعتبرك وحدة من بناتها، وأنا بحسّ أنك أختي الرابعة».

نظرت إليه بتمعّن، وسألته دون أن تزيح عينها عن عينه: «يعني بيحقّ لي أتدخّل بشؤون العيلة؟».

- «دكتورة، أنا مدين إلك، بحياتي ما رح أنسى اللي عملتيه مع أمي. أنتِ مكانك كبير عندي، وما فيني

أرفض لك طلب، إذا طلبتِ واحد من ولادي بتاخديه، مافي شي بيغلى عليكِ!».

- «كأنك عرفت! الطلب إله علاقة بحدا من الولاد».

- «تفضّلي، قولي واللي بدّك ياه بيصير!».

- «دريّة.. دريّة بنت موهوبة وذكية».

- «إيه؟».

- «دريّة مو حابّة تتزوج وتعمل مثل عفاتها وبنات العائلة».

- «كيف؟ دريّة صغيرة على هالكلام، في حدا برأسها؟».

- «لا، لا، الموضوع مختلف كتير.. دريّة بدّها تكمّل دراستها».

- «وشو المشكلة؟».

- «هي خايفة أنكم تزوجوها، حلمها مختلف وبعيد عن قصة الزواج».

ضحك شريف مسترخياً، فقد كان قلقاً من أن يكون لدى ابنته مشكلة عاطفية، ولذلك وسّطت الدكتورة لحلّها.

- «شو حلمها؟».

- «بدّها تصير دكتورة و...».

هزّ رأسه متسائلاً، يحفزها على المتابعة، إذ صمتت محتارة كيف سيكون وقع الكلمة التالية.

- «وكاتبة».

- «نعم؟».

اندهش شريف، فتابعت: «ابنتك موهوبة يا شريف (كانت هذه أول مرة تنطق هند باسمه)، أنا قرأت كتابتها. بتكتب بطريقة ساحرة، وإلها مستقبل مهمّ برأيي.. وإذا كنت بتعتبرني في مقام عمّتها، فأنا بتمنّى هالبنت تكمّل حتى تدرس الطب، وتتخصّص مثلي في بريطانيا، وأنا مستعدّة أكون معها لحتى توصل للندن!».

صمت للحظات، أنهى سيجارته وأشعل واحدة أخرى، ثم صاح: «دريّة.. نادي أختك يا أدهم!».

وصلت الصغيرة مرتبكة، وتقدّمت صوب والدها بخطوات خائفة، وما إن صارت أمامه حتى انحنى وحملها، ثم أطفأ سيجارته في تنكة الريحان الموجودة على حافة الشرفة، ودخل حاملاً ابنته وهو يدور بها سعيداً: «ابنتي الطبيبة.. ابنتي الأديبة!».

كادت هند تبكي من التأثّر بفرحه. أما دريّة، فقد بكت فعلاً من الفرح، خاصة أنها كانت مذعورة من ردّ فعله، وحين أنزلها على الأرض أخذت يده وقبّلتها، فأمسك بيدها وراح يتفحّص أناملها: «يعني هالأصابع بدها تتخصّص في جراحة البشر وتطبيبهم.. يعني رح تكوني مثل نجيب محفوظ؟!».

ثم بعد أن جلس على الأريكة، أخذ يبوح بما لم يقله من قبل أبداً.

- «أنا فخور فيك يا دريّة.. تمنّيت دائماً أني صير شخص مهمّ وإله قيمة، لكن موت أبي خلّاني بمحل

الحدادة، وحطم أحلامي.. بوعدك أمام العائلة وعمتك الدكتورة، أني واقف معك، إذا الله عطاني عمر، حتى تصيري كاتبة كبيرة!».

- «الله يخليلي ياك ويطوّل بعمرك.. أنت أحسن أب في الدنيا!».

قالت هذا وارتمت عليه، فقال مازحاً ليخفف الانفعال: «بس ما تكتبي عني إني أب متسلط ونسونجي مثل أحمد عبد الجواد!».

كان شريف معجباً بالأفلام والمسلسلات المأخوذة عن روايات نجيب محفوظ، مثل خان الخليلي، واللص والكلاب، وثرثرة فوق النيل، لكنه كان معجباً على الأكثر بمسلسل قصر الشوق، الذي ذاب فيه عشقاً بالممثلة «معالي زايد»، وهذا ما أوقعه في غرام ابنة الجيران التي تشبهها، والتي لا تكفّ عن إغوائه والرقص قبالة الشباك من غرفتها المطلة على محلّه، فكان يقف في الخارج بذريعة التدخين، بينما يرفع رأسه متفرجاً على الحسناء التي تتمايل قبالته، وتضحك له بضحكات «معالي زايد» نفسها.

كان الجميع سعداء بالتطور الجديد في العائلة، إلا مديحة التي سخرت من الأمر، ولامت زوجها أمام الجميع: «لا تكبّر رأس البنت وتحشيه بالحكي الفاضي، بدنا نزوّجها من أولاد الأكابر ويصير عندها خادمات وشوفير وحساب في البنك.. مين من بنات العيلة درست في الجامعة؟».

حدجت دريّة أمها بنظرة قاسية، وتمنّت في تلك اللحظة لو أن هذه المرأة لم تكن أمها، ثم نظرت إلى الدكتورة وشعرت بالأمان. هذه المرأة لن تتخلّى عنها، وأبوها يسمع كلامها. ستصبح طبيبة وكاتبة. هذا ما وضعته في رأسها في نهار تلك الجمعة.

---

2 Snow White من قصص الأطفال، وحكايتها مع الأقزام السبعة شهيرة.

3 أكلة معروفة في حلب: أمعاء الخروف منظّفة جيداً ومحشوّة بخلطةٍ من رزّ ولحم وحمّص حب وبهار وملح.

العطر ٢

لا تعود هند إلى العيادة مساء يوم الخميس، إذ تغلقها ظهراً حتى صباح يوم السبت.

حين أنهت عملها في الساعة الثانية والنصف، ونزلت لتركب سيارتها، لمحها شريف الذي كان هو أيضاً خارجاً من محلّه ليأكل، فاتجه صوبها.

- «فرصة الغدا؟»، سألته.

- «نعم.. تعالي معي! بتعرفي أمي بيطير عقلها من الفرح لما بتدخلي عليها».

- «لا.. اليوم يوم سعدي وهناي (قالت ضاحكة) اليوم أم أيمن طابختلي سمك مقلي وكبة بالصينية، وباعتبار ما عندي شغل بعد الضهر، رح أتغدّى وأسترخي كل الوقت».

- «سمك مقلي؟ بحسدك.. يمكن من سنة ما أكلتها.. أمي بتكره ريحتها اللي بتملا البيت كل النهار، لهيك نحن محرومين منها».

- «خلص، تعال معي!».

نظر إليها خجلاً من دعوتها اللطيفة: «شكراً.. صحة على قلبك».

- «لا، جدّ.. مو عزيمة شكلانية. تعال معي.. رح كون مبسوطة أنك تتغدّى معي أكلتي المفضلة.. يالله، بلا كسل!».

ركبت في السيارة، وأكّدت مجدداً لشريف بحركة من يدها كي يجلس إلى جوارها، ففتح الباب وقلبه يكاد يرتجف، وصعد.

حين أغلق الباب، وانطلقت هند خارجة من الحارة، شعر كما لو أنه انفصل عن العالم.

سبق لشريف أن ركب سيارتها، ولكن وحده، حين وصلت ذات مرة في حركة زحام عجلات نارية وهوائية، سدّت مدخل الحارة، فأخذ منها المفتاح وركن السيارة بدلاً عنها كي لا تتأخر على مريضاتها.

هذه هي المرة الأولى التي تُغلق فيها أبواب السيارة عليهما معاً. أحسّ أنه دخل كلياً في عالم الدكتورة، العالم الذي يشعر داخله بالدهشة والغرابة والارتباك.

شيء ما في تركيبتها يربكه، ويقمع ثورته الدائمة، فهو معروف في العائلة والحارة بدمه الحارّ ومزاجه العصبي المتهوّر أحياناً. «يده والكفّ» كما يوصف، إذ لا يتورع عن صفع أي شخص يختلف معه لسبب تافه، حتى لو جرّه ذلك إلى عراك جسدي عنيف، يخرج منه منتصراً في كل مرة.

كان تكوينه الجسماني يساعده، فهو متمرّن طويلاً في نوادي الرياضة ومُتقن للكونغ فو خاصة، ومتتبع بشغف لأفلام «سيلفستر ستالون» في أدواره الرامبوية، لدرجة التماهي معه أحياناً، كما كان يضع بوستر ستالون منتفخ العضلات في غرفة نومه الزوجية.

كل هذا العالم القويّ كان يتهاوى أمام عالم هند

الرقيق، الهادئ، كأنه يسحر بشيء يجهله. لم يكن يعرف ما الذي يحدث له أمامها، يجفّ ريقه ويخفق قلبه ويشعر بما يشبه الخجل، كأنها تملك سحراً مثل دليلة التي أفقدت شمشون جبروته.

كان يجلس إلى جوارها غارقاً في هذه التأملات، محاولاً أن يسترق النظر إلى جسدها لاكتشاف سرّها. ترتدي ثوباً حليبي اللون، وحذاءً باللون ذاته، صعد بنظراته إلى فوق متأملاً عقدها من حبات اللؤلؤ البيضاء، وقرطها من الحبات ذاتها. كانت تميل دائماً إلى الألوان الهادئة: الأبيض، الزهري، الأزرق السماوي، البيج...

سيارتها نظيفة إلى درجة التعقيم، وكأنها خارجة للتو من وكالة البيع. المفرش، الأرضية، التابلو، النوافذ، كل شيء يلمع. أما سيارته «البيجو»، فهي دائماً مليئة بالأغراض هنا وهناك. ملابس نسيها الأولاد على المقاعد الخلفية، زجاجات ماء تتدحرج على الأرضية، أقلام محشورة في الزوايا سقطت من الأطفال، قلم حمرة أوقعته مديحة واختفى تحت المقاعد، أكياس بطاطا (شيبس) وأوراق شوكولا وبقايا لفافات طعام محشورة في جيوب الأبواب.

تغمره رائحة عطرها، ويبدو وجودهما معاً في سيارتها شديد التناقض. كان منظرهما معاً خالياً من أي انسجام.

امرأة نظيفة، تضجّ بالبياض، باللون الفاتح. امرأة

بيضاء، بشعر ذهبيّ فاتح، وعينين عسليتين تميلان إلى الاصفرار. امرأة بأصابع رقيقة ونظيفة، أصابع معقّمة تدخل أحشاء النساء. بينما بدا هو إلى جوارها كأنه وحش خارج من الأدغال، بشعره الأجعد الكثيف، بقميصه الذي لا تزال بقع الشحم والزيت عالقة على ياقته، رغم ارتدائه صدرية خاصة أثناء العمل، ببنطاله الجينز الأزرق العتيق وحذائه الرياضي البنّي الذي نادراً ما يمسحه. نظر إلى يديه السمراوتين، وقارن سريعاً بينهما وبين يديها. كاد يضحك فجأة، من شدّة التباين بينهما، وراح يسأل نفسه وهي تقود بتركيز على الطريق، وسط الزحام، ما الذي جاء به إلى هذا المكان؟ أو ربما، ما الذي جاء بهذه المرأة إليه؟

البحث عن الزمن الضائع ١

أما هي، فما إن أقلعت السيارة بهما، ووجدت نفسها خارج الحارة، حتى امتلأت بشعور جديد عليها، شعور أن هذا هو كل ما تريد من الحياة. إحساس الشبع والاكتفاء. إحساس أنها وجدت ما كان ينقصها.

كانت هند تشعر دائماً بفقد غامض، ثمة شيء ما ينقصها تجهل طبيعته وأصله. ثمة إحساس مرافق لها، شبيه بحالة من يتفقّد أغراضه والمكان الذي فيه قبل أن يغادره خشية نسيان أمر ما، أو فقدانه. كانت تشعر دائماً أن شيئاً ما ضاع منها، ولا تتمكّن من تذكّره أو معرفته.

أن تفقد شخصاً أو شيئاً وتعرف كنه ما فقدت هو أمر صعب، هذا لا جدال فيه، ولكنك تستطيع معالجته ومواجهته، وربما تجاوزه، أما أن ينتابك هذه الإحساس بالفقد وأنت تجهل ماذا فقدت، فهو أمر يجعلك دائماً في حالة تفقّد ومراجعة وإحساس بنقص ما يعكّر عليك حياتك.

في تلك اللحظات، شعرت بالاكتفاء. أنها خرجت من حالة: ثمة ما ينقصني، وأنها في حالة: هذا يكفيني.

تمنّت لو أن الطريق إلى بيتها في حي الشهباء لا ينتهي، وأن تظل تقود السيارة إلى الأبد وشريف إلى جوارها.

حين أدار هو مفتاح الراديو، وانبعثت أغنية لمحمد عبد الوهاب ارتجفت هند كأنها لم تسمع هذه الأغنية منذ مليون سنة. أيّ سحر سقط في سيارتها حتى جعلها تشعر كما لو أنها في مركبة سحرية تطير صوب الفضاء، أو صوب قصر سحريّ لا يوجد إلا في الحكايات؟!

«أحبّه مهما أشوف منه» راح شريف يدندن: «بيظلم فيّ وبحِبّه، وده قاسي عليّ وبحِبّه».

ثمة تيار يسير في جسدها، تيار من دم جارف، دم يعيدها إلى دمها الأول. ارتعشت وكأنها تلمس ذروة المتعة. هي التي تستمتع بالاكتشاف، ويتبع جسدها روحها، فتتألّق حين تكتشف.

بفضل غناء شريف الحنون، الدافئ، المناقض لمظهره العنيف والهمجي في الحارة، وصراخه وشجاره. بفضل

هذه الرقّة في صوته، استعادت هند أول ذاكرة لهذه الأغنية. رجع صوت والدها وهو يغني لأمها حين تزعل منه، فيحاول مصالحتها: «بيظلم فيّ وبحبّه، وده قاسي عليّ وبحبّه».

كادت تقول له شكراً على هذه السعادة، لكنها سكتت، وتابعت قطع الأمتار القليلة المتبقية حتى البيت.

شعرت بالإحباط وهي تطفئ محرك السيارة، وكأن الرحلة السحرية قد انتهت.

قال لها وهو يغلق باب السيارة خلفه: «يا إلهي، البيت بعيد عن العيادة، شو جابك تفتحي عيادتك بحارتنا؟».

- «حكاية طويلة.. تفضّل!».

وقبل أن تفتح أمّ أيمن الباب، قال: «ريحة السمك وصلتني من باب السيارة.. حاسس حالي رح موت من الجوع».

بعد الغداء، خرجت هند مع شريف لتناول الشاي في الشرفة المطلة على حديقة الفيلا.

كانت كما لو أنها في عيد. سعيدة إلى درجة مدهشة مثل طفلة وُهبت هديّة كانت تحلم بها. ثمّة شيء ما يحصل في حياتها. إحساس غامض بالمتعة العميقة. سلامٌ كبير حلّ في روحها.

كمن تتحدث إلى نفسها، راحت تحكي له لماذا اختارت العيادة في ذلك الحي البعيد.

كان يمكنها اختيار مكان أقرب إلى بيتها بالتأكيد، ولكنها لم تر فائدة لها في أمكنة مليئة بالأطباء والمشافي والخدمات الطبية. أهمية ذلك الحي، بالنسبة لها، كمنت في افتقاده لهذه الخدمات. كان هذا هو السبب الأول، أو الجانب الأخلاقي كما تصفه، دون أن تسيء إلى زملائها الأطباء الذين يفضلون العمل في أحياء راقية، وهو الوصف الذي تعترض عليه.

كانت تعتبر نفسها طبيبة معنية بالبعد الإنساني للعمل الطبي. أما السبب الثاني، والذي تطلق عليه الناحية الشخصية، فكان العلاقة الروحانية التي تربطها بهذا المكان. الحارة التي عبثت طويلاً بمخيلتها، ونذرت نفسها، وهي في لندن، أن تعود بعد تخصصها لتعمل فيها. هناك في حارة الهلك التحتاني، كما يسميها قاطنوها.

مزرعة الحيوانات ١

كان ياما كان في قديم الزمان، كما كانت تحكي لي زلوخ التي كانت أكثر شخص يبقى معي منذ وصولي إلى هذه الحياة.

كنت أعيش في مكانين، في البيت حيث تبقى أمي أغلب الأوقات، وفي المزرعة، في الزربة، حيث يعمل أبي. وكانت تنقلاتي تتمّ غالباً برفقة زلوخ، والسائق إبراهيم.

كنت أظن أنها هي أمي. كانت حنونة ودافئة، تخاف عليّ من نسمة الهواء، كما يُقال. وكان لها صوت جميل، كانت تدندن لي أغاني شادية خاصة، ولا يزال صوتها في أذني: «سيد الحبايب يا ضنايا أنت». كانت تشبه «معبودة الجماهير» قليلاً، في قصّة شعرها الذهبي الأملس، الذي أظن أنها كانت تصبغه. وكانت لها عينان ساحرتان بلون بين الأخضر الفاتح والزيتي. كنت أحب سمرة بشرتها وشعرها الذهبي وخضرة عينيها.

كانت أمي موزّعة بين شغفها بالخيل وكرة السلة، فنأتي إلى المزرعة معاً في أوقات ركوب الخيل، أما حين تبقى في المدينة لمتابعة تمرينات كرة السلة مع فريق الحرية للبنات، فكانت ترسلني إلى المزرعة، مع زلوخ، لأنها تفضّل أن أمضي وقتي في الطبيعة خاصة

حين يكون الطقس جميلاً.

كنت متعلّقة بزلوخ أكثر منها. كانت في عمرها تقريباً، شابة عشرينية آنذاك، متفتحة على الحياة. وكان السائق إبراهيم يرافقنا في الطريق من حلب إلى الزربة، وبالعكس، لكنه يختفي خارج تلك الأوقات.

لم أكن أعرف أنها متزوجة من إبراهيم، إذ لم تكن علاقتهما تبدو مثل زوجين، كما هي حال أبي وأمي، اللذين كانا يتعانقان أو يتبادلان القبل أمامي، ويدخلان إلى غرفتهما معاً.

لم يكن لهما غرفة مشتركة في بيتنا ولا في المزرعة، وحين كانت تمضي ليلتها في بيتنا كنت ألح عليها لهجر سريرها والنوم في غرفتي وإلى جواري، فأغفو في حضنها في أمان كبير.

لم تكن زلوخ تنام معي طيلة الوقت، فقد كانت تتركني أحياناً، خاصة في أواخر الأسبوع، فأفتقدها وأشعر في غيابها بالوحدة والحزن، لذلك كنت أبكي حين تذهب، وأتشبث بها لتأخذني معها، فيقوم الكبار، أبي أو أمي أو إبراهيم، بحيل عديدة لتهريب زلوخ مني، وتركي وحدي.

كانت تقص لي الحكايات، تغنّي لي، تعتني بحمامي، تمشط شعري، تلبسني ثيابي، لكن أمي هي من كانت تنتقي لي الثياب، وليست هي.

فجأة أحسست أن بطنها يكبر، ربما كنت قد بلغت السادسة من عمري، وحين سألتها قالت لي بفرح: «هون في مهر صغير متخبي.. مثل المهرة اللي بتولدهم فرس والدك!».

اندهشت من وجود مهر في أحشاء زلوخ. ثم راحت الصورة تتغير تدريجياً، وهي تحدثني عن طفل ينمو بداخلها، هو الآن بحجم برتقالة، ثم يصبح بحجم كرة صغيرة، ككرات الصوف، ثم يكبر ويكبر حتى يصير بحجم دميتي، ثم يخرج إلى الضوء.

كنت أتتبع حملها وتطورات جنينها، كأنه صديق لي أو دمية خاصة بي. ألمس بطنها، وأمسح بيدي عليه وحين أتحسس حركاته، كانت تضحك وتقرّب يدي من مكان الحركة: «عم يتحرك.. حاسّة فيه؟».

كنت أطير فرحاً حين أشعر بتحركات الجنين، كأنه قلب ينبض وينزلق من مكان إلى آخر. وكنت أنتظر خروجه بفارغ الصبر. أسألها في كل صباح عن موعد قدوم جيهان، إذ كانت تقول إنها تشعر أنها ستنجب بنتاً وستدعوها جيهان.

ذات يوم، كنا متجهين بالسيارة إلى المزرعة، حين قالت زلوخ لزوجها إنها نسيت البقجة، وربما يفاجئها المخاض هناك، فطلبت منه أن نمرّ على بيتهما لإحضار بقجة الوليد.

في ذلك اليوم دخلت حي الهلك، لأول مرة في حياتي، ووقعت في غرام الحارة.

بيت الأرواح

طاولة يغطي وجهها مفرش ملون، فوقه مرآة دائرية، علبة معدنية فيها دبابيس شعر سوداء وملونة، زجاجة كولونيا، مشط خشبي مربّع، قلادة بأحجار كبيرة، لوح صابون مستعمل وملفوف بنايلون شفاف. على الأرض سجادة ملونة على شكل مستطيلات متتابعة، فرشة من الأسفنج ذات غطاء معرّق بالوردات الصفراء والزرقاء، مخدات للاتكاء. خزانة ملابس، ستارة دانتيل بيضاء تغطي نافذة صغيرة، موقد غاز، برميل ماء وطست وطاسة، خزانة صغيرة برفوف وأبواب زجاجية تحتوي صحون وكاسات ماء وملاعق. زوجان من الأحذية للخروج، إلى جانب شحّاطة حمّام، تصطفّ قرب البرميل.

- «بتحفم هون». أشارت زلوخ إلى العتبة.
- «ما عندك حمّام؟».
- «بيتي كله بس هالغرفة».
- «يعني ما عندك حمّام؟».
- «لا».
- «والتواليت؟».
- «تحت الدرج، تواليت مشترك مع كل الجيران

بالغرف».

كان البيت الغرفة جميلاً، وكانت الشمس تسقط بقوة من خلف النافذة الصغيرة، كأن ثمة أرواحاً طيبة تسكن في المكان، شعرت كأنني أرى وجوهاً تبتسم لي عبر بقع الطلاء المتساقط، وأحببث تلك الصورة المعلّقة قرب النافذة، باللونين الأبيض والأسود: عروس تضع كحلاً مرسوماً كذيل إلى خارج عينها، وتلبس تاجاً من المعدن البرّاق كالألماس، تلصق رأسها برأس عريسها الوسيم. شهقت وأنا أقول: «أنت؟!».

ضحكت زلوخ: «صورة عرسنا».

ثم هرعت تفتح النافذة وهي تشعر بالغثيان: «ريحة الغرفة مثل العفن كل الوقت».

ما إن فتحت النافذة، حتى أحسست أن عالماً بأكمله دخل المكان: صياح أولاد، ضجيج سيارات، أصوات طرق حديد، نساء يندهن على أخربات، باعة متجولون يعلنون عن بضائعهم: «أسود كماية يا بانجان.. راحة يا يافاوي»، وأسمع أصوات النساء: «بشقد كيلو البانجان؟»، «خيّو، حطّلي كيلوين برتقان يافاوي»...

كنت أسمع الأصوات دون أن أرى مصدرها. وكانت الغرفة صغيرة ومليئة بالحميمية.

- «بتنامي هون؟». أشرت إلى الفرشة الإسفنجية.

هزّت رأسها، ثم لفتت انتباهي إلى طاولة صغيرة لم

أكن قد انتبهت إليها، صفّت فوقها لحافاً وبطانية من الصوف، ومخدة جذبني لونها، فخلعت حذائي مبهورة، واتجهت ألمس القماش اللماع، حيث رأس المخدة الساتان السماوي يظهر من تحت الغطاء الأبيض. كان رأسا الغطاء قد خُيّطا بقماش من الدانتيل الأبيض، وطُرّزا بعصافير زرقاء وحمراء. صرت أتلمس خيوط «القنويجة»، كما أطلقت هي عليها، وأنا أتحسس رؤوس العصافير وأضحك بفرح.

- «حلوين كتير!».

سحبت غطاء المخدة.

- «مناخده معنا، بغسله في القرية، وبلبسه لمخدتك».

- «ولكن ما عندك غيره!».

- «مو مهم.. المهم تكوني مبسوطة!».

كانت زلوخ كتلة من العطاء والحب والحنان. أخذت البقجة من خزانة الملابس الحديدية، المطلية بدهان بني، ثم خرجنا مسرعتين، إذ كان إبراهيم ينتظرنا أمام البيت.

وبينما كانت تسحبني من يدي رحت أسترق النظر سريعاً إلى تلك الغرف المجاورة لغرفتها، وأتخيل سكانها وفرشهم البسيط، وكيف يخرجون في الليل للتوجه إلى المرحاض المشترك تحت الدرج، الذي رحت أتأمله بأكبر قدر ممكن من السرعة، وأنا أحاول التباطؤ، بينما هي

تشذني كي لا نتأخر أكثر. كان بابه خشبياً نصف مغلق، وكنت أرى غلّاقته الحديدية تتهدّل من خلفه، وتظهر عبر فتحة الباب الموارب.. باب خشبي عبارة عن ألواح بعضها منزاح عن بعضها الآخر، خلفه ستارة تحجب الجالس وراءه، كي لا تفضحه فتحات ألواح الخشب غير المتقنة الإلصاق.

صعدت في السيارة، وظلّ قلبي عالقاً في باب الخشب الموارب، أتخيّل لو أنني أسكن في هذا البيت، واضطررت للذهاب إلى المرحاض، فكيف سأجلس هناك وأنا أعرف أن ثمّة من ينتظرني من أولاد سكان الغرف المجاورة؟

شعرت بالرغبة في البكاء. لكن زلوخ، ما إن أقلعت السيارة، حتى فتحت البقجة، وطار عقلي من السعادة، وأنا أتأمل تلك الأقمشة الصغيرة: بنطال بيجامة، قميص داخلي من القطن، كولون، جرابات، أقمطة.

لا أعرف فعلاً أيّاً منا كانت أكثر سعادة من الأخرى في ذلك اليوم، ونحن نتفرّج على ملابس الطفل القادم لزلوخ، ولي.

ميمد النحيل[4]

كان أسمر ونحيلاً. عيناه بنيّتان، وشعره أملس وطويل. له رائحة التبغ ورائحة الذرة المشوية. يرتدي دوماً قميصاً بنيّاً فضفاضاً، ربما كان لأبيه أو لأخيه

الكبير.

كان دائم الابتسام. يحمل قربة ماء جلدية، يضعها في خرج حماره، ويسير بي بين أعواد القمح والشعير العالية الخضراء، ثم يفتح زوادته المكوّنة من بندورة، ملح، خبز، بصل أخضر وقطعة جبن أحياناً، فنأكل معاً في غياب أمي وأبي، مستغلين قيلولة زلوخ.

كنت أحبّ حكايات ميمد، أو محمد الذي ينادونه هكذا: ميماد.

يحدّثني عن قرى نائية وجداول ماءٍ وضفادع وأرانب برية، ويقطف لي التّين من أعلى غصن في الشجرة.

يحكي لي قصص الأميرات المخطوفات صوب العالم السفلي، ويحشو رأسي بالخيال.

كان يضحك على الدوام، وكانت زلوخ تحذّرني من الذهاب معه: «بيضحك عليكِ وبيخطفك، هاد شيطان!».

تقول إنه من الجنّ، وإنّ فيه بعض المسّ منهم. هو جنّ ممسوس، يشكّل خطراً على الإنس، لكنه لا يؤذي الأطفال لذلك لن يؤذيك الآن، ولكن حين تبلغين سيسحبك إلى غور الأرض، كما سحب أحدهم أمه من قبل.

أما إبراهيم، إيبو، فقد أخبرني الحكاية بشكل

مختلف، حين سمعها تتحدث عن مامد هكذا، فطلب منها أن تكفّ عن ترديد الخرافات، وشبّهها بميرم[5]، التي ملأت رأس حفيدها بالخرافات حتى فقد علاقته بالواقع.

*

كانت أليف بنتاً باهرة الجمال. هي بنت ميرم، أو «مايريه»، كما يدعونها. هذه العجوز اللطيفة الآن، التي تجهّز الحطب والتنور، وتخبز للناس الخبز الرقيق وترش عليه السكر أحياناً. كانت امرأة متسلّطة. وكانت ابنتها عاشقة للراعي رشيد، الشاب الفقير الذي لا يملك شيئاً في حياته: لا بيت، لا أهل، لا مال. راعٍ بسيط ويتيم، غادر المدرسة باكراً بعد موت أبيه وزواج أمه من آخر أجبرها أهلها عليه. ثرك الصبي يكبر على موائد أهل الضيعة، يأكل هنا وهناك، ويبيت كل ليلة في بيت مختلف، فكلّ بيوت الضيعة مفتوحة له، إذ يعرف الجميع أهله وحكايتهم.

أليف التي كانت تذهب إلى المدرسة وتتابع تعليمها، وتحلم بأن تصبح مدرّسة في كفر جنّة أو عفرين، كانت مغرمة به دون علم أحد. كانت تمضي معه أوقاتاً طويلة تعلّمه فيها القراءة والكتابة، ويعزف لها هو على الناي، وكما في القصص والأفلام، أحبّ كل منهما الآخر، وتواعدا على الزواج، حين يكبران، لكن ميرم، العجوز التي صارت طيّبة الآن، خرّبت حياة ابنتها في ما مضى.

إذ قبل شهر واحد من امتحانات البكالوريا، خطب حسَو، ابن المختار، أليف، فوافقت أمها ومنعتها من الذهاب إلى المدرسة، ومن تقديم الامتحان، وحين رفضت الفتاة هذا ضربتها وحبستها في البيت، حتى يحين موعد زفافها.

كانت تأتيها بالطعام والماء، ثم تقفل عليها. وحين تريد الخروج لقضاء حاجة ترافقها إلى المرحاض وتنتظرها أمام بابه. كانت خائفة من فرار ابنتها مع الراعي، بعد أن صارحتها أليف بحبها ذلك ووعدها لرشيد بالزواج منه.

نحلت الفتاة وتوقفت عن الطعام حتى كادت تموت، فجلبت لها أمها طبيباً من حلب، رغم المسافة البعيدة والكلفة العالية. كان هذا شيئاً لا يقدر عليه إلا الأثرياء، لكن حسَو كان مستعدّاً لفعل أيّ شيء حتى تشفى خطيبته، وتعود إلى كمال صحتها قبل الزفاف.

يقولون إن ميرم عملت الحجابات حتى تهدأ ابنتها وتكفّ عن عشق ذلك الشيطان، ويقولون أيضاً إن البنت مسّها بعض الجنون، إذ كانت تغني في الليل ويُسمع غناؤها في بيوت الضيعة المترامية الأطراف.

وفي ليلة عرسها رقصت وغنّت كأنها فاقدة لعقلها، أو كأنها فتاة أخرى، إذ بدت عليها السعادة.

لم تغادر بيت زوجها، ولم يرَ وجهها أحد بعد تلك

الليلة. لم يعرف أحد ماذا وقع لها، أحبست نفسها بنفسها، أم أن حسّو كان يقفل عليها باب غرفتها، ويفرض عليها حصاراً كما فعلت أمها من قبل؟

لا أحد يعرف. لكن جميع أهل الضيعة، عرفوا أنها وضعت صبياً بعد عشرة أشهر من الزواج. نشرت سويلا[6] الخبر وراحت توزّع القضامة واللوز بالسكر على بيوت القرية، كما طلب منها المختار وابنه.

بعد شهر من ولادة أليف، التي لم يرها أحد سوى الداية، ولم يسمح لأحد بزيارتها، أفاق الناس فجأة ذات صباح على مشهد مدهش: كانت حقول الشعير الذهبي التي يملكها المختار قد تحوّلت كلها إلى اللون الأحمر.

راحت أمها تركض في الضيعة وتصرخ: «خطف الجن أليف.. أليف أخذها الجن!». وراحت تحكي حكاية مختلفة في كل مرة، ترتجف وترويها، إنها حكاية ميرم التي رأت جثة ابنتها التي قتلت نفسها، لأن أمير الجنّ جاء ليخطفها من زوجها وابنها، ففضّلت الموت على الذهاب معه. وحين قتلت نفسها أمامه، قتل نفسه قهراً عليها، وملأ دمه حقل قمح المختار، انتقاماً من حسّو، زوجها، الذي رفضت تركه، من أجل أمير الجن.

كبر مامد الصغير، ابن أليف، الذي لم يرَ أبناء القرية جثة أمه، ثم تبخّر والده، ولا يعرف أحد أين ذهب. يُقال إنه طفش، وربما راح يبحث عنها، لأن ثمة إشاعات بأنها لم تمت، بل هربت مع الراعي رشيد. لا أحد يعرف

الحقيقة، ولكن الثلاثة هي وزوجها وعشيقها اختفوا من القرية دون أي أثر، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

أما ميرم ففقدت عقلها، وربّت حفيدها على الخرافات.

مامد النحيل مثل أمه، أصيب بمسّ في عقله لكثرة ما ردّدت جدّته أمامه حكايات لا منطق لها ولا صحّة.

الذرة الرفيعة الحمراء

أما مامد، أو محمد، فلم يروِ لهند حكاية حقل القمح الأحمر، بل حكايات الذرة الرفيعة الحمراء.

كانت تستلقي معه بين عيدان القمح، ويضحكان بصوت يصل إلى السماء، وهو يحدّثها عن أميرات من الجنّ يزرنه ويطلبن منه الذهاب معهن، وكانت تتنوّع حكاياته في كل يوم.

«زارتني البارحة صبيّة باهرة الجمال. لا أعرف كيف دخلت غرفتي. هنّ يتحركن داخل الجدران، وتحت الأرض، ولا يحتجن لفتح الأبواب. ليسوا مثلنا. نعم، جاءتني بمرسول من أمي. قالت إن أمي هي ملكة الجان، وهي متزوجة من الملك الذي يمنعها من الخروج إلى الأرض ومغادرة المملكة، حتى كي تراني، فهو يخاف عليها من انتقام البشر، لأنهم شخصيات كريهة وحاقدة. نعم، كتبت أمي لي رسالة، قرأتها زبرجد. نعم، هذا هو اسم الصبية باهرة الجمال.

تقول أمي إنها لم تمت، وإن الجثة التي رآها أبي هي جثة إحدى الفلاحات في القرية، ذبحها جدي ليدّعي أن كنّته ماتت. تقول لي تعال وانجُ من عالم الإنس، لديكم الكراهية والحقد والشر والانتقام، ولدينا السلام والفرح والاحتفالات. هنا نمضي أيامنا في غناء ومرح وحبور، ولا نكره بعضنا، فالمملكة كبيرة وتتسع للجميع. هنا للطعام نكهات وألوان. التبغ معطّر هنا، وأنت تحب التبغ وتدخّنه كثيراً. تعال، فالتتن هنا لا ينضب. التفاح هنا بلون الكرز الذي تحب، وللبرتقال لون النهر، والذرة رفيعة وحمراء. حقول من الذرة ذات طعم بمذاق العنب.. تعال أزوّجك إحدى أميرات القصر!».

حكايات مامد لا تنضب، وجميعها تنتهي برفضه الذهاب إلى هناك، حيث أمه، وكلما سألته هند عن سبب رفضه، نظر في عينيها بحنان كبير ووضع يده على شعرها، وقال لها إنه لا يستطيع تركها. هي أهمّ من أمه بالنسبة إليه، فوالدته لديها حاشية وصديقات وزوج، لكن هند وحيدة هنا، لا أحد معها إلا زلوخ، وهي الأخرى لا تستطيع مقاومة قيلولة الظهيرة، فتتركها وحدها وتنام.

كان يشتغل في إسطبل والدها، ينظّف الخيول ويطعمها، ويشرف عليها. وحين تأتي هند إلى المزرعة، يتلصّص من الإسطبل، ليأخذ الطفلة في نزهات بعيدة في الحقول، على عجلته الهوائية، رغم تحذيرات

إبراهيم وزلوخ، وتهديدهم بإخبار الدكتور صائم، الذي، إن عرف بهذه الجولات، سيطرد مامد لا من المزرعة فحسب، بل من القرية كلها.

كان الشخص الوحيد الذي ترفض من أجله طاعة المرأة التي تحبها كأمها. وكانت تتشوق للعودة إلى المزرعة كي تراه، فيسرقان الطعام: بيض مسلوق، جبنة، بندورة، خبز، ويطيران إلى الحقول، كي تستمع إلى حكاياته.

يحدثها عن الجنيات ورغبته في الذهاب لزيارة أمه، ثم العودة إلى المزرعة. وكان يأخذ موافقتها، ويتشاوران في الأمر بجدّية.

- «نعم، من حقك تشوف أمك!».

- «ولكن افرضي أنهم أجبروني أبقى معهم، شو أعمل؟ معقول ما أرجع؟».

- «لا، بتهرب!».

- «أمي راحت وما رجعت».

- «يمكن ما كانت حابّة ترجع؟».

- «ويمكن منعوها ترجع! تخيلي أروح ويحبسوني عندهم!».

- «طيّب كيف زبرجد ومرجانة وغيرها بقدروا يطلعوا ويرجعوا؟ أكيد في طريقة حتى تطلع من المملكة؟».

- «لأنهن جنيات.. أنا وأمي من الأنس. يمكن القانون اللي بيطبقوه على الجن ما بيطبقوه علينا».

- «ولكن أمك هي الملكة».

- «ما سمعتي عن ملوك بيحكموا بالشكل، بس ماعندهم سلطة.. خايف يا هند، خايف أروح وما أقدر أرجع».

هي أيضاً كانت تحدثه عن أحلامها، وعن ولعها بالولادة.

- «رح صير طبيبة.. بتجي معي مامد؟ رح أفتح عيادة للنساء. نعم، بس للنساء، لأنهن وحدن بيجيبوا الأطفال».

*

ذات يوم جاءت إلى المزرعة، فرأت ميرم تبكي بحرقة، وتهذي. كانت تقول إن هذه ليست جثة مامد، وأن الجنيات أخذنه وأرسلن بدلاً منه جنياً يشبهه فقتلوه.

ركضت هند، التي كانت في العاشرة من عمرها آنذاك، وكشفت الشرشف الذي يغطي وجهه. لم تخف من برودة جسمه، ولا من عدم تحركه. أدارت رأسه وبحثت عن تلك الشامة على عنقه من الخلف، ولما وجدتها، تسمرت صامتة، لم تتمكن من البكاء، بل ركضت مغادرةً المكان، باحثة عن عجلة مامد.

قادتها لأول مرة وحدها صوب حقل القمح البعيد. هو من علّمها كيف تسوقها. استلقت حيث كانا يستلقيان على ظهريهما، ولكنها هذه المرة نامت على بطنها. دفنت وجهها في التراب وبكت بصمت، وكأنها تدفن دموعها وصوتها في أرض أسرارهما.

ذهب مع الريح

كأنني أضعت توأمي، شعرت بفقدان كبير لغياب مامد. كنت أذهب وحدي، أقود دراجته التي لم يجرؤ أحد من العاملين في المزرعة على رميها، بعد أن شاهدوني أركبها في أغلب الأوقات، وأطير بها وحدي إلى أماكننا معاً، حيث كنا نتوثر.

حاول أبي إغوائي بشراء واحدة جديدة، لأرمي هذه العتيقة، لكني كنت أرفض، فقد كنت أشعر أنني أصبح هو حين أقود دراجته.

تركتني ميرم آخذ من غرفتها ما أبغي من أغراضه، فأخذت قبعته الصوف البنية، التي كانت زلوخ قد حاكتها لإبراهيم، ثم أعطاها إبراهيم له ذات صباح بارد، ليدفئ رأسه.

كنت أحبّ تلك القبعة التي كنا نلهو بها في الحقل، فأضعها في رأس عصا، وأركض بها كأنني أحمل سارية في حربٍ نخوضها، مامد وأنا، ضد أمراء الجنّ.

ظلّت قبعته معي، أضغطها على رأسي وأدسّ

خصلات شعري تحتها، وأركب دراجته محاولةً أن أقنع نفسي أنني الآن هو، فأتخيل كيف يفكر وكيف يراني وهو في مكان آخر الآن.

قطعتُ طريقي في الحقول، ذات صباح، امرأة باهرة الجمال، كانت تجلس على صخرة لم أرها من قبل، تفلت شعرها الطويل، وتغني بالكردية. لم أفهم كلماتها، لكني توقفت أمامها وسألتها: «أنتِ أليف؟».

هزّت رأسها ونظرت إليّ بحبّ قائلة: «قبعة مامد!».

- «وينه؟».

- «هناك». أشارت إلى السماء. ثم أضافت: «مامد شايفك من هناك، وعم يسمعك، اسمعي!».

صمتنا نصغي إلى صوت الريح الخفيفة تصفر كأنها تدندن لحناً خافتاً، وبغتة سرت قشعريرة في جسمي إذ جاءتني رائحة تبغه. ضحكت عيناي قبل فمي، وقلت: «يا الله، حاسسته هون.. عم أشمّ ريحته!».

- «إيه، هو هون.. شايفك، بس ما بيقدر يظهر.. هو طلب مني أخبرك إنه ما تزعلي عليه.. الموت بياخد الجسم، بس العقل والروح بيبقوا.. هو معك، هون، وكلما حبّيتي تحكي معه، بيسمعك.. هاد وعد منه، إنه يكون معك طول الوقت!».

نهضت أليف، أدرات ظهرها لي دون أن تضيف أي كلام، دون أن تودّعني. سارت بين أعواد القمح العالية،

وغابت عن نظري.

نظرت إلى السماء، ولوّحت بيدي، كأنني لا أسلّم فقط على مامد، بل على جيهان أيضاً، ابنة زلوخ التي وصلت ميتة في شهرها السابع. كان هذا أول فقدٍ يحدث لي، فتعلّمت معنى الموت.

ذهب مامد إلى جيهان، وتابعت زلوخ حياتها بصمت، إلى أن ماتت بمرض غريب، حين كنت لا أزال أتعافى من فقدي لتوأمي.

ثلاث خسارات في طفولتي الغضّة كسرت قلبي باكراً: جيهان، دميتي التي تكبر في رحم أمها، ثم مامد، وأخيراً زلوخ.

ترك إبراهيم العمل عند أبي، وذهب إلى قريته البعيدة ليدفن زوجته، وظلّ هناك.

حين عدت من بريطانيا زرت قبرها لأول مرة، إذ لم يُسمح لي بهذا حين ماتت قبل أكثر من عشر سنوات.

بحثت عن إبراهيم، كان قد تغيّر وشاخ. فرح بي وراح يذكّرني بطفولتي التي لم أنسَها، لكنّه أضاف لي تفاصيل لم أكن أعرف عنها الكثير. سألته عن اسم الحارة التي كان يسكن فيها مع زلوخ.

جئت إلى حي الهلك وبحثت عن رائحتها. كان البيت الكبير المتعدّد الطوابق، ذو الطابق الأرضي المخصص لتأجير غرَفِه للفقراء والطلاب والمتزوجين الجُدد شبه

المفعمين، قد تحوّل إلى مبنى حديث. حتى وأنا أصعد درجات البناية الحديثة، كنت أرى باب المرحاض الخشبي، وستارة الدانتيل الأبيض وبرميل الاستحمام. بل إني حتى اليوم، كلما دخلت البناية، رأيت زلوخ تشذني من يدي، وهي تحمل بقجة أغراض الجنين.

حيّ الهلك - حلب - عام 0102

الغثيان

أشرق وجه شريف بالفرح حين رأى أخته نجوى تنزل من سيارة الأجرة في الساحة، قبالة محلّه، برفقة زوجها، متجهة صوب عيادة الدكتورة هند.

لم تنتبه نجوى إلى أخيها، فقد كانت تتألم متأبطة ذراع فؤاد الذي لوّح بيده لشريف وهو يساعد زوجته على قطع الخطوات المتبقية من باب السيارة إلى مدخل المبنى.

اتّصل على الفور بأمه يسألها: «أمي، أختي نجوى حامل؟».

- «لا أبداً.. يا ريت! شو في؟ عرفت شي؟».

خفق قلب الأم بفرح، وكأن سؤاله بثّ فيها بعض

الأمل، إذ تزوجت ابنتها منذ خمس سنوات تقريباً، ولم تحمل حتى الآن.

- «شفتها طالعة لعند الدكتورة، وزوجها معها، وشكلها موجوعة.. يعني إذا مريضة بتروح لعند طبيب عام.. معقول تجي من بيتها لهون، بس بسبب مرض عادي؟ أكيد في شي بيخص الحمل!».

خافت الأم من أن تكون ابنتها مصابة بمرض ما في الرحم، فإن لم يكن الحمل، فعلاً، فما الذي يأخذها إلى طبيبة نسائية؟

ارتدت ملابسها، ودون أن تخبر أحداً، اتجهت بخطوات متعبة وقلقة، صوب عيادة هند.

غضب شريف حين رأى أمه وحدها: «أمي، ما كان فيك تنتظري لحتى تخلص أختي؟ أكيد رح تمرق لعندك!».

هزّت رأسها نافية: «ساعدني أطلع لفوق.. قلبي مثل النار يا ابني!».

فوجئت زينب بدخولهما العيادة، وطلبت منهما أن يستريحا ريثما ينتهي الكشف. وما هي إلا لحظات حتى خرج فؤاد أولاً، ثم لحقت به نجوى تسير في خطوات بطيئة، وكان يبدو عليهما الذهول والفرح.

لحقت بهما الدكتورة لتودّعهما على الباب، فرأت شريف وأمه ينتظران في الصالة. قالت مبتسمة: «ما

قدرتوا تصبروا مو؟ مبروك!».

بكت دريّة وسألت للتأكد: «يعني حامل؟».

قالت نجوى: «لمّا فقت كانت معدتي عم تقلب، وحسيت بالغثيان، ما خطرلي أبداً يكون الحمل هو السبب، أنا حامل يا أمي، أنا حامل يا شريف، أنا حبلى يا أهلي!». وصارت تبكي.

*

قلبَ هذا الحمل حياة العائلة، وصارت مكانة هند أكبر من قبل، إذ كبر إحساس العائلة بالمديونية تجاه الدكتورة.

أخذت أم شريف ابنتها لتقيم عندها طيلة فترة الحمل، لأن الدكتورة طالبت نجوى بالراحة كي يثبت الحمل تماماً. هكذا ستعتني بابنتها وسيتاح لأم فؤاد زيارتها متى شاءت، فالبيت جوار البيت.

كانت هند قد بدأت بعلاجها منذ ثلاثة أشهر تقريباً، دون أن يعرف أحد بهذا. كانت تلك رغبة نجوى، فهي لا تريد منح أمل واهم، يُحبط الجميع، الذين سيسألونها في كل يوم: ما أخبار العلاج؟ هل حملت؟

ملّت من تلك الأسئلة المُحبطة لسنوات، ولم تتوقع أبداً أن يستعيد رحمها خصوبته، ويستقبل سوائل فؤاد ويحتضنها ويدفئها، لتتحرك جنيناً ستدبّ فيه الحياة بعد شهور قليلة.

صار وجود هند في بيت العائلة شبه يومي، حتى أن أم شريف كانت تتصل بها وتسألها عما تريد أن تعدّ لها على الغداء يومياً، إذ لم تعد تسمح لها بقطع كل تلك المسافة إلى بيتها بين فترتي العمل في العيادة كي تأكل.

وكانت الدكتورة، كنوع من ردّ الجميل لهذه العائلة، ومن محبّتها لها، تساعد الولدين أدهم ودرية في الدراسة. أصبحت شخصاً مهماً في البيت، وصار وجودها لا غنى عنه.

ذات مساء، كانت منشغلة بتدريس الولدين في فترة الامتحانات، ولم تشعر بتأخّر الوقت. وبينما كانت مديحة وخالتها تجهّزان العشاء، كان شريف يراقبها منهمكة بجدّية كبيرة مع ولديه. تأخذ الأمر بمسؤولية ومهنيّة عالية، وكأنها في العيادة مع إحدى مريضاتها، فقرّر أن يحدّثها بأمر ما.

- «يالله يا جماعة.. العشا جاهز!».

قالت نجوى، فرفعت هند رأسها عن الكراريس والكتب، وشهقت: «يا الله، قرّبت الساعة تصير بنص الليل، تأخّرت كتير، وأنتو كمان، يالله، عندكم امتحان الصبح!».

- «ما رح تبقي معنا عالعشا؟»، سألتها أم شريف مندهشة.

- «لا.. سامحيني، الوقت متأخّر».

اعترض شريف على مغادرتها قبل تناول العشاء، وهذا ما أصرّ الجميع عليه، فرضخت أخيراً.

على طاولة الطعام، بعد أن انضمّ إليهم فؤاد، الذي صار ينام في بيت أهله منذ اتّضاح حمل نجوى وبقائها في بيت أمها، طلب شريف من الجميع الإنصات إلى ما سيقوله.

- «دكتورة، بدّي قول كلمتين قدّام الكل، اعتبروها وصيتي، إذا صار عليّ شي، والأعمار بيد الله، وما حدا على راسه ريشة».

ثم تحدّث أن لا إخوة ذكوراً له ليعتمد عليهم، وأخواته متزوجات ويعشن في أحكام أزواجهن. ورغم أنه يحترم فؤاد وهو كأخيه الصغير، لكنه هو الآخر سيصبح لديه عائلة بعد مولد طفله، وأمامه مسؤوليات كبيرة. لذلك فإن الشخص الوحيد الذي يمكنه الاعتماد عليه والثقة فيه، هو الدكتورة هند، التي وقفت مع عائلته مرات كثيرة، والجميع يشعر صوبها بالمديونية والطمأنينة. ثم أضاف أنه لا يريد إطالة الكلام عن مزاياها، فالله وحده يعلم أنها في مكانة ولديه وأمه وأخواته، وكأنها من دمه. لذلك فهو يريد أن يضع ابنته دريّة أمانة في عنقها، إذا حصل له شيء، وهي الشخص الوحيد الذي يحدّد مصير ابنته إلى حين بلوغها، إذا لم يعد على قيد الحياة.

ارتبكت هند وقالت: «الله يطوّل بعمرك، وتشوفها

دكتورة!».

- «إذا عشت وصارت دكتورة، نذر علي يا دريّة، أشتغل بعيادتك حاجب، رح أترك شغلي، وأقعد معك!». ثم نظر إلى أدهم وغمزه بتواطؤ مرح: «المحل بيصير لأدهم، شريكي الأساسي!».

اختنقت مديحة وهي تسمع ذلك المديح العالي للدكتورة، شعرت بكراهيتها تكبر، وزادت رغبتها في إقصاء هذه المرأة من حياة عائلتها، إذ لم تعد تنافسها على زوجها فحسب، بل على مكانها لدى ابنتها أيضاً.

البحث عن الزمن الضائع ٢

شعر شريف بأمانٍ عميق بعد أن قال ما لديه، وشعر أنه سينام الليلة بارتياح، إذ منذ أن عرف برغبة ابنته وهو يشعر بالقلق صوبها. كان بحاجة إلى من يحمل عنه، أو معه، ثقل مسؤولية ابنته. إنه الذكر الوحيد في العائلة، وابنه أدهم لا يزال صغيراً، وربما تؤثر عليه مديحة وتقويه على أخته دريّة. تذكّر حياته التي اختلفت كلها بعد موت والده. تخلّى عن أحلامه الشخصية، وحمل إرث والده في المسؤولية والحرص على البنات، إذ على الرغم من أن الكبيرة نجلاء كانت متزوجة آنذاك، ولكن، كما يقولون في حلب: «همّ البنات للممات». هكذا تحوّل من أخٍ وحيد إلى أبٍ لأخواته، يعتني بهنّ، ويحميهنّ.

بدخول هند إلى حياة الأسرة شعر أن هناك أحداً معه. شخص موازٍ له. شريك يساعده على تحقيق آماله. لم تكن امرأة قوية يمكنها مساعدته فحسب، بل ملاكاً سقط من السماء، لتضع يدها على كتفه، وتجعل الحياة أكثر أماناً وطمأنينة. وللمرة الأولى منذ أن توفي والده شعر أنه غير خائف، وغير قلق. للمرة الأولى يحس أن أباه لم يمت، كما لو أن هند لم تكن أبداً في مقام الأم أو الأخت، حتى وإن كانت في مثل عمره تقريباً. كانت بشكل مربك وغريب، في مقام أبيه.

لم يعش شريف على هواه في شيء، حتى في زواجه. إذ أمرته أمه بالزواج من ابنة أختها. كان رجاءً لكن لا مجال لرفضه، ولذلك اعتبره دوماً أشبه بأمر.

قالت له إن مديحة مثل ابنتها. وهو قد قام بدوره مع أخواته كلهن، فزوّجهن واطمأن عليهن. رجته أن يكمل معروفه مع الفتاة اليتيمة، التي كبرت بينهم، وليس لها أحد سواهم.

لم يتقدم أحد لخطبة مديحة، ولذلك خافت دريّة أن تتهوّر الشابة المليئة بالحياة، أو أن يضحك عليها أحد من أولاد الحرام. كانت تراقبها كيف تتقافز من نافذة إلى أخرى، وكيف جُنّت بعد خطبة نجاة التي تصغرها بشهرين، فصارت، من غيرتها، تشتري أثواب النوم نفسها التي تشتريها العروس لجهازها، وتحلم بالزواج.

لم تكن مديحة حلمه، ولم يشعر صوبها يوماً بأيّ

إحساس، لكنه تزوّجها كي يرضي أمه ويريحها. زاد العبء على كاهله حين جاءت له بأدهم، ثم لحقته دربَة. هكذا نسي أحلامه الخاصة بالزواج من صبيّة يخفق لها قلبه ويشتهيها، وظلّ يعيش بفتور مع مديحة التي كان ينفر من طباعها السيئة، ويوبّخها دوماً على غيرتها وكراهيتها للآخرين. ثم يشعر بالندم حين تلومه أمه: «لا تكسر نفسها.. يتيمة!».

الستارة

كانت لهند القدرة على تخمين ما إن كان شريف موجوداً في المحل أم لا، عبر الأغاني التي كانت تصل إلى أذنيها. إذا كانت الأغنيات لوائل جسّار، فهذا يعني أن حسين وحده بعد أن خرج معلّمه لتركيب منتجه من الحديد في بيوت الزبائن أو محالهم. بينما يكون صوت عبد الوهاب أو عبد الحليم مؤشراً على وجود شريف.

«أحبه مهما أشوف منه، ومهما الناس قالت عنه»، كانت الأغنية تملأ الحارة، وتطغى على صوت الباعة المتجولين، وصخب الأولاد، وصراخ الأمهات، وثرثرة النساء عبر النوافذ والشرفات.

اعتادت هند، حين تتعب من العمل، تدخين سيجارة وهي تقف على النافذة، تتفرج على الحارة وتفاصيلها، وتراقب شريف، الذي ينتبه إليها أحياناً، فيرفع يده ملوّحاً لها بالتحية.

لم تكن تدخّن من قبل إلا في مناسبات نادرة، لكنها اكتشفت هذه المتعة مؤخراً، لا متعة التدخين، بل متعة الوقوف هنا بذريعة السيجارة. كانت تشعر بالحاجة إلى تبرير وقفتها على النافذة المفتوحة، المطلّة على الحارة، وعلى محلّه على الأخص. كانت تتفقّده، وتتتبعه كأنه صار جزءاً من حياتها.

في البداية كانت تزيح الستارة قليلاً عن النافذة، وتتفرّج عليه دون أن يراها من خلف الزجاج والستارة المواربة. كانت تعرف وتتوقع الأوقات التي سيخرج فيها ليدخّن، إن لم يكن لديه زبائن، وكانت تستغرب جداً أنه يدخّن على باب المحل واقفاً، على الرغم من أن لا أحد سيمنعه من التدخين في الداخل.

مع الوقت صارت تفتح النافذة وتدخّن قبالته.

شعرت أن هذه الستارة التي أزاحتها فجأة عن نافذتها، جعلتها تطلّ على الحياة بشكل آخر. على وجهٍ أكثر دقّة، فإنها شعرت في اللحظة التي رفع فيها شريف الشال الذهبي الذي انزلق عن كتفها، أنه أزاح ستارة كانت تقف بينها وبين الحياة. خلفها كانت الحياة التي لم تكن تعرفها.

كانت حياتها فاقدة لطعم الحياة والإحساس الحقيقي بها. كمن يلمس الأشياء عبر قفّازين يحولان دون عمق اللمس.

العائلة، مهابة المهنة، الرصانة المبالغ بها، خشية الآخر، الأصول والقواعد... كلها ستائر كانت تجعلها لا تعيش داخل المشهد، بل تراقبه وتحكم عليه عن بُعد. أما الآن فقد صارت حواسّها أكثر مهارة في التقاط تفاصيل الحياة، الروائح، النظرات، نبرات الصوت.

صارت متيقّنة أنها تشمّ رائحة تبغ شريف وهي في الطابق الثاني المقابل لمحلّه، رغم روائح الفول والخبز ومطابخ الجارات، بل عبر روائح الكحول والمواد الطبية والأدوية في عيادتها.

كانت له رائحة مامد نفسها، وله لمعة عينيه البنيّتين نفسها، وكان له نُحوله، وبشرته السمراء، وشعره الأملس البني، وابتسامته الحانية التي تشعرها بأنها كائن مهمّ وقريب من روحه. لو لم يمت مامد، ورأت جثمانه بعينيها، لآمنت بأنه كبر وأصبح شريف.

حين مات شعرت بالضياع الروحي، بأن أحداً بعد اليوم لن يمسّ طفولتها الخبيئة، ومخيّلتها وبوحها. لم تتخيّل أنه سيأتي يوم، وستحدّث شخصاً آخر بالطفولة ذاتها، ببريق العينين ذاته، بالدهشة والحماسة نفسيهما، بنبرة الصوت الممطوطة الناعمة التي تستعيد نبرة الطفولة.

لكن هذا حصل، حين دعت شريف مجدّداً إلى الغداء: «شيشبرك، شو رأيك؟!».

ضحك بخبث وقال: «لو صحت لجدي ما كان مات!».

على الطعام حدثته عن ولعها بالأجنة، ذلك الولع الذي خُلق في روحها حين كانت تراقب أبيها وهو يعتني بالخيول الحبلى، ويشرف على عملية الولادة.

مع شريف وجدت هند نفسها مدفوعة بطريقة غامضة صوب عالم مليء بالحنان، بالدفء العاطفي، بالرعاية... العالم الذي لم تعشه سوى مع مامد وزلوخ. فوالدها، كان منطقياً وصارم المشاعر، وأمها كانت باردة ومنشغلة في عالم الخيل والرياضة.

كانت تحس بالوحدة، ولا تعرف شيئاً عن مشاعر الأخوّة، وبغتةً، وجدت هذا الكائن الجديد في حياتها. لم تكن قادرة على فهم ما يدفعها إليه. كانت تشعر بالأمان والاكتفاء، بأنها خالية من الهموم حين يكون معها، بأنه ليس لديها أي طموحات أو أحلام أخرى خارج دائرة وجوده معها.

هل كان تعويضاً عن الأخ الذي لم تعرفه، أم تعويضاً عن أبيها؟ هل كان استمراراً لانقطاع وجود مامد الذي مات، وعاد في جسد شريف؟ لم تكن تفهم مشاعرها، لكنها كانت تمتلئ بالسعادة والسلام حين يكون بقربها. لهذا راحت تحدثه عن هوس الأجنة.

بذور سحرية ١

حدث هذا أول مرة حين كنت في الخامسة من عمري، كما أذكر. يومذاك كنت مع زلوخ في المزرعة، ورأينا أبي يخرج من الإسطبل مبتهجاً يحمل مهراً صغيراً بين يديه وهو يصرخ منادياً أمي: «نهى.. نهى.. شهبا جابتلك شام!».

كانت أمي تنتظر أن تضع فرسها، وكنت لا أفهم تماماً ماذا يعني أن تحمل الإناث. في ذلك اليوم شرحت لي زلوخ أنها مثل البذرة التي تتحوّل إلى نبتة. كنت أتخيل أن ثمة أرضاً طينية في بطن الإناث من الحيوانات والبشر، وفي هذا الطين توضع بذرة ثم تروى لتصبح نبتة، وهذه النبتات أنواع، ومنها الإنسان.

كان السؤال الذي يحيّرني هو كيف تسقى الأرض داخل بطن المرأة، فتجيبني زلوخ بأن الجنين، يعني البذرة، تشرب وتتغذى من المرأة نفسها، هناك حبل سرّي ومشيمة، تضخّ الطعام والشراب للطفل. وحين طلبت من أبي أن أشهد عملية استخراج الأجنة من بطن الأمهات، سمح لي بحضور ولادة فرس أخرى. كدت أجنّ من الفرح وأنا أرى ذلك الفعل الخلّاق: مهر صغير يخرج من جوف الأم. مشهد فاتن!

صرت مهووسة بمتابعة ولادات حيوانات المزرعة. ورحت أتخيل حيوات البذور داخل البطن، وتحوّلاتها، خلال أشهر الحمل، لتنتقل من طور البذرة إلى طور الجنين. وكنت أعتني بالصغار المستخرجين من أرض

الأم بعد ولادتهم.

ثم انتقل ولعي إلى أرحام النساء. كبرت قليلاً وازداد شغفي بفكرة الخلق: إخراج كائن صغير من كائن كبير. شيء مذهل ولا يمكن وصف جماله.

كانت زلوخ في شهرها السابع حين أجهضت. في ذلك اليوم اشتغلت كثيراً في المزرعة، وساعدت إبراهيم في تنظيف سيارته، وتزحلقت في آخر النهار من التعب. فهمت لاحقاً معنى الإجهاض، وأحسست بألم كبير. قررت دراسة الطب من أجل هؤلاء الأجنة.

كنت في سنتي الثانية حين عرض علي قصي الزواج. كان أستاذي في كلية الطب. وافقت على الفور، رغم معارضة أبي الذي كان يفضّل أن أنهي دراستي أولاً، لكني كنت متلهّفة للزواج، لتشغيل معملي الداخلي، وزراعة أرضي. وحين حملت شعرت بأنني حيوان حاضن للبذور. كنت سعيدة جداً وأنا أتخيّل بذرة طفلي تنمو بداخلي. كنت لا شيء، سوى ذلك الرحم المُحتضن لطفل قادم.

لكني أجهضت في الشهر الثاني من حملي. ودخلت في مرحلة كآبة حادة، لم أتجاوزها إلا بعد شهور حين حملت مجدداً، وخضعت لمراقبة طبية دقيقة، لكن طفلي الجديد سقط أيضاً في الشهر الثاني، تماماً مثل حملي الأول.

قال الطبيب بأن ثمة أسباب وراثية لدى قصي تجعل استمرار حملي صعباً، فانفصلت عنه. غضب أبي مني، ولامني جميع معارفنا، لكنني كنت واضحة، وبراغماتية. أنا لا يهمني الزوج، أنا أريد الجنين.

كنت مستعدة للزواج من أي عابر سبيل لأنجب فحسب. كان ذلك شغفي وفرحي وأملي في الحياة: الطفل.

مع ذلك، ورغم لهفتي تلك، حاولت التريّث. تخرّجت في الجامعة ثم سافرت إلى لندن لأتخصّص في الأمراض النسائية.

هناك تعرفت على زميل بريطاني في الكلية. كان يتقرّب مني، وكنت أجده لطيفاً، وبعد مدّة طلبت منه الزواج. فوجئ ويليام من طلبي، لكني شرحت له الأمر. أريد أن أصبح أماً، ولا تهمني المشاعر والغراميات. هكذا تزوجت للمرة الثانية، رغم معارضة أهلي أيضاً، وخاصة أبي الذي لم يقبل أن أتزوج من أجنبي.

تأخّر حملي، ورحت أراجع أساتذتي وكبار المختصين بأمراض النساء، كلهم أكّدوا لي خلوّنا، أنا وزوجي، من أي عيب يمنع الإنجاب، لكنها قضية وقت لا غير.

كنت أتصرّف بعصبية، وكثرت شجاراتي مع ويليام الذي اعتبر أنني لا أحترمه، وأنني أنظر إلى وجوده في حياتي على أنه مجرد ملقّح، وأنني مثل أي رجل شرقي

متخلّف، يتزوج المرأة لأنها كالقطة، يهمّه منها فقط أن تأتي له بالأطفال.

تصاعدت خلافاتنا كثيراً إلى أن توقّف عن معاشرتي. صرخ بغضب في آخر لقاء بيننا في السرير: «أنت باردة، أنت لست إنسانة.. لماذا لا تقبّلينني؟ لماذا لا تعانقينني؟ هل الجنس بالنسبة لك هو أن أرمي سوائلي في رحمك لتنجبي فقط؟ اذهبي واحملي عن طريق الأنابيب، ما دمتِ لا تحتاجين إلى المشاعر.. احصلي على هذا السائل واحقني رحمك به.. أنت ماكينة ولستِ بشراً يا هند!».

حاولت تغيير طريقتي في التعامل معه، لكنه كان قد نفر مني. وكلما حاولت الاقتراب منه، كان يقول لي بغضب: «أنت لا تريدينني، أنت تريدين اللقاح، مثل ملكة النحل.. أنا لم أعد أطيق الحياة معك!».

بعد فترة قصيرة تركني ويليام. لا أعرف كيف جرت الحياة بعد ذلك. دخلت في مرحلة كآبة جديدة، وفكّرت في الحمل عبر الأنابيب، فطار صواب أمي واتهمتني بالجنون. كيف سأربّي طفلاً مجهول الأب وأنا دون زوج؟

رضخت هذه المرة لقرار والديّ، وقررت أن أترك للحياة فرصة أن تجمعني برجلٍ أحبّه ويحبّني لأنجب منه.

كان قد مضى على انفصالي عن ويليام ثلاث سنوات حين عدتُ إلى سورية، وقررت العمل هنا، في هذا الحي، بعد أن تتبعت خيط ذاكرتي مع زلوخ. كنت صغيرة ولم أتمكّن من إنقاذ طفلها، وكان إجهاضها أول إحباط أتعرّض له في حياتي. لا أنسى إلى اليوم طعم تلك المرارة، حتى أنني ربما تألمت، وأنا طفلة ومشاعري غضّة، لإجهاضها، أكثر مما تألمت لإجهاضي.

بدأت العمل ولمست نتائج دراستي، ورأيت الفرح في عيون النساء الفاقدات الأمل من الإنجاب، حين حملن عبر المعالجة والتدواي برعايتي. كنت أفرح معهنّ، وكأنّ أيّ طفل تحمله إحدى مريضاتي، هو ابني أيضاً. لكنني في الوقت نفسه أنتظر (وأعرف أن هذا سيحدث) مجيء اليوم الذي أتلمس فيه بطني، وأتابع انتفاخها من أسبوع إلى آخر.

ذات يوم سأشهق من الفرحة، وأنا أشعر بتحرّكات جنيني، وركلاته الصغيرة المُحبّبة.

المقصلة

كانت مديحة تنشر الغسيل على الشرفة، حين رأت زوجها قادماً برفقة هند. كان يبدو عليهما الانسجام والحبور. غلى الدم في شرايينها، وكتمت غيظها، فهي متيقّنة من خسارة معركتها إن تحدّثت أمام خالتها، التي تأخذ دائماً جانب هند، ولا تقبل بأن يتعرّض أحد

لها بأي إزعاج، حتى بناتها.

كانت تغار من أخوات شريف، لكنهن متزوجات الآن وخطرهن قليل، تستطيع احتمال اهتمام زوجها بهن حين يأتين للزيارة، أما خطر هند فيكبر ويهدّدها، هي دائماً هنا، تأخذ لبّ زوجها وحماتها، وحتى الأولاد متعلّقون بها.

نادتها أم شريف لتقطيع اللحمة: «مديحة، الدكتورة وصلت، ولسّه ما جهّزتِ اللحمة.. بسرعة، تعالي قطّعيها بينما أفرم السفرجل!».

وصلت الدكتورة مبكرة، قبل موعد الطعام، لأن أدهم لديه امتحان في مادة العلوم الطبيعية في الغد، ويحتاجها في دروس التشريح، فهي طبيبة، وتستطيع أن تشرح له بيسر أجهزة الهضم والدوران.

كادت أمه تفرم إصبعها وهي تقطع اللحم بالسكّين الحادة، وتمنّت لو أنها تستطيع تقطيع الدكتورة بدلاً من فخذة الخروف. ودون أن تنتبه، وجدت أفكارها تتداعى في خيط من الصور الدموية، تخيّلت نفسها تدخل محل القصّاب، فتأخذ الساطور الكبير، وتهوي به على رأس هند، لتطيح بعنقها، فيتدحرج رأسها على الدرج وتبقى عيناها مفتوحتين برعب الخوف، كما رأت في الأفلام الفرنسية، حين يقصّون رقبة المجرم تحت المقصلة.

حلمت بتقطيع جثّتها إرباً، لتتخلّص من خطرها الذي

يهدّد حياتها الزوجية.

ليلة البارحة شدّها شريف بقوّة صوبه في الفراش، وكان قد صحا من نومه ليأخذها. لم يفعل هذا منذ أسابيع. لم يأخذها أول الليل، بل حين أفاق من حلمه، وكأنه حلم بمخلوقة أخرى فأفاق بشهوة فاقت قدرته على الانتظار حتى الصباح.

ركّزت كل طاقتها لسماع التمتمات التي كان يهذي بها زوجها أثناء الجماع، حاولت التقاط اسم هند من بين كل الكلمات الشهوانية التي أفلتت من لسانه المتماسك، الصامت غالباً أثناء مطارحتها الغرام.

كانت شبه متيقّنة بأنه يخونها مع هذه اللعينة الماكرة، التي تُظهر اللطف والحياء والتهذيب، وهي أفعى تستحق سحق رأسها، وتقطيع أوصالها، بساطور أبي فؤاد، أو بجلب مقصلة ونصبها وسط الحارة، في الساحة حيث نصب أبو فؤاد خيمة حفلة خطوبة ابنته على التيس. سترتدي مديحة أجمل ملابسها، وتضع من العطر الذي اشترته، ماركة عطر هند ذاتها، وستتزيّن، وتضع أحمر الشفاه القانئ كالدم، ثم تهوي بالمقصلة على رأسها، وتفرمها على الملأ.

ارتجفت وسقطت السكين من يدها حين دخل شريف المطبخ وقال: «أمي، بدّي كبّة مع السفرجلية.. ممكن؟».

- «طبعاً.. جاهزة.. أصلاً السفرجلية ما طيبة بدون الكبة.. شي ساعة بيكون الأكل جاهز!».

تدخلت مديحة: «ليش جاي بكير؟».

- «جيت مع الدكتورة».

فامتعضت زوجته وأضافت: «ليش هي ما بتعرف الطريق؟ كلهم خمس خطوات من العيادة لهون!».

نظر إليها لائماً وهو يخمّن حجم كراهية زوجته لهند، لا لشيء، إلا لأنها امرأة ناجحة ومحبوبة ولها قيمتها في الحارة وفي بيتهم، فقال متهكّماً: «هذا من باب الاحترام يا زوجتي اللطيفة.. ولا تنسي أنها هون كرمى لابنك، كان لازم تعتني فيها وتشكريها، مو تلوميني!».

تعرف أنها خاسرة أمام أيّ تفصيل يتعلق بالدكتورة. سكتت، وراحت تتابع عملها، راسمة في خيالها سيناريو آخر لقتلها وتقطيع أوصالها.

كانت دوماً تبحث في ملابس زوجها، حين يستحمّ ويبدّل ثيابه، لتجد دليلاً ضدّه. البارحة رأت آثار أحمر شفاه على قميصه الداخلي، فطار صوابها وركضت كالمجنونة من الحمّام إلى غرفة النوم، وصرخت: «هيدي خمرة ولّا أنا عميانة؟».

نظر إلى القميص بيدها دون اكتراث وقال: «كأنك نسيتِ أني عند أهلي ببقى بالقميص الداخلي؟ نسيتِ كيف أخواتي بينطّوا عليّ وبيبوسوني.. شي وحدة

منهن تركت الحمرة ع قميصي!».

- «يعني بدك تقنعني أنه الحمرة مو من الدكتورة؟».

انفجر بالضحك: «بشرفك؟ إيمتى شفتي الدكتورة حاطّة حمرة؟».

ارتبكت بعد أن انتبهت لذلك، ثم قالت له بتهكّم: «يعني منتبه إنها ما بتحط حمرة.. يعني مهتمّ منيح بكلّ شي بيخصّها!».

نظر إليها وضرب يداً بيد: «يعني المهم عندك تخلقي مشكلة ضد الدكتورة.. مديحة، لازم تفهمي أنه محل الدكتورة عندي فوق الكل.. أنا متحمّل هالحكي الفاضي لأنه بيناتنا، بسّ والله إذا بتفكّري تزعجيها أو تهينيها، ما بتعرفي شو ممكن أعمل! صدقيني مديحة، هالقصة ما فيها مزح!».

فما كان منها إلا أن سكتت خائفة، وهي تردّد في سرّها أنه حتى لو لم يكن زوجها يخونها فعلياً مع هند، لكن يكفيها أنه يفضّلها عليها، ويهدّدها إن ضايقتها. ذلك كافٍ لتكرهها، وتتمنى قتلها.

تنبّهت من أفكارها حين دخلت غريمتها بغتةً إلى المطبخ: «رح أعمل فنجان قهوة، تعبت شوي».

كانت دريّة قد أنهت تقطيع السفرجل وغسله، وقد أخرجت الكبّة الجاهزة من الثلاجة. ولأن يديها مشغولتان فقد طلبت من شريف أن يجهّز القهوة

للدكتورة.

- «لا.. أنا بعملها». قالت هند مُحرجة.

- «لا دكتورة، ما بيجوز.. أنا إلي الشرف حضّرلك القهوة».

نظر إليها بحب وهو يقول ذلك، فاحمرّت وارتبكت، والتقطت مديحة ذلك الارتباك، فامتلأ صدرها بالغضب من جديد بسبب هذه الحركات الخبيثة بين الاثنين، وراحت تتخيّل من جديد، لا كيف ستذبحها، بل شكل المكان الذي يلتقيان فيه.

تخيلت بيت هند، صالة واسعة، تدخل إليها متأبّطة ذراع شريف، وما إن يُغلق الباب عليهما حتى ترمي حذاءها، وتعانقه وتبادله القبل، ثم يحملها ضاحكة بغنج ودلال إلى غرفة النوم. غرفة مثل غرف الهوى في الأفلام السينمائية، أضواء حمراء، ستائر مذهّبة، شموع، خمور، سجائر. وهند بملابس داخلية شفافة، تضع أحمر الشفاه القاتم، وتبدو مثل مارلين مونرو، بشعرها الذهبي وحمرتها الفاقعة وقفازيها السوداوين. تتقلّب على السرير الوثير كأنه من ريش النعام، يخلع شريف قميصه مُثاراً، ثم يستلقي إلى جوارها، ويعودان إلى تبادل القبل كما ناديا لطفي وعبد الحليم حافظ في فيلم «أبي فوق الشجرة». تشمّ رائحة عطر هند تفوح من جسد حبيبها المتعرّق. يطفئ العاشقان الضوء، وتسمع همهمات المرأة كأنها مهر يركض في بساتين واسعة لا حدود لها.

أفاقت هند مذعورة من الكابوس الذي ظلّ يُقلقها طيلة النهار ويجثم على صدرها.

فتحت مواقع رموز الأحلام بحسب نظريات التحليل النفسي، حسب فرويد وغيره، لتتمكّن من حلّ ألغاز ذلك الكابوس المُخيف الذي أرّقها.

كل المواقع العلمية أظهرت أن العجلة تدلّ على دورة الحياة، وأن الحالم بالعجلة هو صاحب حياة مُتعبة كثيرة الدوران، لكن الحلم بها ربما يعني دخول دورة حياتية جديدة، ونهاية عادة معيّنة، وتغيير كبير. وفي الوقت نفسه، قد تعني العجلة فقداناً وألماً كبيرين.

أما المواقع الإسلامية، وتفسيرات ابن سيرين والنابلسي وغيرهما، فالتفسيرات اتفقت مع المواقع السابقة حول الدلالة على السفر والانتقال. وأضافت أن التفسير يعتمد على حالة العجلة في الحلم، فالعجلات السريعة الدوران تدلّ على الحيوية والتغيير، أما البطيئة فتدلّ على الموت.

لم تغادر هند البيت طيلة اليوم، واتصلت بزينب لإلغاء مواعيد العيادة. شعرت أن ذلك الكابوس شلّ روحها.

توقفت العجلة في المنام، وسمعت ذلك الصوت الذي يشي بانكسار شيء ما. غادرت السيارة لتنظر إلى ما

علق بعجلتها وتحطّم تحتها. وجدت رأس مديحة مهشّماً، وجلدة رأسها مسلوخة كأنها رأس خروف.

استيقظت خائفة ومرعوبة، وانتابتها حالة من الإعياء النفسي والضيق. شعرت بحاجة إلى من تثق به، وترتاح في الحديث معه، لتروي له ذلك الكابوس علّها تهدأ.

تذكّرت أمها التي اختارت الحياة في لندن وتركت البلد نهائياً، بعد أن عانت بعض الاضطرابات النفسية إثر حادث تعرضت له في أحد السباقات الدولية للخيل. كانت قد تدرّبت كثيراً لتشارك فيه وعلّقت آمالاً كبيرة على الفوز، لكن فرسها ماتت أثناء القفز، إذ أصيبت بأزمة قلبية.

كانت نهى مولعة جداً بفرسها «الشهبا»، وكأنها ابنتها، فلمّا ماتت لازمتها الكآبة التي كانت مزيجاً من الشعور بالفقدان والشعور بالإثم، لأنها أرهقت الفرس بالتدريبات حتى تدمير قلبها. إضافة طبعاً إلى شعور الخذلان والفشل أمام الجمهور، وأمام زوجها الذي كان ينبّهها دائماً إلى تراجع صحّة «الشهبا»، وهي ثيبّس رأسها مصرّة أنها لن تشارك في سباق الخيل إلا برفقتها.

منذ أكثر من سنة لم تتصل هند بأمها. كانت إحداهما تتصل بالأخرى في المناسبات، في رأس السنة وفي الأعياد. شعرت الآن بالحاجة إلى الحديث معها.

استغربت نهى من تصرّف هند العاقلة، المتوازنة، كيف تتصل بها وتطلب رأيها بسبب حلم رأته. وكادت تسخر من ابنتها. لكن هند كانت مرتبكة وخائفة، ولم تفهم ما الذي دعاها لطلب النجدة من والدتها، وكأنها صدقت في العمق، أنها ترغب فعلاً في قتل مديحة. كأن أمها في تلك اللحظة، هي الكائن الوحيد الذي سينقذها من تورطها في ميول إجرامية. كانت نهى تكرّر لهند، وكأن هند طفلة: «حبيبتي، هذا منام، مجرّد منام!».

- «خايفة يا أمي.. خايفة تكون رغبتي السرّية!».

لم تحلِ هند لأمها عمّن تكون تلك المرأة. لكن نهى سألتها: «بتعرفي هالست؟».

- «هي ساكنة هون بالحارة اللي بشتغل فيها؟».

- «بس هيك؟ هاد كل شيء؟».

- «إي..».

- «يعني ما بتعرفي عائلتها؟ ما في علاقة بيناتكن أكتر من كونها ساكنة بالحارة؟».

تلعثمت قليلاً، ثم أجابت: «زوجها عنده محل جنب عيادتي».

- «زوجها حلو؟».

تظاهرت هند بالاستغراب، وقالت دون اكتراث: «مابعرف.. هو شخص عادي».

- «متأكدة؟».

- «شو قصدك؟».

بدا الانزعاج والتوتر في نبرة صوتها، فقالت أمها: «ليش انزعجتِ؟ هند، أنت بتعرفي منيح ليش حابّة هالستّ تموت؟».

- «أمي.. أنت فعلاً مريضة، الحقّ عليّ إني اتصلت فيكِ!».

- «هيك صار أكيد أنك متعلّقة بهالرجل.. مو ع الفاضي بتكرهي زوجته!».

أغلقت هند الهاتف منهية ذلك الحديث الذي أخافها أكثر من الكابوس، وراحت تدور في الغرفة وهي تكاد تختنق من الضيق. هل صحيح أنها تريد أن تموت مديحة لتترك لها شريف؟

كانت في حالة ضيق غامضة كأنها ارتكبت جرماً فعلياً، وتفاقم شعورها بالذنب صوب المسكينة، وراحت توبّخ نفسها، هي الطبيبة الثرية المستقلة الناجحة تحارب امرأة ضعيفة، فقيرة، جاهلة، لتأخذ منها كل ما لديها في الحياة: زوجها.

أشعلت سيجارة، ثم نهضت وفتحت الراديو، فجاءها صوت عبد الحليم حافظ «اسبقني يا قلبي اسبقني»، شعرت بارتياح غامض، كأنها واقفة خلف النافذة تتأمل شريف الذي يدخّن ويسمع عبد الحليم. ملأ الخدر جسمها، وهدأت بغتة.

مجرد تخيله كان كافياً لتستريح. تمنت لو يكون هنا، استرجعت حركاته وابتساماته، مرّ شريط طويل من أحاديثهما هنا، في بيتها، ودون أن تشعر أمسكت بهاتفها، فتحته، وضغطت اسم شريف، فسمعت صوته الذي جاءها بلهفة: «طمّنيني عنك.. اتصلت فيك عشرين مرة، انشغل بالنا عليكِ أنا وأمي.. خير؟ مو بالعادة تغيبي عن الشغل، شو صاير معك؟».

أصرّ شريف أن يرى هند ويطمئنّ عليها، وقال لها إن لم تأتِ فهو سيذهب إليها، ليتأكد أنها بخير. كان النهار قد انتصف. وفكرت بأنها يجب أن تخرج من البيت لتتخلص من هذه الأفكار السوداء. أخذت حمّامها، بدلّت ملابسها، وانطلقت إلى حي الهلك.

ما إن وصلت إلى الطابق الثاني ورأت اسم شريف على جرس الباب المجاور لبيت أمه، حتى غمرت رائحته أنفها، وأحسّت برغبة شديدة في وضع إصبعها على الجرس، فوق اسمه، لتدخل إلى ذلك المكان الذي لم تكن قد رأته حتى الآن، إذ إن مديحة لم تدعها يوماً للزيارة أو لتناول شيء، وكأنها حارسة صارمة تمنع دخول هند إلى بيتها رغم مرور شهور طويلة، تقترب من العام، على معرفة العائلة لها.

شعرت بمزيج من مشاعر الشوق لشريف، لبيته، لرائحته، لرؤية المكان الذي يعيش فيه، كما كان يفعل مامد يفعل حين يصحبها مراراً إلى غرفته التي

يتقاسمها مع جدّته في مزرعة والدها، ليريها أين ينام، ويحلم، ويفكّر، ويشرح لها تفاصيل حكاياته: «من هذه النافذة رأيت زبرجد تدخل عليّ، وكانت جدتي هنا، في هذا الحمام، تعالي.. انظري!».

أرادت اكتشاف مغارة شريف الحميمة، ربما رؤية فرشاة حلاقته، والمعجون الذي يفرك فيه وجهه قبل الحلاقة. حاولت تخمين لون منشفته، زهرية؟ زرقاء؟ صفراء؟ كانت منشفة مامد خضراء، بينما كانت منشفة أبيها، تلك التي تذكرها على الأخص، بيضاء.

خالطت مشاعر رغبتها بالاطلاع على تفاصيل عيشه، مشاعر الذنب تجاه مديحة، لأنها قتلتها في حلمها. كانت تشعر أن ذلك الكابوس لم يكن مصادفة، لم يكن حادثاً فحسب، بل كانت تلك نيّة مبيّتة في نفسها. القتل بالنية، أو نيّة القتل، لا يختلفان كثيراً عن القتل الحقيقي. النيّة هي الأصل، ولهذا يقول الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيّات».

كما لو أنها أمضت سنوات وهي واقفة أمام الباب، مترددة في ضغط الجرس، ومهيئة نفسها للكلام، ماذا يمكن أن تقول لمديحة؟

فجأة سمعت أصوات خطوات سريعة على الدرج، وهبّت الرائحة إلى أنفها، وتسللت إلى روحها. كانت رائحة تبغه. مدّت رأسها من أعلى الدرج، وجاءه صوتها: «وصلنا مع بعض».

- «شفت سيارتك تحت. كيف صرت؟».

كان قد وصل إليها وهو ينهي جملته، ويصافحها. كانت لديه رغبة في عناقها، كما يفعل مع أخواته، لكنه لم يفعل، إذ من غير المألوف أن يعانق رجل امرأة ليست من أقاربه.

فتح باب بيته وكادت تشهق من الفرح، كأنه كان يقرأ أفكارها.

- «تفضلي.. دريّة تعبانة وأمي عندنا هون!».

كمن يدخل مغارة علي بابا المليئة بالأسرار والكنوز وصناديق الذهب والمجوهرات، دخلت بقدمين مرتعشتين، وشعرت بأنها ستسقط. فقدت توازنها، ومالت فجأة، فأحسّت بيده تُمسك بها من خاصرتها، ليسندها. كانت دائماً تتخيله موجوداً معها، ويحميها. استدارت نحوه وبرقت عينها بفرح وهي تقول: «بيتك حلو شريف.. حلو ودافي وحميمي، متل بيوت الأصدقاء اللي منحبهم!».

وضع يده على كتفها بحنان كبير، وقال لها شبه هامس: «نحن أهل، وأي مكان بيخصني، بيخصك كمان!».

في تلك اللحظة خرجت مديحة من غرفة ابنتها، ورأتهما يقفان في مدخل البيت. يضع يده على كتفها، ويتحدثان بصوت منخفض، كأنهما عاشقان. جاءتها

مجدداً صورة هند تركض كمهرة، وتصهل في بساتين لا حدود لها.

القط والفأر

تركزت شكوك مديحة بالدكتورة، وصارت الأخيرة غريمتها اللدودة، تتربّص بها في كل عبارة وحركة تقوم بهما، معتقدة بوجود علاقة بينها وبين شريف. لم تتخيّل في أي لحظة، لا هي، ولا أيّ كائن في الحارة، أن زوجها كان مولعاً بامرأة أخرى، وأن قلبه هناك، عند تلك الصبية الفاتنة التي تسكن قبالة محله، وترقص على أنغام أغاني أليسا ونانسي عجرم، وتحرق روحه وتلهب شهواته.

كانت سعاد تلعب لعبة القط والفأر، لا مع شريف الذي تشوّقه ولا تُطفئ نار شوقه المُلتهبة فحسب، بل أيضاً مع إدريس، أو التيس، الذي لا يزال خطيبها منذ خمس سنوات، إذ رفضت الذهاب معه إلى بيت زوجية ليس ملكاً لهما. كانت تقول له: «بيت ملك يا إدريس، أنا ما بعيش في بيوت الآجار!».

لم تكن تريد الزواج من ابن عمها، لكنها وافقت على الخطوبة حتى تظل ممسكة بخيوط اللعبة: لعبة القط والفأر. فهي لو قالت له إنها لا تريد الزواج منه، قد يغضب ليوم أو يومين، لشهر أو شهرين، سنة على الأكثر، ثم سينساها ويبحث عن امرأة أخرى.

كانت سعاد من ذلك النوع من النساء، اللواتي يعتقدن بأن أنوثتهن تُقاس بدرجة تعذيب الرجال، وشذهن برسَن التشويق الدائم، وعدم إشباع ذلك الشوق.

ليست من نوع نجوى التي اتّبعت تلك التقنية مع شخص واحد هو الرجل الذي تريده ولا تريد غيره، وتخاف من فقده إن اعترفت له بمشاعرها، أو إن أحسّ بأمان الحب معها، فيدخل في تخوم الامتلاك، ويضع عينه مجدداً على امرأة غيرها، صعبة المنال.

كانت سعاد تلعب هذه اللعبة مع أي رجل تشعر أنه منجذب إليها، ولو بدرجة بسيطة. تلمّح له، تجذبه، ثم تتركه عالقاً، مستمتعة بحالة التعلّق والتشبث، دون إشباع.

لم تكن قادرة على قطع حبل الشوق مع إدريس، بل ظلّت تحتفظ بخاتم الخطوبة، وهي تعرف أنه لن يحصل عليها أبداً. وظلّ شرطها حائلاً بينهما: أن يشتري بيتاً للزوجية، وهو الفقير المُعدم.

أما شريف، فكان أحد اختبارات أنوثتها.

كانت تبتسم له بإغواء كلما لمحته مارّاً أمام بيت أهلها. أو تضع الموسيقا الراقصة والأغاني التي يمكن وصفها بالهابطة، لمطربين لا أحد يعرفهم، ولا حتى هي، مغنّو الأفراح والأعراس، بأصوات نشاز، يغنّون لأم

كلثوم ووردة، ثم ترتدي جلابية ضيقة على مقاس جسمها، لتظهر مفاتنها، وتربط خصرها بمنديل مطرز بخيوط لامعة، وتبدأ بالرقص والتمايل كالأفعى في غرفتها، مقتربة من الشرفة كي يراها شريف ما إن يرفع رأسه وهو واقف أمام محلّه.

كانت تقترب من الشرفة خطفاً، ولا تُطيل اقترابها، كي يلمحها سريعاً، كبريق الشهاب، ثم تختفي، غير مجازفة في أن يراها أحد أهالي الحارة، وخاصة النساء الثرثارات اللواتي سيخبرن أمها، فتغلق باب الشرفة وتحرمها من الإطلال على الساحة.

كانت تغمز له وهي تتمايل بأثوابها الضيقة، في ذلك الممر الفاصل بين مدخل بيتها ومحل أبيها من جهة، وجدار البيت الملاصق لبيتها من جهة أخرى. ذلك الممر الشهير، الذي توقفت فيه نجوى ذات يوم، وملأت الحارة صراخاً بفضيحة تحرّش فؤاد بها.

كانت تغمز له وهي تخرج من الممر، تمدّ رأسها وتعود سريعاً، فيتحرك من أمام محله بضع خطوات، بينما يكون أبوها جالساً أمام محل جاره الفوّال، في استراحة كوب شاي، أو ربما يكون قد نزل إلى المسلخ لجلب الذبائح.

تلك الغمزات والتلويحات عن بُعد أيقظت شهوات شريف الحيوانية، فبدا عاجزاً عن ضبط انفعالاته، وراح يتسلل خلفها إلى الممر، إذ تبتسم له بتواطؤ، وتدخل

تلك الغرفة، غرفة الأشياء المهملة في مدخل العمارة، التي تحوّلت في ما بعد إلى غرفة الساكن الجديد.

كانت تدخل بخطوات متباطئة، ليتسنّى له رؤيتها، وتتبعها بعينيه، بذريعة أنه يسير قليلاً أمام محله، مدخّناً، بينما يراها هو عبر ذلك المكان الضيق. يراها وحده دون غيره. ثم تسحب نظراته خلفها، وهي تنحني لغرض ما، فتظهر استدارتها المثيرة، وتتجه صوب الغرفة.

تجرأ شريف ذات مرة حين تأكد من خلوّ المحل من أبيها، وكان أخوها قد ترك العمل في الحارة بعد زواجه من نجوى، فلحق بها حتى تلك الغرفة، أغلق الباب، والتصق بها بقلب يخفق من الرغبة والخوف.. فلو عرف أحد بأمرهما فقد يذبحانهما معاً.

تصنّعت سعاد الدهشة والرفض، وتمنّعت عنه هامسة: «اطلع من هون بسرعة، والله بيدبحوني إذا عرفوا!».

- «بوسة واحدة بس.. الله يخلّيك، بس بوسة!».

دفعته بغنج: «لا، بيدبحوني.. امشي.. يالله، روح من هون!».

حاول لمسها، أمسك بها من خاصرتها، شدّها، ضغط على ثديها، لكنها دفعته مجدداً برقّة: «مجنون.. بيدبحوني.. خطيبي مجنون أكتر منك، تيس وأنت بتعرفه!».

- «بوسة واحد بسّ!».

- «لا، ما بذي.. بخاف!».

- «من شو بتخافي؟ منّي؟ معقول؟».

وهكذا كانت تستمر تلك السيناريوهات في كل مرة. كانت تتبع معه تقنية «شمّ ولا تذوق»، عدم المنح وعدم القطع في الوقت نفسه.

أما إدريس، فقد لحق بها هو أيضاً عدة مرات إلى غرفة الأشياء المهملة سابقاً، كانت تتركه مع أمها وتنزل متحذئة بدلع وتلميح: «نازلة نظّف الغرفة تحت»، فينهي كوب الشاي أو فنجان القهوة سريعاً، يعتذر من زوجة عمّه متذرعاً بتأخّره على العمل، ويهرع خلف خطيبته. يغلق الباب عليهما: «بوسة وحدة بسّ!».

- «مو قبل الزواج.. هي خطيئة».

- «لا.. البوسة مو خطيئة».

- «بس نتزوج بعطيك كل شي، مو بس بوسة!».

يمسك بخاصرتها ويقربها منه، لكنه، مثل شريف، لا يحصل على أي شيء. تطرده متمنّعة مُغوية، ومتى شاءت تأتي به من جديد راكعاً تحت قدميها.

حريتان - ريف حلب - عام 0791

الخبز الحافي

وُلد إدريس في القرية، من عائلة أكثر من فقيرة. كان الابن البكر لوالد أنجب سبعة أولاد: صبيّين، وخمس بنات.

كان حكمت، والده، يشتغل بائع خضراوات متجول، يأخذ طرطيرته وينزل بها إلى المدينة، عبر الأحياء الشعبية، حي العمران، والأشرفية، والشيخ مقصود... في كل مرة، كان يختار أحد تلك الأحياء، ليبيع بضاعته التي يقطفها من حقلته الصغيرة، قرب بيته الريفي، الذي لا يملكه، بل يدفع إيجاره، وإيجار الأرض، من ثمن بيع الباذنجان والكوسا والبطاطا والبطيخ.

أما عفه الوحيد، رفعت، فقد تعرّف على رمزية في بستان والدها، حيث كان يعمل مزارعاً في قريتهم: حريتان، التابعة لحلب.

كانت قبيحة ولم يتقدم أحد لخطبتها، لا من الأقارب ولا من غيرهم، فقرر والدها، صاحب البستان، تزويجها من العامل عنده. وقبل وفاته قسّم أملاكه إلى أربعة أقسام متساوية، معطياً ابنته حصّة مساوية لحِصّة كلٍّ من إخوتها الذكور.

نزلت رمزية بعد موت أبيها مع زوجها إلى المدينة، وسكنا في حارة الهلك، حيث اشتريا تلك العمارة وفتح رفعت محل الجزارة في أسفلها، فدخل المال حياته من

باب واسع.

لم يكن ثرياً كفاية ليسكن في حي الأكابر، ولكن الفرق بينه وبين أخيه كان كبيراً، وكانت زوجته تتعامل مع حكمت وعائلته باستعلاء، ظانةً أنها من طبقة أعلى، فهي صاحبة مُلك، وهم فلاحون فقراء.

وحين نزل إدريس، الصبي البكر للأخ الأصغر إلى المدينة باحثاً عن عمل، توجه إلى بيت عمّه، طالباً العون، وفوجئ بابنة عمه الحسناء التي لم يكن قد رآها منذ سنوات طويلة، ربما تزيد عن عشر.

وقع الصبي في غرامها فوراً، وجثا عند قدميها في أول فرصة ينفرد بها، وقال لها: «بصير خدامك كل العمر، بس اقبليني!». ضحكت سعاد وهي تطقطق العلكة بين أسنانها اللامعة، وقالت: «بقبل.. ابن عمي أهمّ من الغريب.. بس أنت فقير.. وأنا ما بحسن أعيش حياة الفقرا.. بدّك تتزوّجني، اشتغل واشتري بيت. أما غير هيك.. الله غالب!».

كانت عائلته تعيش على الحافّة، وقلّما يدخل اللحم إلى بيتهم إلا في الأعياد، حين يذبح الأهالي ويتبرعون بلحم الأضحيات. كانوا نباتيين قسراً، يأكلون من منتجات الأرض: باذنجان مقلي، كوسا، بطاطا... وإن تحسّن وضعهم، تقلي لهم أمهم البيض وتشتري الجبنة.

أما في معظم الأوقات فيكاد يكون الخبز طعامهم

الأساسي.

كان إدريس، وظلّت تلك العادة ترافقه، يشتري رغيف خبز طازج، يلفّه ويأكله حافاً. بينما كان أبوه، يضع في رغيف خبزه بعض عروق النعنع الأخضر أو البصل، ويرش فوقها قليلاً من الملح والفلفل، ويلتهمها بشهية واصفاً أكلته بـ«كباب الفقراء».

تزوّجت أخوات إدريس الجميلات، بزيجات متواضعة من شباب القرية الفقراء أيضاً، ولكن بمستوى أقل من فقر والدِهن.

أما أخوه سعيد فقد تطوّع في المخابرات وترك العائلة، بل على الأصح، نبذته العائلة، فقطن في المدينة، وانفصل تماماً عن أهله، وفُقدت أخباره.

لم يعرف إدريس ماذا يفعل بحياته، وكيف سيتمكن من تلبية شرط الحبيبة الصعب: شراء بيت، وهو، بصعوبة، يأكل الخبز الحاف!

ذات يوم أشرقت في باله فكرة أن يذهب إلى أخيه. لا أحد يعرف ماذا حصل بينهما. لا أحد أساساً عرف بتلك الزيارة. اختفى إدريس لستة أشهر، كان خلالها يتّصل ببيت عمه، فيقفل الخط سريعاً حين ترد أمها أو أبوها أو فؤاد، ويتحدّث إليها سراً حين ترد هي، ليطمئن على اتفاقهما:

- «رح أشتريلك بيت، بس اوعديني تنتظريني!».

- «أنا إلك.. وما رح أتزوج غيرك، مهما طال الزمن».

حيّ الهلك - حلب - عام 5002

الأحمر والأسود

كانت سعاد منهمكة في تنظيف بلاط الصالون، حين سمعت صوت زمّور شديد، مزعج. قالت أمها التي كانت تزيل الغبار عن طاولة التلفزيون: «مين هالثقيل اللي حطّ إصبعته على الجرس ونسيها؟!».

- «رايحة شوف».

نفضت يدها من ماء المسح، وتوجهت صوب الشرفة، فتوقف الزمور فور خروجها، شهقت ونادت أمها: «أمّي، تعالي شوفي.. هاد إدريس!».

خرجت رمزية إلى الشرفة، ونظرت إلى الأسفل، ثم قالت: «مبيّن عليه جديد، خلنج؟!».

- «إي أمّي، جديد.. واضح عليه، شوفيه كيف عم يلمع!».

لوّح إدريس لهما، ورفع صوته: «من الوكالة لعندكن: 'ياماها' حديث!».

- «أنا نازلة!».

قالت سعاد متجهة صوب الداخل لترتدي ثوباً نظيفاً، يُظهر مفاتنها، لكن أمها صرخت بها: «لوين؟».

- «يعني معقول ما أعمل لفّة بالموتور مع خطيبي؟».

- «لا، ما بيجوز.. شو رح يقولوا الناس؟ إذا أبوكِ شافك، بيخرب الدنيا!».

لم تبالِ بتحذيرات أمها، بل لبست ثم نزلت مسرعة على الدرج، وقفزت خلف إدريس على دراجته ذات اللونين الأحمر والأسود، قائلة له: «يالله، طير فيني!».

انطلقا تحت أنظار أهل الحارة، وتحت أنظار شريف الذي أشعل سيجارته غاضباً، والغيرة تملأ صدره، وهو يرى سعاد تجلس خلف خطيبها، وتحيط خاصرته بيديها.

في غضون شهور قليلة، انقلب حال إدريس. صار يرتدي الملابس الجديدة، ويأتي بالهدايا لخطيبته مرةً كل أسبوع على الأقل: عطور، مجوهرات تقليدية، فساتين، ساعة يد.. كان الجميع يسألونه، عن مصدر المال، فيجيب باختصار: «الله بيبعت!».

لم يعرف أحد كيف انقلب حاله، من أكل الخبز الحاف إلى ذبائح وولائم في القرية، حيث دعا عمّه وزوجته والخطيبة إلى مائدة عامرة، في ذلك البيت الريفي العتيق، بعد أن جدّد فرشه، واشترى لأمه غرفة جلوس: أريكتين وستة مقاعد واسعة مريحة، وطاولة

وطربيزات، وطاولة تلفزيون، وشاشة حديثة. لكن عمله لم يكن كافياً بعد، لتأمين ثمن بيت في حارة متواضعة، في الهلك أو في الأحياء القريبة، فيتمكن من تنفيذ شرط العروس للزواج.

كان مولعاً بمصارعة الثيران، ولهذا أيضاً لُقّب بالتيس أو بالثور أحياناً. وكان يتمتع بقدرات بدنية، لم يعرف أنها ستفيده ذات يوم، حين كان يهدرها في العمل في الأرض مع أبيه.

تكتّم بشدّة على مصدر رزقه المُباغت، واخترع حكاية لسعاد، لتكفّ عن أسئلتها:

- «دخلت شراكة مع أحد الأصدقاء، هو بالمال وأنا بالمجهود».

- «وبشو بتشتغلوا أنت وشريكك؟».

- «بالتجارة».

- «تجارة شو؟ بشو بتاجروا؟».

- «بكل شيء.. بيشتري بضائع من لبنان، ويبيعها هون».

- «يعني تهريب؟».

- «لا، بيدفع الجمارك، وبيطلع بقرشين».

- «قرشين واشتريت موتور بشهرين، وفرشت بيت أهلك!».

- «الله بيبعت يا سعاد.. الله رزّاق كريم!».

تجاهل أسئلتها، وتجنب الخوض معها في التفاصيل، خشية أن تغضب وتتركه، إذا علمت مصدر المال، وما حصل بينه وبين أخيه سعيد، في ذلك اليوم، حين طرق بابه، طالباً منه العون.

الأيدي القذرة[8]

كان سعيد يعمل في شعبة أمن الدولة، التابعة لجهاز المخابرات. وبفضل هذا العمل أنشأ علاقة وطيدة بالمهرّبين، ومن بينهم عائلات شهيرة، تقوم بتهريب الدخان والمخدرات والسلاح، بعلم الدولة ومعرفتها، مقابل خدمات يقدّمها هؤلاء للنظام، ومنها إرسال التقارير الأمنية عن حركة المواطنين في دوائرهم المهنية.

عرض سعيد على أخيه العمل مع عائلة البزّاني[9]، الشهيرة بتجارة هذه الممنوعات، والتي لا تُدخل أحداً في شبكة أعمالها، دون ترشيح من جهة موثوقة، أو قبل تعريض الشخص لعدة اختبارات ثقة، يُقبل بعدها في العمل مع هذه العائلة المافيوية.

ولأنه كان يحتاج إلى النقود بأي طريقة، وافق فوراً، وسرعان ما انقلبت حياته، فشعر أنه يعيش في أحد أفلام المافيا الإيطالية.

استفاد تجار التهريب، من الإمكانيات البدنية له، واشتروا له تلك الدراجة النارية، كي يستخدمها في

عمليات الكرّ والفرّ من حواجز التفتيش، وليسهل عليه المرور في مرتفعات وطرق ملتوية، في أثناء عبوره الحدود، التي صار خبيراً بها. كانت مهمته استكشاف الطريق وفتحها أمام سيارات التهريب، إذ يتقدم على دراجته، ويُطيح برأس أيّ قاطع طريق، سواء من المرتزقة الباحثين عن النهب والسلب، أو من أفراد التفتيش الرسميين. وما لبث أن تحوّل اسمه في العمل إلى: «الغول الصغير»، الذي كان لا يرحم، ويقتل أي شخص يعترض رزقه ورزق أصحاب العمل.

لم يكن رجال الحارة يكنّون له أيّ احترام حين يمرّ بينهم، كما أن وجوده لم يكن مرغوباً فيه، حين يتطفل على جلساتهم أمام محلاتهم في الحارة. كان قوي البنية، لكنه دون عقل، ودون أخلاق، وكان يسبّب الحرج لعمّه وابن عمّه، حين يستخدم مقولات تدل على الخسّة الأخلاقية، كأن يقوم بتبرير السرقة مثلاً، بقوله: «الحياة بدها تمشي، والفقير ما بيصير يبقى فقير، ومن حقّ أي إنسان يعيش، ويصنع عدالته بإيده»، وحين يسأله أحدهم: «ولو على حساب الآخرين؟»، كان يقهقه كالتيس ويجيب: «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب!».

---

4 Mèmed مامد أو ميمد، هو مناداة اسم محمد، بالكرديّة. ووردت في رواية يشار كمال على ذلك النحو، ميمد.

5 اللفظ الكردي المحوّر لاسم مريم، إذ يُلفظ ميرم أو مايريه.

6 اللفظ الكردي المحوّر لاسم شهيلة.

7 مفردة تُستعمل في حلب تعني جديد كأنه خارج من الوكالة.

8 عنوان مسرحية لسارتر، خارج إطار عناوين الروايات المستخدمة في هذه الرواية.

9 اسم عائلة خيالي غير موجود في حلب.

الرجال الشاحبون وفناجين القهوة

ذهبت سعاد برفقة أهلها، للمشاركة في إجراءات دفن خالها عبد الغني، وحضور العزاء.

كانت الصدمة كبيرة على العائلتين، إذ فقد أهل سميرة ابنتهم أولاً، ثم فقد أهل عبد الغني ابنهم، بعد ثلاث سنوات ونصف من موت زوجته.

اقترح الأهل أن تتم إجراءات غسل الميت في بيته، حيث عاش مع سميرة سنوات حبهما الشهير في المنطقة، وأنجب منها ابنهما الوحيد.

اجتمعت النساء اللواتي توافدن من القرية ومن قرى مجاورة، ومن المدينة، في بيت الأخ الأكبر، عبد المنعم. وفوجئت سعاد بهذا العدد الضخم من قريباتها، وخاصة بنات خالها التسع اللواتي كبرن كثيراً وتغيّرن، إذ كنّ صغيراتٍ حين كانت تزور بيت جدّتها.

فكّرت بأسباب تلك القطيعة العائلية مع أقارب أمها. تعرف أن أبيها قاطع أخاه الوحيد، بسبب الفارق المادّي بين الطرفين وتحريض أمها له على تلك القطيعة ونبذ الفقراء، الذين لا يليقون بها. لكنها لم تفهم سبب قطيعة أمها لأهلها بعد أن توفي والدها وترك لها حصّة مماثلة لحصة إخوتها الرجال.

كان السرّ يكمن في ما حصل بعد ذلك، إذ إن الخلافات نشبت حين شكّك الإخوة الذكور، بشرعية حق

أختهم البنت، في الحصول على حصّة مساوية لحصصهم. فطالبوا، بإعادة تقسيم الإرث، لتأخذ رمزية نصف ما أخذته فقط. فقامت الحرب بينها وبين إخوتها من ناحية، وبين إخوتها وزوجها من ناحية أخرى، وهدّد الرجال الثلاثة صهرهم بالقتل، إذا وطئت قدمه أراضي القرية.

حتى إن رمزية لم تكن تستطيع زيارة أمها، بل كانت الأم هي من تنزل إلى بيت ابنتها من وقت إلى آخر لتزورها وتطمئن عليها، وتدعو على أولادها بأن يحرق الله قلوبهم، كما حرقوا قلبها وحرموها من ابنتها.

لمحت سعاد من بعيد، وهي تسير في القرية مع حوريّة، ابنة خالها، أعداداً غفيرة من الرجال يجلسون في ساحة بيت المتوفّى لتقديم العزاء. وسيكون هذا المشهد هو ما سيلتصق بذاكرتها أكثر من غيره من زيارة القرية. مشهد الرجال الشاحبين وفناجين القهوة تدور بينهم.

حاولت التعرّف، عن بعد، على هويات المعزّين، فلم تعرف منهم سوى أبيها وأخيها، وفوجئت أن جميع الرجال الآخرين بدَوا أغراباً بالنسبة لها.

حين عاد الجميع من المقبرة، وانتهت تفاصيل عزاء اليوم الأول، طلبت سعاد من أمها أن تسمح لها بالنوم في بيت خالها عبد المنعم، لكن رمزية رفضت، وقالت إنها لم تغفر لإخوتها ما فعلوه معها.

- «ما بدنا ننام هون، رح نروح لست أمي!».

كانت سعاد متعبة بعد يوم طويل من التنقل بين المقبرة والضيعة، وتقبّل التعازي، ومساعدة البنات في المطبخ. لذا ما إن وصلت إلى بيت جدّتها حتى نامت كالقتيلة، غير عابئة بالحديث الطويل المتشعب بين أمها وجدتها وخالة أمها العازبة، التي تعيش مع أختها صبرية، وتؤنس وحدتها.

البئر الأولى

يذوب قلب سعاد من الفرح حين تداهمها رائحة الخبز الساخن الذي يتغلغل بخاره المتصاعد في روحها. لذا حين اخترقت رائحتا القهوة والخبز، معاً، أنفها بقوة، في صبيحة اليوم التالي، أفاقت، وتثاءبت متكاسلة، ثم تحركت قليلاً من فرشتها الممدودة قرب النافذة، ودون أن تنهض كلياً مدّت يدها صوب مقبض النافذة الخشبية، وسحبته نحوها.

أطلّت على منظر ساحر مثل لوحة فنية. كانت رمزية مع أمها وخالتها، يشربن القهوة ويقضمن الخبز المحمّص. كنّ جالسات فوق كراسي قشّ صغيرة، أمامهن طاولة خشب دائرية، فوقها ثلاثة فناجين قهوة، وركوة يتصاعد منها البخار، وباقة نرجس أصفر، وإبريق ماء وكأس.

لم يكن ذلك المشهد وحده، هو ما دفعها لتقفز من السرير مملوءةً بطاقة عجيبة، كأن عصا سحرية لمستها، بل مشهد الدلو. فنهضت تدندن أغنية أتت إلى ذاكرتها

بغتة: «الله لا يشغلك بال، وذيلي منك مرسال.. سآل سآل».

حين خرجت، وهي تكمل أغنية فيروز، حدجتها أمها بنظرة لائمة، فتذكّرت سبب مجيئهم إلى القرية، وقالت مبررة: «صباح الخير.. يعني مو معقول نفيق على حزن.. والله نسيت!».

ودون أن تلتفت إلى شيء، اتجهت صوب الدلو النحاسي المربوط بسلسلة حديدية، أخذته ورمته في البئر، وراحت تضحك بطفولة مباغتة، وهي تنظر إلى الماء داخل الجبّ، ثم سحبت الدلو، وشربت منه.

حدجتها أمها بنظرة اللوم من جديد، لكنها تجاهلتها.

- «الإبريق فيه ماء!».

قالت خالتها، لكن سعاد أجابت: «بحبّ ماء الجبّ».

وهي تسمع صوت ارتطام الدلو مجدداً بالماء، كان صباها الذي لا يزال يافعاً يتجوّل داخل البئر.

في تلك اللحظة تناهى إلى أذنها صوت سعال رجل يدخل من البوابة الخشبية المفتوحة، يكخ مستأذناً ومُعلناً عن وصوله.

أحسّت بطريقة غامضة أن هذا الرجل ليس سوى ذلك الطفل الذي تركته هنا قبل عشر سنوات، قرب البئر، تحت شجرة التوت، التي تنمو على أطرافها أزهار النرجس الصفراء.

وقفت سعاد تتفرّج عليه مقبلاً بشباب متفتح للتو،

كفراشة تخرج من يرقتها وتترك قشرتها. جلست حول الطاولة، مقابل الشاب الوسيم، تنظر إليه، بينما هو غارق في مكان آخر. لم ينتبه إليها، وكأنه لم يعرفها.

كانت تنظر في عينيه، وتطابق بينه وبين صورة الصبي الذي لم تره منذ عشرة أعوام. صارت تقلّب صوره في ذاكرتها، كأنها تقلّب في ألبوم صور بين يديها.

كان حسين في الخامسة من عمره تقريباً، حين طلبت سميرة منها: «ممكن تحمّميه؟ أنا مريضة وحرارتي مرتفعة!». فدخلت سعاد معه إلى الحمام لتغسّله. في ذلك اليوم ظلّ محتفظاً بسرواله تحت الماء قائلاً باستعراض ذكوري مبكّر: «حتى أمّي، ما بشلح أمامها، أنا صرت رجل!».

وهي تدعك ظهره بالليفة الخشنة والصابون كانت تغني: «تبقى ميّل تبقى اسآل...»، فسألها حسين لماذا لا تغني مثل أمه أغاني سميرة توفيق، فقالت له بمكر: «أمّك وجدت عشقها، أما نحن المحرومات من العشق، منغنّي لرجل في الخيال، خيال في خيال في خيال».

وراحت تثرثر عن الحب في المخيلة، وتشرح له مواصفات فتى أحلامها. وحين خرجت به من الحمّام ملفوفاً بمنشفة سماوية كبيرة، أوصته بضرورة التكتم على حديثهما، فهذه أسرار البنات، ويجب أن لا تُباح للآخرين. سألها لماذا تبوح له وهو ليس بنتاً، فقالت: «لأنني أثق بك وأحبّك». وقرصته من خدّه مازحة.

لم تتخيّل سعاد أن طفل الخمس سنوات، سيكبر

يوماً وراء يوم، وشهراً تلو الآخر، لتكبر أسرارهما. كانت تعامله كطفل وتمزح معه، لكنه رآها كامرأة تداعب مخيلته الذكورية الغضّة. ولم يكن قد بلغ السادسة حين أعلن أمام العائلة اسم الزوجة التي ستكون له ذات يوم.

كان الجميع يتناولون العشاء في هذا البيت، في مساء قائظ من شهر تموز، وراحوا يثرثرون عن الحب الجارف بين سميرة وعبد الغني، فقال حسين: «بس أكبر، بذي أتزوج سعاد!».

نظر الجميع إلى الفتاة ضاحكين، وقالت لها سميرة: «يعني أنتِ ضرّتي، كان بدّه يتزوجني، هيك أخذتِ الولد منّي؟».

وضحك الحاضرون.

ثم تتالت الأيام بعد ذلك، إلى أن جاء نهار كانت فيه سعاد وحدها في الدار. جلست قرب البئر، على السجادة الملونة لتطرّز ذيل الثوب الزهري بخيوط فضيّة، وهي تستمع إلى الراديو. وفجأة دخل حسين. كان عائداً من المدرسة، ومرّ على بيت جدّته قبل الذهاب إلى بيت أهله. كانت رمزية وأختها فوزية وأمهما في بيت الجيران، فنهضت سعاد لتحضّر الطعام له. رمى صدرية المدرسة وحقيبته قرب البئر، ولحق بها. صعد على كرسي صغير، ووصل إلى رقبتها، فعانقها وهمس لها: «سعاد.. بتوعديني تتزوجيني بس أكبر؟».

رغم أنه كان طفلاً إلا أنها أحسّت بقشعريرة غامضة، ولأول مرة لم تضحك، ولم تأخذ الأمر على محمل

الدعابة واللعب. هزّت رأسها. فقبّلها حسين في عنقها، ونزل عن الكرسي.

حين عادا إلى الجلوس فوق البساط الملون، ووضعت صينية الأكل، مع أرغفة الخبز المحمّص، شاركته الطعام: فاصولياء بيضاء وبصل أخضر وفجل، ولبن رائب.

تمدّد حسين على ظهره، بعد الغداء، ودفعت سعاد الصينية جانباً لتتمدّد إلى جواره، فهمس لها: «ما بتعطيني بوسة؟».

ضحكت سعاد متفاجئة: «كأنك عم تشوف أفلام كبار، مو منيح لعمرك!».

- «عم تتمسخري عليّ؟ يعني ما بدّك تتزوجيني؟».

- «أنت صغير، يمكن بس تكبر تغيّر رأيك، لا تنسى أنا أكبر منك بعشر سنين!».

- «لا، أنا بحبّك، وما رح غيّر رأيي.. ما بدّي حدا غيرك!».

شدّت رأسه إلى صدرها، عانقته بحنان الأمهات، أو الأخوات، وقالت له: «أنت صغير يا حسين، بسّ تكبر بتقرّر».

نهضت تحمل الصينية وتدخل بها إلى المطبخ، فلحق بها ووقف في العتبة مهدّداً: «إذا غيّرتي رأيك وتزوجتِ غيري، رح أفضح كل أسرارك!».

استدارت وقالت له بلوم: «اللي بيحبّ حدا ما

بيئذيه!».

- «اللي بيحبّ حدا ما بيتركه.. إن تركتيني، بقتلك، أو بقتل حالي!».

نظرت سعاد إلى حسين الحالي، الذي قفز في غيابها إلى سن الشباب وصار رجلاً وسيماً. هو الآن في الثامنة عشرة من عمره تقريباً، وهي في الثامنة والعشرين. وكأن الحياة تعبث بها. تمنّت لو أنها وعدته في ذلك اليوم، وتمنّت لو يرفع نظره نحوها، وينظر في عينيها الآن، لكان رأى كل شيء، وتذكّر كل شيء.

الخلود

ركنت هند سيارتها، كما في كل صباح، أمام مدخل المبنى الذي تقع عيادتها في طابقه الثاني، قرب سيارة شريف.

إن لم يكن واقفاً أمام باب محله، فإنه يخرج ما إن يسمع صوت محرّك سيارتها. تلوّح له بيدها، وتستقبل ابتسامته الموحية بالفرح.

يشبه المشهد تماماً حالة بطلة رواية الخلود، وهي تلوّح بيدها بتلك الإيماءة. كان المشهد بين شريف وهند يتكرر في كل صباح، وكأنه، بحد ذاته، حالة خلود تتكرر إلى ما لا نهاية، حتى ربما بعد موتهما.

تلك التلويحة، كانت تمثّل بداية النهار لدى كل منهما، إذ لا يعتبر شريف أن نهاره بدأ ما لم يرَ هند تومئ له بيدها. أما هي، فكانت تشعر أنها تشبه ممثلة تشتغل على نصّها وملابسها في الكواليس، ويبدأ توقيت أدائها في اللحظة التي تظهر فيها على الجمهور. كانت الساعات التي تقضيها بعد استيقاظها في الاستحمام وتبديل الملابس، ثم قيادة السيارة حتى الحارة، كأنها ساعات تقضيها في الكواليس، وما إن تنزل من سيارتها وتلمح شريف، حتى يرتعش قلبها، تلك الرعشة، التي يعرفها الممثلون، كلما وقفوا على خشبة المسرح، يوماً

تلو يوم، يكرّرون العرض ذاته. وعلى الرغم من أنهم كرروا العرض آلاف المرات، فإنهم في كل مرة، يشعرون بالرجفة ذاتها في القلب، بالفرح والقلق معاً، من مواجهة الجمهور.

لم تكن هند تفهم كنه شعورها بالأمان والسلام، كلما رأته. كأن ابتسامته تلك، وحضوره المجسّد أمامها، هما مقياسا الطمأنينة الوحيدان، اللذان يشيران إلى أن كل شيء على ما يرام.

تلمع أسنانه خلف شفتيه المنفرجتين بفرح طفولي متكرّر في كل يوم، وتلمع عيناه أيضاً. هذا البريق الذي يشعّ من وجهه، يشعرها بالاحتضان. يلفّها ضوء وجهه وابتسامته، فيغلّفها بغطاء خفيف من الدفء اللذيذ. دفء يشبه أغطية الصباح التي نشدّها على أجسادنا حين تداهمنا برودة الفجر في لحظاته الأولى، وكأنها نفحات بعيدة من أرض ثلج قصيّة.

كانت تشدّ ابتسامته على جسدها، وتلفّ جسمها وروحها بتلك الغلالة الوردية من الراحة، ثم تصعد بخطوات واثقة وثابتة، مليئة بالرغبة في العطاء، ومقاسمة العالم هذا السلام.

ما مصدر هذه الطاقة التي يبثّها فيها حضوره؟ كما لو أنها وجدت شيئاً أضاعته ذات يوم، أحداً ما، تاه عنها أو تاهت عنه، ثم عثرت عليه أو عثر عليها، بعد يأس، بعد عذاب.

تشعر بالانتماء لكلّ تفصيل هنا. للحارة، لأهل شريف، له، حتى لحسين، الذي يشتغل عنده. شيء يمكنها وصفه بالعقد الاجتماعي الذي يقرّه البشر في ما بينهم دون لوح أو وثيقة ويتبادلون من خلاله الأمان. هي كلمة شرف لا أكثر، لكنها موسوعة مفتوحة ما دام الأمر متعلّقاً بالتضامن والدعم. نعم، هذه هي اللفظة ربما: الدعم.

كانت تشعر أن وجوده يحميها، تماماً كأعمدة قويّة تحمل الخيمة أو البيت ليظلّ قائماً. هي حماية نفسيّة دون شك، فهي لا تخاف من شيء مادي، بل تخاف من إحساسها الدائم بالوحدة. أما اليوم، فعائلته معها، يحسبون حسابها في كل شيء، يتفقّدونها على الطعام، وحتى أولاده متعلّقون بها، فما إن تدخل دريّة عائدة من المدرسة إلى بيت جدتها، حتى تسأل: «وين خالة هند؟»، وكذلك يفعل أدهم.

كانت تشعر أنها تنتمي لهم أكثر من انتمائها لأبويها المنشغلين باهتماماتهما. عائلة أم شريف هي عائلتها الحقيقية التي تمنحها الحب والحنان.

عناقيد الغضب

كانت تتعمّد تجاهل هند وعدم السلام عليها، حين تصادفها على الدرج. وعلى الرغم من أن هند لم تتوقف عن إلقاء التحية كلما رأت سماح، إلا أن الأخيرة لم تغيّر

تصرّفها هذا. وحين سألت زينب عنها، وعمّا إن كانت صمّاء، لأنها لا تسمعها ولا تردّ على تحيتها، استغربت وقالت لها: «لا، ما هي طرشا.. بتسمع منيح وبتحكي معي ساعات عالدرج!».

وذات يوم، كانت الدكتورة واقفة عند باب العيادة مع زينب تتحدثان، حين مرّت سماح من أمامهما، فسلّمت على زينب مخصّصة إياها بالاسم. متجاهلة بوقاحة ولؤم وجود هند، وكأنها لا تراها.

- «كيفك زينب؟ ليش ما عم تطلعي لعندنا؟ مرّي اشربي قهوة معي! أنا وأمي، منتبسط فيكِ.. بتعرفي!».

- «مانك شايفة الدكتورة؟ ليش ما سلمتِ عليها؟ شو عاملة معك؟!».

- «أنا مستعجلة.. بنحكي بعدين».

ونزلت سماح مُسرعة متجاهلة الردّ على زينب، التي ضربت كفّاً بكف، وقالت لهند متضايقة: «أكيد في شي بعقلها، لا تنزعجي دكتورة! بكرا بطلع لعندها عالبيت، وبشوف ليش هيك عم تتصرّف معك».

مرّت الأيام وكانت زينب قد نسيت فعلة سماح، لانشغالها بالعمل وبمشكلات بيتها الخاصة. إلى أن جاء يوم أتت فيه شهد، كبرى بنات سماح، باكيةً لاهثة إلى العيادة، وقالت لها: «خالة.. أمي عم تنزف.. قولي للدكتورة تطلع لعندنا!».

هرعت هند دون تردّد إلى بيت سماح التي كانت مُصابة بتليّف كبير في الرحم، وقد كانت تتجاهل نزيفها الدائم، إلى أن باغتها بقطع متخثّرة من الدماء، بدت معها وكأنها لا تفقد دمها فقط، بل كأن رحمها كله صار مهترئاً، ففقدت وعيها. ولأن أمها لم تكن في البيت، فقد خافت بناتها من أن تموت أمهنّ، وركضت أكبرهنّ إلى الدكتورة لتأتي بها.

بعد أن أعطتها بعض الأدوية لإيقاف النزيف مؤقتاً، أخبرتها أنه ما من حلّ لعلاج الأمر نهائياً إلا استئصال الرحم.

بعد أن هدأ الجوّ قليلاً وزال الخوف، جلست الدكتورة تشرب القهوة مع سماح، فحكت الأخيرة ما في قلبها. قالت إنها مدينة منذ هذه اللحظة لهند. وهي لم تعرف أن ابنتها شهد ستنزل لطلب مساعدتها، ولو كانت في وعيها وعرفت لما تركتها تفعل. لكن مجيئها إلى بيتها ومساعدتها، رغم الخصومة بينهما، أثبتت أصالة معدنها.

ثم، بعد صمت قصير، أضافت إنها لا تكرهها. كل ما في الأمر أنها لا تحبّ نموذجها. فهي تشعر أن الدكتورة تتعامل مع الحارة كأنها عيّنة مَرَضية. ترى كل الناس هنا كمرضى، وتلهو بهم وبأوجاعهم كما يلهو الصغار بالدمى. ماذا تعرف عن حياة الناس في هذه الحارة ومعاناتهم، وبخاصة النساء منهن؟

تركت هند الفرصة لسماح أن تُخرج كل ما في قلبها. لم تقاطعها أبدا، وكانت تهزّ رأسها بين فينة وأخرى كي تحفزها على متابعة الكلام.

سألتها عمّا إن كانت تعرف أنها محامية، ثم أجابت وحدها: طبعا لا. والسبب أن الدكتورة تظنّها امرأة بسيطة مسكينة تعيش في حارة تحقق لها المتعة البصرية، كما كانت تقول لوالدها عبر الهاتف، حين كانت تقنعه بزيارتها.

كانت سماح قد سمعت ذات مرة، بينما هي واقفة على الشرفة، هذا الحديث. جاءها صوت هند السعيد بعاهاتهم، وهي تصف لأبيها المشاهد المدهشة: بائعة الحليب، كما في الأفلام العربية القديمة، والصبيان الذين يشتغلون على البسطات، يبيعون الخضار الطازجة التي يأتون بها مع أمهاتهم من الأرياف.

كانت تحكي بألم كيف أن الدكتورة تشعر بالدهشة من مصدر آلامهم. وهي محامية لا تستطيع ممارسة مهنتها، لأن عائلتها وعائلة زوجها تتحكّمان بها، بعد وفاته. هي مجرد أرملة في نظر العائلتين، وعليها البقاء في البيت لتربية الأولاد. هذه الحارة التي تسبب المتعة لهند حين تدخلها فتشعر بالدفء، هي نفسها الحارة التي تقتل أحلام سماح وشخصيتها. وحتى قرار الخروج من هذا المكان لا تستطيع اتخاذه بمفردها في بلاد كهذه. البلاد المقسومة إلى نصفين، وهي تنتمي إلى النصف

البسيط الفقير، الذي يسمّيه النصف الأول: الشعبي، أو البلدي، أو «السوفاج»، الكلمة الفرنسية التي ربما لا يجيد من يستخدمها شيئاً من الفرنسية إلا: «بونجور»، «بونسوار»، و«سوفاج». على عكسها هي التي درست اللغة الفرنسية في المدرسة والجامعة، لكنها تعيش مع النصف الشعبي، الذي تحكمه عادات وتقاليد صارمة وقاسية، تسنّ له القوانين وتحدّد له الحركة والمظهر. نصفٌ يمكن القول إنه يعيش وفق أعراف وشرائع ذات خصوصية بعيدة عن قوانين المحاكم التي تسنّ وتشرّع للنصف الآخر الثريّ والمترف الذي تعيش فيه نساء مثل الدكتورة، نساء يتمتعن بحرية الحركة التي تبيح لهن التنقّل والعمل وحتى السكن بمفردهن.

كانت هند صامتة، تستمع بتأثّر للمرأة التي وجدت أخيراً فرصة للتعبير عن غضبها.

- «أنت مثلاً.. بتروحي بآخر النهار على حيّك الفاخر.. وبأي لحظة بتتعرضي لموقف ما بيعجبك هون بتقدري تركلي كل هالحارة وبترجعي لهنيك. هنيك تبعك بيحميك، ولأنك منه، قوانين حارتنا القاسية على امرأة متلي ما بتنطبق عليك!».

قالت سماح هذا، ثم كرّرت أنها محامية، للمرة الثالثة، وأضافت إنها درست وتخرجت في الجامعة، بمساندة والدها، وعملها هي، إذ كانت تشتغل لتأمين مصاريفها، محاولةً التوفيق بين دراستها وعملها في حضانة

خاصة. أما الآن، بعد زواجها وإنجابها وموت رجلها، فإنها تجد نفسها أرملة، لا تملك إمكانية الدفاع عن بناتها كي يتابعن تعليمهن. وهذا كله لأن أباهنّ مات، وهي غير واثقة ما إن كان ابنها، الذي ورث عقلية أعمامه الصعبة والمتعنتة، سيقف إلى جانب أخواته أم سيقف ضدهنّ. كانت تشعر أنها مع بناتها يقفن وحدهن مقابل أحكام العائلة والحارة. لم تأتِ لتعيش قرب أهلها بخاطرها، بل للتخفيف من تدخّلات أهل زوجها في حياة أولادها.

هذا هو الحي الممتع الذي تأتي إليه الدكتورة كزائرة، كسائحة. تأخذ منه ما يُسعدها، ثم تتركه آخر النهار مقابل بيت فاخر، قصر بخدم وحشم. لهذا كانت سماح تقف في الطرف الآخر منها، وترفض حتى إلقاء التحية عليها، لأنها ليست مثلهم. وفوق ذلك، فإنها تلهو ببؤسهم.

- «أنا غاضبة منك يا دكتورة.. منك ومن اللي متلك من النساء المترفات اللي بيشوفونا من بعيد، وبيعتقدوا إنه بيمدّولنا حبال الخلاص بالفتات النفسي اللي بيرمولنا ياه!».

قالت هذا، ثم طلبت منها إن كانت جادّة، وتنتمي فعلاً إلى هذا الحيّ، كما كانت تخبر والدها، أن تترك بيتها وتأتي لتقيم هنا طيلة الوقت. فلتعِش بينهم، وتسمع صوت الحيّ السرّيّ في الليل. لتتحرّى معنى القسوة والعذاب عن كثب. لتستمع إلى بكاء النساء

المكتوم بعد أن يضربهن الرجال، أو بعد أن يضاجعوهن رغماً عنهن. لتستمتع إلى استغاثاتهن التي لا تجد من ينصرها. حتى الشرطة تقف في صف الرجل الذي يضرب زوجته وبناته، لأن الشرطي أيضاً يفعل الشيء نفسه. ولماذا؟ كل هذا تحت مسمى: التقويم والتهذيب والإصلاح. أليست هذه الكلمات الثلاث هي المنوط بها عمل الشرطة في السجون؟ وما هو الحيّ؟ سجنٌ وسجّانون. نصف الناس فيه مساجين والنصف الآخر سجّانون.

- «أنتِ عايشة بكوكب تاني بعيد. ما بتقدري تفهمي اللي عم احكيه. هاد مثال صغير. وفي كتير أمثلة عن العنف والخوف اللي منعيشو هون. مو بس النساء، حتى الرجال.. بهيك بيئة صوت البلطجة والتشبيح، بيعلى على أي صوت.. وبيصير القانون بيبيح للقوي قهر الضعيف!».

البؤساء

حضّرت شهد ركوة قهوة جديدة، من تلقاء نفسها، إذ كانت مستمتعة بالحديث بين أمها وهند. كانت معجبة بنموذج الدكتورة النادر في هذا الحي، أو في الحي الذي عاشت فيه، حين كان أبوها على قيد الحياة. فهي تحلم أن تصبح امرأة ذات قيمة، مستقلّة، تقود سيارتها مثل الرجال، تشتغل وتكسب المال، لكنها تخاف من انكسار

أمها وإحباطها.

ارتشفت هند رشفة قهوة، وابتسمت لشهد قائلة: «تسلم إيدك.. قهوتك طيّبة يا حبيبتي!».

كانت قد انتظرت سماح لتنهي كل ما تريد قوله، وحين سكتت بدأت هي الكلام. قالت لها إنها تقسو عليها وتعاقبها لأنها ولدت في بيئة مختلفة، رغم أنها لم تخترها، كما لم تختر سماح بيئتها الفقيرة. جاءت إلى هنا بقدمها وقلبها، وهي تعرف أن هناك الكثير من البؤس.

لم تنكر أنها تشعر بالدهشة هنا، واعتبرت هذا حقاً لها، خاصة أنه لا يضرّ أحداً في شيء أنها تستمتع بمشهد بائعة الحليب، والأولاد، ورائحة الفول الساخن، وزحمة الناس والرجال في الحارة. ثم سألتها، بما أنها محامية وتفهم في القانون، هل في هذا أي جرم؟ هل ترتكب خطيئة إن شعرت بكل هذا لأنها تفتقد للحياة الحميمية؟

كانت هند تشعر أن هذه هي الحياة الحميمية والدافئة، وكانت تغبط الناس عليها دون أن تحسدهم. هي أيضاً لديها متاعبها ومشاكلها التي لا يعرفها أحد. ولأن سماح لا تعرفها فإنها تحاكمها محاكمة غير عادلة، ودون اطلاع على تفاصيل القضية. صحيح أنها تترك الحارة في آخر النهار، لكنها تذهب لتعيش وحدها، بينما سماح أو غيرها من الناس هنا يعيشون مع أولادهم،

ومع أهاليهم، يأكلون معهم، يتحدثون إليهم حين يشعرون بالضيق. أما هي فليس لديها من تحكي له. وهذا يجعلها تشعر طوال الوقت أنها ليست مستقرّة من الداخل. هي وحيدة، وهذا لا يمكن لسماح أن تفهمه لأنها محاطة بعائلة بشكل دائم.

وقبل أن تترك للمرأة أي فرصة لقول شيء، طلبت منها ألا تعتبر معاناتها هذه ترفا. فليس من حقّ أيّ كان أن يقارن بين أشكال المعاناة ويقرّر أيّ شكل هو الأشد، فليس للمعاناة ميزان دقيق. هي تعرف أن الناس هنا بؤساء، فقراء، تحكمهم العادات القديمة ويفتقرون إلى الحريات، ولكن كان بإمكانها العمل في حيّ مترف، وعيش حريتها، ومتابعة حياتها هناك. لكنها جاءت إلى هنا، لا بحثا عن الدهشة فحسب، بل لأنها أيضا ترغب، بصدق، بتقديم شيء ما. تشعر بأن مكانها هنا، لمساعدة النساء، ابنة سماح مثلا، وغيرها، سيجدن وجودها هنا منفذاً للتنفّس وفكرة قد تؤدي إلى تغيير ما وخلخلة في الجدار الثابت المتين. قد يحدث هذا حين يرى أهل الحي امرأة تخرج وتدخل بحرية، وتستمتع باستقلالها، لأنها درست وتعبت على نفسها. قد يحرّض هذا على تقليد هذا النموذج، بل ويشجّع على قبوله.

- «أنت ما بتعرفي كم امرأة خبّرتني عن رغبتها أنو تدرس واحدة من بناتها بكلية الطب لتصير دكتورة، بالوقت اللي كانت كل أحلامهن قبل بتوقف عند بلوغ

البنت منشان يزوّجوها.. اعتبري وجودي هون رسالة...».

عند هذه النقطة، قاطعت سماح الدكتورة، وراحت تصرخ مرتجفة: «يا إلهي.. شو هالغرور! مين مفكرة حالك؟ شي نجمة مشهورة؟ أو نبيّة وما حدا بيعرف؟!».

ثم نظرت إلى ابنتها، وأكملت بسخرية: «شايفة يا شهد.. نحن في حضرة نبيّة! ويمكن تكون من سلالة الملائكة!».

بدت الصغيرة محرجة، ولم تقل شيئاً. وفيما كانت سماح تهمّ بإكمال حديثها، قاطعتها هند بهدوء يشوبه شرّ مفاجئ. وكأنها اكتشفت فجأة الشر الكامن في داخلها. اكتشفت أن للأظافر مقدرة على الخربشة، وأن للّسان فعل السوط.

- «لا، أنا مو نبيّة ولا ملاك. أنا دكتورة. دكتورة يعني هاد شغلي. وما دام هيك شغلي، فأنا بعيش منه. معك حق، ليش لازم نكون ملائكة؟ شو خصّني إذا بناتك كمّلوا دراسة أو تزوجوا؟ شو دخلني إذا فلانة ضربها زوجها؟ أو تعرّضت شي وحدة للتحرش؟ مين أنا لأحشر حالي بقصصكم وعاداتكم؟».

حاولت السماح التعليق، لكن هند تابعت كلامها دون أن تعطيها الفرصة لذلك. قالت إن كثيراً من النساء لا يدفعن لها أجرة المعاينة بسبب فقرهن، مع أنه من

المفترض أن يدفعن لها سلفاً قبل الكشف عليهن. وكانت في السابق لا تعير هذا أي أهمية، لكنها منذ هذه اللحظة ستتغيّر. لن تستمر الجمعية الخيرية. وأول من ستبدأ تغيير معاملتها معها هي حضرة المحامية، سماح.

- «من فضلك، ممكن تدفعي لي أجرتي؟ المعاينة وحقّ الدوا. وكمان سعر الكشفية بالبيت بيختلف عن تسعيرة العيادة!».

كانت تنظر في وجهها وهي تتكلم، أحبّت رؤيته وهو يمتقع ويبدو عليه الارتباك، مع أنها لم تكن جادة في طلب أجرة المعاينة، لكنها أرادت اختبار قدرتها على إبداء ردّ فعل لئيم تجاه فعل أكثر لؤما. ويبدو بأنها نجحت في الوصول إلى مبتغاها، إذ بدا العجز ظاهرا على وجه سماح، التي صمتت مرتبكة، ثم قالت بصوت واهن مخنوق، مختلف عن الصوت الذي كان يصرخ قبل لحظات، كأنها استعارت صوتا آخر مقموعا وضعيفا: «طبعا هاد حقك، بسّ الطب مهنة إنسانية، فوق المال!».

قلبت الدكتورة شفتها.

- «إنسانية صحيح، بسّ مو مجانيّة!».

فأجابت سماح بضعف: «أنا ما معي أدفعلك، ممكن أدفع بعدين؟».

لم تجب هند، إذ إنها في تلك اللحظة التفتت ورأت

شهد مضطربة وتكاد تبكي. هذا المشهد سحب منها قدرتها المفاجئة على ممارسة الشرّ وأعاد إليها نقطة ضعفها الأزلية: الأطفال. شعرت أنها تمادت في الكلام أمام الصغيرة، فلامت نفسها، ثم اقتربت من شهد، قبّلتها، وقالت لها: «آسفة يا قلبي!».

بعد ذلك أخذت حقيبتها ومشت باتجاه الباب، وقبل أن تخرج قالت لسماح: «ما بدّي منّك شي. بس لازم تعرفي إني بحبّ هالحارة، بحبّ ناسها، بحبّ كل التفاصيل الموجودة هون، وأنا مؤمنة إنو وجودي بهالحارة، مفيد لأهلها وخاصة لنسائها. أنا كإنسانة حابّة أعمل شي للناس اللي هون، وأكيد مو شايفة حالي لا ملاك ولا نبيّة!».

غادرت هند بيت سماح، وكانت تدرك في داخلها أن هذه المرأة لن تقبلها أبداً، وستظل تشعر بالنفور منها دائماً، وستظل تعتقد أن الدكتورة امرأة خاوية من الداخل، مغرورة ومتعالية وتتحرّك بدافع إثبات الذات فحسب، دون أن تعرف مشاكل الناس بعمق.

الحياة الجديدة

تغيّرت أشياء كثيرة في الحارة منذ افتتحت عيادة الدكتورة هند للأمراض النسائية. وكأن أغلب الناس دخلوا طوراً جديداً ومختلفاً من الحياة.

كان شريف يشعر بحيوية وطاقة تضخّان في روحه،

دون أن يستطيع تحديد الأسباب الحقيقية وراء ذلك الشعور بالفرح والأمان. ربما إحساسه بالشراكة، وبأنه يستطيع الاعتماد على هند في تدبير أمور عائلته إذا جرى له مكروه. لا يدري لماذا يفكر دائماً بهذه الطريقة، وكأن حياته ستنتهي في يوم قريب!

إضافة إلى شعوره ذاك بالأمان، فقد تسربت سعادات صغيرة إلى حياته، ونشأت عادات جديدة لم تكن في الحسبان. صار مثلاً، يصحب ابنته دريّة، من وقت إلى آخر، إلى المكتبات، لتقتني الكتب العلمية والروايات التي تحب. وتلك عادة نادرة أو شبه معدومة في العائلة. إذ لم يعتد أحد أفراد العائلة شراء الكتب، وخاصة البنات.

حياة مديحة تغيرت أيضاً، ولكن نحو الأسوأ، كما كانت تظن. إذ راحت تراقب بقلق، انفلات خيوط اللعبة من يديها. لم تعد دريّة تلك الدمية التي كانت تحرّك مستقبلها كما تريد هي، محاولة تأمين زواج لائق ومريح يُدخل ابنتها، ويُدخلها هي، إلى المجتمعات الفاخرة.

كانت دريّة قد بدأت تكتسب ملامح الأنثى، وبدت أنوثتها طاغية، بجمال مختلف عن جمال عفاتها الثلاث، اللواتي أخذن، كل منهن بقسط، من أبيهن: السمرة، العيون البنية، الشعر الكستنائي... أما الصغيرة، فراحت تشبه جدّتها في صباها، يوماً تلو الآخر، اتضحت ملامحها، وبدأ جسمها يتكوّر، وبدأ ثدياها يكبران.

خلال سنة واحدة، خرج جسدها من ثياب الصغير، وكأنه كان مختبئا في شرنقة ثم تحرّر منها خارجا إلى الشمس والهواء، فغدت تلك الفتاة الصغيرة، أجمل بنت في العائلة.

كانت مديحة تتحسّر أن يُهدر هذا الصبا والجمال، على مذبح العلم والقراءة، وكانت تناقش ابنتها طويلاً بذلك، لكن الأخيرة كانت تتمسّك بآرائها، مدعومة بحماية أبيها ورعايته، مستشهدة بالدكتورة التي غيّرت حياة نساء الحارة المسكينات، كأنها ساحرة. كانت تقول لأمها إن هند تمشي في الحارة كملكة، والكل يحبّها ويحترمها، لا لأنها ثريّة، بل لأنها متعلمة. ثم تضيف أنه بالعلم وحده تستطيع المرأة حماية نفسها وصناعة مستقبلها، لا بالاتكال على الزوج.

- «رح أحقق أحلامي بالأول، بعدين بختار شريك حياتي. بدون ما أكون بحاجة لرجل أعتمد عليه».

في كل مرة تناقش فيها ابنتها، تكاد تفقد صوابها من المنطق الجديد على العائلة، ومن طول لسان الصغيرة. لذلك حاولت تثبيط همتها، بالسخرية منها، ومن اعتقادها بأن الحياة تسير كما في الكتب التي تفسد لها عقلها. وذكّرتها بأنها أمها وصاحبة القرار النهائي في ما يخص حياة ابنتها، ولذلك هي ترى مصلحتها بتزويجها في أقرب فرصة. ثم أضافت محاولة إنهاء الحديث: «أنت ابنتي أنا، مو بنت الدكتورة، فيقي من أحلامك!».

أحسّت دريّة بالقهر، فعلا صوتها، وكادت تبكي وهي ترد على سخرية أمها: «أنتِ ليش هيك بتحكي معي؟ كأنك مو أمي، كأنك مرت أبي! معقول بتكرهي الدكتورة لدرجة بذك تقضي على مستقبلي حتى ما يكون لكلامها تأثير على حياتي؟!».

لم تتمالك مديحة نفسها حين سمعت هذا الكلام. ضربت دريّة بالملعقة التي كانت بيدها في المطبخ، فتدفق الدم من فم الصبية. هدّدتها بأن تفرك فمها ولسانها بالفلفل الحار، إن أخبرت والدها بما حدث: «إذا سألك بتقولي إنك وقعتِ، فهمانة؟ أنت بنتي ومن حقّي أعلمك الأدب!».

منذ ذلك اليوم صارت تتجنّب أمها، مندهشة من حجم الغضب الذي يعتريها لأن ابنتها تحاول الخروج عن الطوق الذي تحاول هي خنقها فيه.

لم تكن دريّة هي الشخص الوحيد الذي دخل الضوء إلى حياته، وتسرّب إلى قلبه وعقله، بل تأثّرت بهند أيضاً العديدات من النساء، وحتى بعض الصبيان في الحارة.

لا تعرف كيف وقع هذا تدريجياً، فوجدت نفسها وقد أصبحت مستشارة اجتماعية في الحارة، إذ صارت النساء يدعونها في جلسات بينهن، لتناول الطعام والثرثرة، والحديث عن مشاكلهن، والاستماع لنصائحها. تعلّقن بها، كأنها المنقذ لهن. وصارت البنات يلجأن إليها، لإقناع أهاليهن بمتابعة التعليم، بل وأصبح الصبيان

أيضاً، ينتظرون زيارتها لبيوتهم، حتى يفتحوا حوارات بوجود الأمهات، عن ضرورة حرية اختيار الشريك، والخروج على عادة الزواج القسري، التي كان الشباب يعانون منها، حين تصرّ أمهاتهم على تزويجهم من بنات العائلة.

فكّرت هند أن حلم العجلة قد تحقّق، حتى وإن رأته ككابوس. حلّلت الحلم مجدداً، واكتشفت أن دهس رأس مديحة، هو حالة رمزية، لدهس العادات السيئة في السيطرة على مصير الأولاد، في الحيّ. كان رأس مديحة، في المنام، رمزاً للرأس المتيبّس، العنيد، المتسلّط.

الآن تستطيع القول إنها ردّت الجميل لزلوخ. ها هي ذي تسير بين نساء حارتها وتعتني بهن. كانت تشعر بالامتنان الكبير لها، فهي من أضاءت لها للمجيء إلى هذا المكان، الذي لولاه لما تعرفت على كل هذه الطاقة الإنسانية الهائلة الموجودة في الناس، ولما شعرت بالفرح وهي ترى كل ذلك الحب في عيون الآخرين تجاهها.

لم يكن الأمر خالياً من المنغصات طبعاً، إذ كان هناك أشخاص كرهوها، رافضين تدخلاتها في حيوات عائلاتهم، وإساءتها لعاداتهم، وتخريبها لبعض مشاريع الزيجات المرتّبة وكأنها صفقات تجارية، لكن كل ذلك لم يتحوّل إلى فعل إيذاء مادي، إذ كان شريف دائماً، ومعه

بعض رجال الحارة الذين يحترمونها، يقفون في ظهرها، ويحمونها من أيّ ضرر أو اعتداء.

حتى عماد ذاته، الذي حاول إهانتها في الأيام الأولى لعملها في الحارة، تحوّل إلى ملاك يحميها، ويكاد يقبّل الأرض تحت قدميها، وهو يقول لها: «معروفك على راسي دكتورة، لما بعد أولاد أولادي».

أجمل نساء المدينة

تزوج عماد من جورجيت، بعد قصة حبّ معقّدة. كان يعمل في مخبز والدها، أبو طوني، حين رآها وتعلّق بها. وبسبب اختلاف الديانة بينهما، رفض أهل الفتاة تزويجها لمسلم، كما رفض أهله التعرّف إلى عائلتها وإقناعهم بالموافقة على الزواج.

كان رفض والديه قد عقّد الموضوع أكثر، وقد آمن عماد، بأن أباها كان يرفض، على الأخص، لأن عائلة عماد ترفض هذا الزواج، وأنه لو كان أهله في صفّه، لاطمأنّ أبو طوني، وزوّجه ابنته.

كانت جورجيت تبدو أجمل بنت في حيّ العزيزية، بل أجمل بنات المدينة على الإطلاق. وبعد غرام طويل، وافقت على الذهاب مع حبيبها خطيفة، والزواج منه رغم معارضة أهل الطرفين.

عاش الاثنان بسعادة غامرة، لولا أن «الحلو لا يكتمل»، كما تقول الأمثال الشعبية، إذ نغّص على

الزوجين، عدم إنجاب جورجيت، بعد مضي أكثر من ثلاث سنوات على الزواج.

كان تذمّر أهل عماد قوياً، وأما إلحاح أمه وأخواته بضرورة الزواج من امرأة أخرى، بقصد الإنجاب، فكان حديث الصباح والمساء في العائلة، إلى أن أذعن أخيراً لرغبة أهله وتزوج.

حزنت جورجيت وندمت على مغامرتها وتضحيتها بأهلها، كرمى لرجل سرعان ما تخلّى عنها وتزوج عليها، فتركت البيت وطلبت الطلاق. وقفت عائلتها إلى جانبها، وسامحتها، باعتبارها عادت إلى رشدها. قال أبوها إن المسلمين يطلّقون زوجاتهم، وهذا كان أحد أسباب رفضه للرجل.

أما عماد فقد صار دائم الغضب والتوتر، لأنه تزوج رغماً عنه، وكان قلبه لا يزال متعلقاً بجورجيت، التي لن يسامح نفسه يوماً على خسارتها.

بعد مضي ستة أشهر على زواجه الجديد، لم تحمل رقيّة، الزوجة الجديدة، أيضاً. فما كان من أمه إلا أن اقترحت أن يختار امراة أخرى ويخطبها.

لكنه بدلاً من ذلك، ذهب ليرى الطبيبة هند.

فوجئت الدكتورة به على درج الطابق الأول، بينما هي تدخل العمارة، وشعرت ببعض الخوف، حين تذكّرت كيف أهانه شريف من أجلها قبل فترة. اعتقدت أنه

سيؤذيها بصمت، دون أن يتمكّن أحد من رؤيته ونجدتها.

- «شو بذك؟».

قالت له بصوت متماسك، رغم رجفة الخوف في قلبها وجسدها.

- «أرجوك يا دكتورة.. أنا بحاجة إلك، أبوس إيدك أنه هالشي يبقى بيناتنا، حتى الممرضة ما تخبريها، إذا عرفت بتفضحني!».

- «تعال معي على العيادة، وخلّينا نحكي!».

حكى لها قصته مع جورجيت، ثم مع رقيّة. وطلب منها أن تفحصه.

بعد كشوف وتحاليل، تبيّن لهند أن العيب منه، لضعف حيواناته المنوية، فقرّرت مساعدته. وبعد فترة استعاد عماد قدرته على التلقيح، وحملت رقيّة، لكنّ فرحته بقيت ناقصة.

ذهب إلى جورجيت وشرح لها الوضع، وأمام ندمه وعبارات الحب والشوق التي قالها لها، قبلت مجدداً بالعودة إليه، رغم زواجه عليها، فهي تعلم أنه لو تزوج عشرين امرأة بعدها، يبقى قلبه ملكها وحدها.

هذه المرة، عادت إليه برضا والدها، فقد ذهبت والدة عماد وأخواته، وتوسلن إلى أبي طوني، ليعيد كنّتهم إلى أحضان زوجها. إذ بعد أن أخبر عماد أمه بعيبه، وبأنه

عولج وأصبح قادراً على الإنجاب، شعرت بالندم، ووافقت على الذهاب إلى بيت أهل جورجيت وترجيهم كي تعود. ولم يكن أمام أبو طوني من حل، سوى الموافقة، فلن يقبل أيّ واحد من أبناء ديانتها الزواج بامرأة مطلّقة من رجل مسلم. وكانت سعادة ابنته ومصلحتها هما ما يعنيه في نهاية المطاف.

بعد شهر واحد فقط، حملت جورجيت أيضاً، وصار عماد ينتظر طفلين، يفصل بينهما شهر واحد.

لوليتا

تحوّلت البناية التي توجد فيها عيادة الدكتورة، إلى جغرافيا نسائية إلى حد كبير. فقد أقنعت هند إحدى خريجات معهد التحاليل الطبية، بأن تأتي وتفتح مخبراً للتحاليل، في الشقة المقابلة لعيادتها. إذ إن ذلك يوفّر على النساء، وخاصة الفقيرات، مشاقّ التنقّل للذهاب إلى مخبر تحليل بعيد عن الحارة.

أما في الطابق الأول، الذي لا تزال هند تتخيّل بيت زلوخ مكانه، فتعيش سمية مع أمها. كانت الشابة تعمل في صالون تجميل في العزيزية، ولكن بعد طلاقها وعودتها للسكن في الحارة، صارت تلاحظ نظرات الناس المزعجة في أثناء خروجها وعودتها، فقرّرت، كي تضع حداً لهذه النظرات، أن تخصّص إحدى غرف بيت أمها، لتعمل فيها. وضعت لافتة من الكرتون، فوق شرفتها،

تحت لافتة الدكتورة، كتبت عليها: صالون لوليتا لتجميل السيدات.

بينما ظلّت الشقة المقابلة لبيت والدة سمية، فارغة، فقد اشتراها المهندس زياد، الذي يعمل في الكويت، وتركها لحين عودته في العطل، لأن زوجته تودّ الإقامة في بيت منفصل عن أهله، حين يأتون في عطلة.

الطابق الثالث، فيه شقّتان أيضاً. كانت إحداهما لأبي إسماعيل، صاحب محل الأدوات المنزلية في الحارة الخلفية، ويعيش فيها مع زوجته. والشقة الأخرى كانت قد اشترتها سماح، ابنته، بعد موت زوجها، لتكون قريبة من أهلها، كي يساعدوها في تربية الأولاد، وخاصة ابنها البكر إسماعيل، الذي يحمل اسم أبيها، وكان صعب المراس.

يغادر أبو إسماعيل صباحاً مع حفيده إلى العمل، تاركاً زوجته وابنته وحفيداته الثلاث، ولا يعود إلا في المساء.

إذاً، كان الموجودون في البناية نهاراً كلهم من النساء. وقد سهّل ذلك للكثيرات من الراغبات في المعالجة بشكل سريّ، أن يدخلن إلى البناية بذريعة زيارة صالون التجميل، ثم التسلّل صاعدات إلى عيادة الدكتورة.

بدأ هذا مع الشابة تماضر، التي كانت تعاني آلاماً

مبرحة أثناء الجماع، وكانت تبكي من الألم، وتعاني أحياناً من النزيف. لكن زوجها كان يرفض أن تذهب زوجته إلى الطبيب. وحين رجته أن يسمح لها بمراجعة الدكتورة هند، أقسم بالطلاق، على ألا تدوس قدمها العيادة.

كانت تماضر تشكو همّها لصديقتها سميّة، في صالون لوليتا، حين زارتها لتقلّم حاجبيها. فما كان من الأخيرة إلا أن قالت: «إذا هو حلف عليكي ما تدوسي العيادة، ممكن الدكتورة تجي لعندك، شو رأيك؟!».

لم تكن سمية متأكدة أن الدكتورة هند ستقبل بمعاينة تماضر في صالون التجميل، لكنها تشجعت وصعدت إليها شارحة الموقف، فوافقت الأخيرة دون تردّد.

وهكذا صارت النساء الفحرجات من الذهاب علناً إلى عيادة الطبيبة النسائية، يستعملن صالون التجميل سبباً للدخول إلى البناية، وزيارة الدكتورة فتتغيّر حيواتهن، ويتخلّصن من الآلام والأوهام.

همست سميّة مثلاً، وهي تصبغ شعر العروس صفاء، وتستمع إلى مخاوفها عن ليلة الزفاف: «احكي مع الدكتورة، هي حبابة وبتفهم، رح تشرحلك كل شي بالتفصيل، هيك بتطمئني وبتبطّلي تخافي!».

وفعلاً، تسلّلت صفاء، بالصبغة على رأسها، إلى الطابق

العلوي، فاستقبلتها هند وسمعت منها، ثم شرحت لها بطريقة علمية تفاصيل الليلة الأولى.

الاستحواذ

سمعت أصوات شجار، ففتحت الباب ورأت زينب تدفع رجلاً، وهي تصيح به: «انقلع من هون.. انقلع، الله لا يوفقك!».

- «شو عم يصير هون؟»، سألت بهدوء، فتملّص الرجل من بين يديّ زينب وتوجّه إلى هند مقدّماً نفسه: «أكيد حضرتك الدكتورة؟ أنا زوج زينب!».

- «وشو بتريد؟».

راح يحكي لها عن معاملة زينب السيئة له، وعن اضطهادها للزوج الذي ظلمته الحياة بعدما لم يجد عملاً ينفق عليها منه، فلم تكتفِ ببخلها عليه في المال، بل هجرته في الفراش أيضاً. وأنهى مظلوميته المُفتعلة بالقول: «أنت إنسانة محترمة يا دكتورة، أرجوكِ عطيني سلفة من راتب زينب!».

فقاطعته زينب غاضبة: «حتى تشتري الخمر وتسكر!».

ثم وهي تسحب ممدوح، وتحاول إخراجه من العيادة، قالت موجهةً كلامها لهند: «بترجاكِ ما تواخذيني يا دكتورة.. هاد سكران!».

- «اخرسي.. أنا مو سكران، أنا في كامل وعيي،

اسكتي أحسن ما أفضحك!».

احتارت هند أمام المشهد الذي جمّدها وشلّ تفكيرها. لقد سمعت قليلاً عن ممدوح، حين حدثتها زينب سريعاً عن زوجها الكحولي، الذي يصبح شرساً ويضربها حين يسكر.

احتدم الشجار سريعاً بينهما، وشتمها بألفاظ نابية. احمرّ وجه الدكتورة خجلاً من تلك الكلمات السوقية، وصرخت به: «هاد مكان محترم، وعيب يطلع منك هالكلام، اطلع من هون بسرعة، أو بطلب الشرطة!».

دفع ممدوح زوجته بقوة، ففقدت توازنها وكادت تسقط على الأرض، لولا أنها استندت على الجدار. توجّه صوب هند. كانت رائحة الكحول قوية. حاولت سدّ أنفها متقززة، فقال لها وهو يحاول الالتصاق بها: «ريحتي بتقرّف يا دكتورة؟ بس أعضاء[10] النسوان اللي بتحطّي راسك فيهن كل النهار ما بتقرّف؟ شو رأيك أطالع عضوي، حتى ما تقرفي من ريحتي؟!».

- «الله لا يوفقك.. الله يفضحك.. الله يهدك!».

كانت زينب تدعو عليه وتبكي من الخجل. وبغتة، فتحت النافذة المطلّة على الساحة وصرخت بصوت عالٍ، خشية أن يتعرّض زوجها السكّير للدكتورة بأذىً جسديّ: «يا جيران.. ساعدوني!».

قفز شريف ما إن سمع صوت الاستغاثة. وحين دخل

العيادة ورأى ممدوح، فهم القصة على الفور، فسحبه من ياقة قميصه: «تعال لهون يا وسخ، ريحتك مثل الزبالة، تفو عليك!».

- «وريحتك أنت والدكتورة ملأت الحارة! أو مفكّر إنو الناس مو شايفتكم؟!».

امتقع وجه هند وأحسّت بالخوف. رأت الشرّ في عينَي شريف، الذي لم يتأخر عن توجيه لكمة قوية إلى فك الرجل. سال الدم من فمه، وبدأ بالصراخ مهتاجاً: «أنا بفرجيكم يا عرصات.. والله لأفضح عرضكم واحد واحد، الدكتورة الواطية مصاحبة الحذاد الواطي!».

ثم ركض هارباً قبل أن يمسك به شريف مجدداً ويتابع ضربه.

في الحارة رأى زوج نجلاء، يغادر بيت أهل زوجته، مشجهاً صوب سيارته، فناداه بصوت مرتفع: «عبد المنعم.. وقّف لحظة!».

توقف الأخير، ونظر حوله مستغرباً أن يعرف الرجل اسمه: «خير.. مين أنت؟ وشو بتريد؟ كيف بتعرف اسمي؟».

تابع ممدوح تشكّيه بطريقة استعراضية، متخذاً دور الضحية، وراح يبتزّ مشاعر عبد المنعم، وهو يُعلي من شأنه ومن حُسن سمعة أهل زوجته، حماته دريّة التي تحترمها الحارة، وبناتها الشريفات، ويقول له: «كيف

بتقبل هيك وحدة تدخل بيت حماك؟ ابن حماك مصاحب الدكتورة، وضربني لأني شريف وما بقبل شوف الدناءة وأسكت!».

- «شو هالحكي؟ الدكتورة مصاحبة ابن حماي؟!».

- «إيه والله، وفوق كل شي، عيادتها صايرة وكر لإجهاض البنات اللي بيحبلوا بالغلط، يعني الله يستر على حريمنا، البنات الوسخات!».

- «أنت مجنون!».

- «لا.. أنا ممدوح، زوج زينب اللي بتشتغل مع الدكتورة وبتعرف كل أسرار اللي عم بيصير فوق».

طار صواب عبد المنعم، وصعد إلى بيت حماته، وهو يرتجف من الغضب، وقال لنجلاء، بأنه يمنعها من لقاء هذه المرأة السيئة السمعة، التي تخالف الدين والأخلاق والقانون، لكنّ أمّ شريف تدخّلت وراحت تتحدّث مع صهرها بصوت هادئ، لتوضّح له أنها تعرف الدكتورة، وأنها امرأة محترمة، لكن هذا السكّير، زوج زينب، يحاول فقط تشويه سمعة الدكتورة، نكاية بزوجته، لأنها لا تعطيه المال لشراء الخمر.

اشتدّ الجدال في بيت أم شريف، وأقسم عبد المنعم، مهدّداً بالطلاق، على ألا تدخل هذه المرأة بيت حماته، فقالت له دريّة، بأن هذا البيت لها، وهي وحدها التي تقرر من يدخله ومن لا يُسمح له بالدخول.

فردّ ممدوح بتحدٍّ: «إمّا أنا ونجلاء، وإما الدكتورة!».

- «البيت للدكتورة والعتبة لي!».

نظرت نجلاء إلى أمها متوسّلة منها عدم تصعيد الموضوع، لكن عبد المنعم صرخ بزوجته ليغادرا، وأقسم على أن تكون طالقاً، إذا وطئت أرض هذا البيت دون إذنه.

قال وهو يسحب زوجته من ذراعها ويغادر: «نحن ما مندخل بيت بتدخله امرأة نجسة!».

لم يتخيّل ممدوح أن تتحوّل هذياناته تلك في لحظة الثمالة، إلى تهديدات لزوجته بفقدان عملها نهائياً هذه المرة، حين ستهدّد هند بإغلاق العيادة.

كان ممدوح رجلاً طيب القلب، وكان موهوباً. درس الموسيقا في معهد فتحي محمد في حلب، لكن نقطة ضعفه الكبيرة هي الكحول. وبسببها كانت له شخصيتان: شخصية ممدوح اللطيف، المهذّب، الطيّب، الذي يعزف على العود، ويغني بصوت دافئ، فيوقع البنات في غرامه، كما فعل بزينب، التي عشقته وتزوجته وهو لا يملك أيّ شيء. وشخصية العنيف، العدواني، المستهتر، الشرير، حين يثمل. كان يندم دائماً، حين يصحو من سكرته، ويكتشف حجم المصائب التي ارتكبها أثناء سكره، فيعتذر محاولاً تصليح أخطائه.

ولأن زينب كانت وحيدة، بعد أن فقدت والديها، فإنها

لم تكن قادرة على تركه. رغم أن زواجها تحوّل إلى جحيم، إذ ينام زوجها طيلة النهار، ويفيق متأخراً ليذهب إلى الحانات ويسكر، ويعود إليها في بداية الصباح، حين تكون قد أفاقت لتتهيأ وتذهب إلى العمل.

أحياناً كان يفيق في منتصف النهار، بينما هي في عملها، فيشرب في البيت، ويثمل، وتنتابه حالات قسرية من الانقلاب المزاجي، ويصبح عنيفاً وقاسياً. يذهب إليها في أماكن عملها، يطالبها خاصة بالمال، ويهدّدها ويعرّضها لفضائح، لا يقبل عادة أصحاب العمل بوجودها، فيتسبب في كل مرة بطردها من العمل. ثم يندم ويعتذر وهكذا.

كان الكحول قد استحوذ على حياة ممدوح وعقله، وسلبه اهتمامه بالموسيقا. وحوّله إلى رجل يائس دون أحلام. تعلّقه بالشرب، وعدم قدرته على مقاومته، لم يخرّبا حياته الزوجية فحسب، بل أحلامه الفنية أيضاً، فلم يعد يحلم أن يصبح ملحناً مهماً، يعرفه العالم، ويستمعون إلى ألحانه، كما كان يحلم من قبل.

الثعبان والزنبقة

قفزت فائزة عن سرير الفحص، حين سمعت صوت مجيدة يلعلع، وقالت خائفة: «يا ربّي دخيلك! شو عم تعمل أمّ فيصل هون؟!».

- «مين أمّ فيصل؟»، سألتها هند.

- «امرأة مجرمة.. أنا عم أرجف من الخوف!».

حسناً فعلت فائزة، إذ لم تكن قد أنهت كلامها بعد، حين اقتحمت مجيدة باب غرفة المعاينة، وراحت تصرخ: «اطلعي يا حربايّة، انشالله مفكّرة الصدرية البيضاء اللي لابستيها، رح تخبّي وسخك!».

وقفت هند مبهورة أمام تلك المرأة البدينة، التي ترتدي ثوباً طويلاً، وتضع غطاء رأس أبيض واسعاً، تلفّه على كتفيها، وينسدل حتى خصرها.

- «مين أنت؟ وكيف دخلتِ لهون؟».

ردّت أم فيصل بسخرية وعنف: «تكرم عينك، رح تعرفي مين أنا!».

وقبل أن تهجم على الدكتورة، اندفعت زينب مثل الصاروخ، تمسك بذراع المرأة وهي ترجوها وتحاول تهدئتها، وتصرخ بذعر: «هي دكتورة يا أم فيصل! مو مثل النسوان اللي بتهجمي عليهن وبتضربيهن!».

صار صوت أم فيصل يعلو أكثر، ويشقّ جدران العيادة، ويملأ الشارع، وحتى بيوت الجيران، وهي تهدّد زينب وتصفها بزوجة السكران، وتتهمها بالفسق والتستّر على جرائم الدكتورة بتلويث شرف بنات الحارة وهتك أعراض أهلهن. بينما وقفت هند خائفة لا تعرف كيف تتصرف. أحسّت أن نصف سكان الحارة صاروا في غرفة الكشف. كانت الوجوه كثيرة حولها، والعيون

تحدق في المشهد بفضول.

طالبت هند أم فيصل بالهدوء، وأنه ثمة سوء تفاهم، لا يمكن حلّه بهذه الطريقة، دعتها للجلوس وتناول فنجان قهوة، لتتحدثا بصوت هادئ. لكن أم فيصل كانت تغلي من الغضب، وتابعت شتائمها لهند، وحسمت كلامها بتخيير الدكتورة بين أمرين، إما أن تغادر الحارة، أو أن أم فيصل ستفسخها إلى نصفين أمام الجميع: «بتعرفي كيف بفسخ النسوان؟ بمسكك من هون، من تحت، وبعملك قطعتين. حارتنا نظيفة، لا بدنا إجهاضات ولا عمليات ترقيع بكارة، تفو عليكِ يا ساقطة!».

كانت مديحة قد استغلّت الخلاف بين زوج نجلاء وحماتها، فجمعت تلك النمائم، وذهبت بها إلى صالون التجميل، وقذفت بها في حضن سمية أمام الأخريات، اللواتي جئن لتصفيف شعورهن، ومن بينهن زهرة، ابنة مجيدة، التي حكت لأمها كيف تقوم الدكتورة، كما سمعت، بإجهاض البنات اللواتي يحملن دون زواج، وبإجراء عمليات ترقيع البكارة للعذراوات الفاقدات لعذريتهنّ دون زواج شرعي.

وجدت مجيدة الفرصة مواتية للانتقام، فقد كانت أشهر «داية» في المنطقة، تأتيها النساء من كل صوب وحدب، لكن مجيء الدكتورة وفتحها لعيادتها قلّل عملها، وأخذ منها زبوناتها.

حين وصفتها فائزة بالمجرمة، لم تكن تبالغ، إذ سبق

لمجيدة أن دخلت السجن عدة مرات، بتهمة الاعتداء بالضرب. وكانت كل النساء يهبنها، بل والرجال أيضاً.

لم تتخيّل هند في حياتها أن تتعرّض لموقف مثل هذا. رغم ولعها بالأحياء الشعبية، ومعرفتها قليلاً بالشجارات التي يمكن أن تقع بين الجارات، إلا أنه لم يخطر في ذهنها يوماً أن تكون هي مادّة لشجار مماثل.

وصلت دريّة إلى العيادة بعد أن سمعت أصوات الشجار. كانت تعرف أن مجيدة قادرة على ضرب هند وإهانتها، لذلك أتت محاولة التأثير عليها.

- «يا مجيدة، عيب عليكِ، كبرتِ وصار عندك أحفاد ولسّه عقلك قليل!».

- «طبعاً، لازم تدافعي عن صاحبة ابنك!».

ابتسمت أم شريف وهي تجبر نفسها على امتصاص غضب أم فيصل، وقالت لها: «لك ختيرنا يا مجيدة، شوفي حفيدتي (لمحت دريّة الصغيرة أمامها فسحبتها) صارت صبيّة، وأكيد حفيداتك صاروا نسوان ويمكن أمهات، عيب.. اعقلي!».

حاولت أم فيصل مقاومة تأثير أم شريف عليها، فهي تعرف حكمتها وقدرتها العجيبة في إخراج الأفعى من وكرها، كما يُقال عنها، بسبب هدوئها ورجاحة عقلها، وخافت أن تخسر معركتها في الدفاع عن شرف بنات الحارة، أمام رصانة دريّة، لكن الأخيرة لم تترك لها مجالاً

إذ عاجلتها بالقول: «بشرفك شوفي هالوجه الصافي مثل الملايكة (مشيرة إلى هند)، الله بعث هالدكتورة لتداوينا. بنتي حبلت من تحت إيديها يا مجيدة، هالسّت جاية من حارات الأكابر، ومتعلّمة بأوروبا.. لك والله نحن جاهلات، لازم نحترمها ونشكرها بدل ما نبهدلها!».

طار صواب مجيدة حين سمعت كلمة «أوروبا»، فراحت تصرخ وتشتم، لأن أخلاق الأوروبيين هي قمّة القذارة، وها هي ذي الدكتورة تحمل هذه التربية الوسخة. اتّهمت أم شريف بالطيبة والسذاجة. وراحت تذكّرها بالأفلام الأجنبية التي تمنعان بناتهما من مشاهدتها، لأن الأجانب يتبادلون القبل في الشوارع، ويمارسون الجنس دون زواج، ويشربون المنكر.

طال الجدل بين المرأتين، على مسمع ومرأى أهل الحارة. كانت أم فيصل تصرخ وتهدّد، كأنها خارجة من دور فضّة في مسلسل الراية البيضاء، بينما كانت درّيّة تشبه أمينة رزق بهدوئها وحكمتها.

لم يجرؤ أحد على الاتصال بالشرطة، لأن مجيدة قادرة، في ما بعد، على تلقين من يفعل درساً لا ينساه.

أما شريف فقد اعتمد على ذكاء أمه وحنكتها، وقد أيقن أن أيام الدكتورة صارت معدودة في الحارة، ما دام الأمر قد وصل إلى محكمة مجيدة، التي لا يمكن لأي محكمة أخرى التصدي لها، ولا حتى محاكم الدولة، فهي دولة بحد ذاتها.

معتمدة على تاريخ العلاقة الطويل بينهما في الحارة، عانقت درية مجيدة وهدأت من روعها، وأقنعتها بمغادرة العيادة.

قبل أن تخرج، التفتت إلى هند وقالت لها: «تركتك هذه المرة كرمال أم شريف، انقلعي من الحارة، وإلا بهذ العيادة فوق رأسك، وما حدا بيقدر يخلصك من إيدي!».

نزلت أمّ فيصل متأبطة ذراع درية وهي تضحك، وكأنّ شيئاً لم يحدث، وحين رأى شريف مشهد المرأتين معاً، اطمأنّ على هند، لكنه عرف أن الحكاية لم تنتهِ تماماً بعد.

امرأة على الضفة المقابلة

أمّا مجيدة فهي امرأة لا تتكرر كثيراً. استطاعت خلال سنوات قليلة، أن تخلق إمبراطوريتها الخاصة، عبر عدد من الأبناء والبنات والأصهار والكنات والأحفاد، وصل عددهم إلى ما يُقارب خمسين شخصاً، كانوا جميعاً تحت إمرتها.

تزوّجت مجيدة، الشابّة البدينة، من ابن عمّها، بكري، وهربت معه خارج القرية بسبب الثأر المترتّب عليه. وذات يوم، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام من يريد قتل زوجها.

في ذلك اليوم، كانت في سوق الخضار، ولمّا دخلت إلى البيت محمّلة بأكياس البطاطا والبرتقال والخسّ،

رأت مصطفى في وجهها. كان قد جاء بحثاً عن بكري، وعثر عليه في الحارة هنا.

كانت قد اعتادت أن تحمل سلاحاً كالرجال، تخفيه تحت ملابسها، احتياطاً للحظة غفلة، يداهمها فيها أو يداهم زوجها طلاب الثأر. لذا فإنها ما إن رأت مصطفى، لم تتردد في إخراج المسدس من زنارها، وإطلاق النار على الرجل، فأردته قتيلاً.

أشارت لزوجها أن يفرّ عبر السطح، ويتركها وحدها مع الجثة. مزّقت ثوبها وخربشت وجهها ويديها كالقطط، ثم راحت تصرخ وتستغيث.

حين وصل الجيران على صوتها، ورأوا الجثة، استدعوا الشرطة فوراً. وعندما جاء هؤلاء أخبرتهم أن مصطفى دخل عليها وهدّدها بالاغتصاب أو القتل، فتمكّنت من الاستيلاء على مسدسه وقتلته حفاظاً على شرفها. كانت روايتها مُحكَمة ولم تجد من يدحضها. فاجأت مجيدة أهلها، وأهل عشيرة القتيل، حين دخلت على أخيه الكبير مُعتصم، وحكت له كيف كانت وحدها في البيت، حين سمعت صوت طرقات على الباب، ولمّا فتحته، دخل عليها مصطفى دون إذن ولا دستور، وحاول الاعتداء عليها. قالت إنها قتلته غصباً عنها لتحمي نفسها وشرفها، وسألته وهي تنظر في عينيه: «لو كنت مكانه يا شيخ (نادته هكذا من باب التقرّب) بتدخل على امرأة وحيدة وبتحاول توسّخ شرفها؟ نعم،

بيننا ثأر، بس الشرف موضوع آخر.. لو كنت معه يا شيخ، كنت قتلته بإيدك. هيك أخلاق عشائرنا يا شيخ، وأنا هون اليوم من دون ما خبر أهلي وربعي، طمعانة في عدالتك!».

شعر مُعتصم باحترام كبير لتلك المرأة الشريفة والشجاعة، التي جاءت إلى بيت أخي الرجل الذي قتلته دون خوف، فنظر إليها قائلاً: «مجيدة، بتتزوجيني؟ أنت امرأة ما لها مثيل!».

- «وأنا على ذمة رجل، يا شيخ؟!».

- «طلقيه يا مجيدة.. خليكِ هون، وأنا بخلصك منه!».

- «بترضاها مني يا شيخ؟ إذا اليوم رضيت وطلقت زوجي حتى أبقى معك، شو بيضمنلك إنو ما يجي يوم وأقبل أتركك كرمال واحد غيرك؟!».

أعجب مرّة جديدة بمنطقها وصدقها وشجاعتها، فقال لها: «أنتِ من هاللحظة أختي، وعشيرتك عشيرتي!».

كادت عائلتها تقتلها لأنها دخلت بيت أعدائهم، لكنهم سرعان ما عفوا عنها، حين جاء مُعتصم مع جاهة كبيرة، وعرض الصلح على العائلة، متنازلاً عن دم أخيه.

وضع بكري امرأته في عينيه منذ تلك اللحظة، فهي من أنقذت حياته، إذ لولاها لكان الآن ميتاً. وصار

الجميع في العائلة يدعونها: «أخت الرجال». وعبر سنوات متتالية، تمكّنت مجيدة من تربية أولادها وبناتها على العراك الجسدي والدفاع عن الذات، والتهوّر إلى درجة قتل أيّ شخص يفكّر في الاعتداء على أحد أفراد الإمبراطورية العظمى، إمبراطورية الداية أمّ فيصل.

كانت لها هيبتها، حتى لدى رجال الدولة. وكانت تقوم بأعمال التوليد دون أن تحصل على إجازة أو رخصة لهذا. ورغم وفاة إحدى النساء بين يديها، أثناء الولادة، فإن السلطات غضّت النظر عنها، بسبب علاقاتها الواسعة، وتقديمها خدمات جليلة لأصحاب المناصب، عن طريق أولادها وأحفادها الذين كانوا يسيرون بأمرها.

في مساء اليوم الذي وقعت فيه المشاجرة بينها وبين هند، ذهب شريف إليها ورجاها بأن تترك الدكتورة تمارس عملها. كان يعرف أن سبب المشكلة كلها هو غيرة مجيدة من السمعة الطيبة التي حققتها الطبيبة في وقت قصير، وجذبها لكثير من النساء إلى عيادتها. فقال لأم فيصل مازحاً إنها قد هرمت وصار يصعب عليها رؤية ذلك الثقب[11]، فلماذا لا تدع الصبايا يشتغلن؟ ضحكت وضربته على خدّه مازحة.

كانت تحب شريف، وتتمنّاه ابناً داخل امبراطوريتها. عمره من عمر ياسر، أصغر أبنائها. كان أهل الحارة يخلطون بين الصبيّين في صغرهما، لتشابههما، وكأنهما

أخوان. بل حتى إن مجيدة نفسها، كانت تناديه بياسر، حين تراه من بعيد، ثم تضحك حين يقترب منها قائلاً: «خرفت يا حجة!»، فتضربه على خدّه بمرح، كما فعلت الآن.

أقسم شريف لها أن هند مثل أخته، وأن لا شيء بينهما، وأنها تشتغل ضمن القانون. فهدأت قليلاً، لكنه كان يعرف أنها ستسكت بضعة أيام كرمى له، ثم ستخترع سبباً جديداً للتهجم على الدكتورة، وطردها، فهي لا تهدأ ولا تتنازل إلا بعد أن تحقق ما تريد.

شعرت هند بالظلم الذي وقع عليها، وبالخوف أيضاً.

أن تكون غريمتها امرأة تحسب لها السلطات الحساب، ويهابها الرجال، في مجتمع يحكمه عادةً الرجال، فهذا ليس بالأمر الهيّن. حاولت طرد الوساوس والمخاوف، وفكّرت بمغادرة هذا الفردوس. إلّا أنها، مدعّمة بتطمينات شريف، تابعت عملها، متمسّكة بسحر الحارة، وسحر السكان، وسحره هو على الأخص.

بذور سحرية ٢

انتابت هند، وهي تُبشّر جورجيت بأنها حامل، رغبةً قويّة في أن تحمل هي أيضاً. لقد اعتادت الاطمئنان على أرحام الأخريات، فيما ظلّ رحمها خالياً من تلك البذرة.

وقفت على النافذة تدخّن، متأمّلة جورجيت تسير

سعيدة متأبطة ذراع عماد، وذراع حماتها من الطرف الآخر، ثم رأت شريف يخرج ليدخّن هو الآخر، وكان صوت الراديو يصدح من محلّه: «أنا والعذاب وهواك». ارتعشت بغتة، وكأن تياراً كهربائياً مسّها. تأملت وسامة الرجل، وشعرت بقوّة جاذبيّته. تحسست بطنها وارتعشت مجدّداً للفكرة، التي كانت تراودها وتطردها مراراً: أن يكون هذا الرجل لا غيره والداً لطفلها.

أطفأت سيجارتها، وقرّرت الخروج من العيادة، أحسّت برغبة قوية للذهاب إلى بيت أم شريف، فرغم أنها ستعجز عن الكلام في هذا الموضوع مع أيّ شخص، إلا أن مجرد وجودها في هذا البيت سيشعرها بالأمان.

كانت الذريعة موجودة، فقد وضعت نجوى قبل أيام صبيّاً أطلقت عليه اسم أخيها نفسه، وأصرّت أمها أن تبقى ابنتها عندها طوال الشهر الأول لتساعدها في العناية به، ولكي تستطيع الدكتورة المرور والاطمئنان على صحة الرضيع وأمه.

حين خرجت من المبنى، لم تزّ شريف، لا بدّ أنه أنهى سيجارته ودخل ليتابع عمله. بدا الطريق طويلاً، من باب بنايتها، حتى شقّة أم شريف. تحسّست بطنها، كأن جنينها يتحرك هناك، جنينها المستقبلي الذي استعاد الأمل بالنمو والظهور إلى الحياة.

اجتاحت أنفها روائح مزرعة والدها، روائح ولادة الأحصنة. تلك الروائح التي تعجز عن وصفها، لكنها

تسكن ذاكرتها: رائحة دم الأمومة، رائحة الأجنة المولودة للتو، رائحة العشب، رائحة التبغ، رائحة مامد، رائحة الحياة البعيدة، رائحة الحياة القريبة، رائحة الحياة السعيدة.

كانت الدكتورة غارقة في الروائح، حين توقفت أمام حسين، ورأت يده المجروحة.

ابتسامة عند قدم السلم

اتصلت نجوى بأخيها، وطلبت منه أن يرسل حسين ليشتري لها «معسّل التفاح»، لأنها تنتظر سعاد لتدخّنا النارجيلة معاً.

أشرق وجه شريف حين عرف بزيارة سعاد لبيت أهله. نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الحادية عشرة. نادى حسين، وقال له: «مثل الطيّارة ها، بتجيب معسّل وبتاخده لبيت أمي وبترجع!».

بينما كانت هند تدخل مبنى بيت أم شريف، صادفت حسين عند قدم السلم. كان نازلاً بعد أن أوصل المعسّل لنجوى.

ابتسم لها مرتبكاً، فهو يشعر أمامها بأنه صغير للغاية، ويكنّ لها الكثير من التقدير والاحترام. فهي مُبتسمة على الدوام، وتتعامل معه بطريقة لطيفة. عكس الأخريات من نساء عائلة معلّمه.

فمديحة كانت تعامله باستعلاء، على أنه الصبي الذي

يعمل في محل زوجها، وغالباً تنتقد كل ما يقوم به، كأن تؤنبه على المشتريات مثلاً، وتصرخ به منتقدة الخضار الذابلة، أو اللحمة غير الطازجة، فتوبخه وتشتمه دون توقف، وكان يكره خاصة عبارتها: «ضاربك العمى!».

البنات الثلاث نجلاء ونجوى ونجاة، يتعاملن معه بمزاجية، يعطفن عليه أحياناً، لأنه فتى يتيم، ويقسون عليه أحياناً أخرى ويوبخنه. أما دريّة أم شريف، فكانت تعامله برأفة، ولكنه كان يشعر بالإهانة، إذ لا تخلو كلماتها من شفقة مذلّة وهي تنتقد بناتها وكنّتها حين يُسِئن إليه: «حرام، الصبي يتيم.. بتكسبوا حسنة إذا عاملتوه بالحسنى، لا تكسروا خاطره يا بنات!».

وحدها هند كانت تراه كائناً بشرياً مثل الجميع، وتشعره بوجوده وكيانه.

شهقت حين رأت يده وهو يمرّ قربها عند أسفل الدرج، ويلقي التحية عليها. صاحت به: «حسين.. شو صاير بإيدك؟ تعال.. قرّب!».

أخذت يده برفق داخل يدها، وراحت تقلّبها وتتفحصها. لامته لأنه لم يخبرها بجرحه، ولأن الجرح ملتهب، وطلبت منه الصعود معها إلى شقّة أم شريف لتطهير الجرح، وإعطائه مصل مضاد للالتهاب.

- «لا دكتورة، لا تزعجي نفسك!».

ابتسمت، وقالت له مداعبة: «خايف من الإبرة يا

جبان؟!».

ضحك حسين وأشرق وجهه بطفولة مليئة بالبراءة: «لا دكتورة، ما بخاف!».

- «يالله، بدون كثرة حكي.. تعال معي!».

أحسّ أنه يسير خلف ملاك. لهفتها العالية، ونبلها، وكرمها، كلها أشياء جعلته يشعر بثقل روحي، وبأنه مستعدّ أن يرمي نفسه في المخاطر لأجلها، وأنه يريد أن يكون حارسها من أيّ إزعاج قد تتعرض له.

ما إن فتحت نجوى الباب، حتى قالت لها هند: «سمحت لنفسي أدخل مع حسين، جرحه ملتهب ولازمه تعقيم».

- «البيت بيتك، دكتورة!».

جلست هند ونظّفت يد حسين بالكحول، وعقّمت الجرح، وأغلقته بالضماد، ثم حقنته بمضاد التهاب، وطلبت منه أن يمرّ عليها في العيادة مساءً، لتكشف على الجرح وتغيّر الضماد، وتعطيه بعض الأقراص المضادّة للالتهاب، فهي لا تحمل منها في حقيبتها الآن.

رجع حسين إلى المحل سعيداً، مملوءاً بالنشاط والفرح، وحين وصل أنّبه شريف، لأنه تأخر، وأسرع في المغادرة لينتظر سعاد أمام مدخل بيتهم، إذ لم يتمكن من الانفراد بها منذ أسابيع طويلة، وكان الشوق يكوي روحه.

أطلقت سعاد ضحكة ماجنة، حين فوجئت بوجود شريف خلف باب مدخل العمارة. كان ينتظر وصولها متحرّقاً للمسها، وما إن لمحها مقبلة، حتى اختبأ خلف باب العمارة، قبل أن تراه.

أمسك بها من الخلف، قائلاً: «كمشتك.. وين بدك تهربي مني؟!».

- «مجنون.. إذا حدا شافنا وخبّر ابن عمي، بيدبحنا!».

- «أنا ما بخاف منه.. تعالي!».

كانت تتمنّع عنه ضاحكة، فتثيره أكثر. شدّها، فقاومته ودفعته، لكنه سحبها بقوة إلى تحت الدرج، حيث الظلام الدامس، وحيث يستطيعان رؤية أيّ داخل إلى البناية أو مغادر منها، دون أن يراهما أحد.

لم ينتبه إلى أن ساعة يده وقعت، وهو يحاول صدّ مقاومة سعاد. راح يهمس لها وهو يحاول تقبيلها: «ليش عم تعذبيني.. والله ما رح آذيكِ، بعرف أنك بنت، بس بدّي أبوسك!».

- «بالحلال.. إذا بدك ياني خذني بالحلال!».

- «موافق.. رح أخطبك!».

- «بس أنا مخطوبة».

- «اتركيه!».

- «ما بقدر، هو مجنون، بيدبحني!».

كانا يتبادلان حديثهما كله بالهمس، خشية أن يسمعهما أحد، وكانت رائحة أنوثتها تفجر ذكورته الفائرة كحليب على النار.

- «والحل؟».

- «ما في حل إلا يموت لأخلص منه».

- «أنت بتحبيه؟».

- «أبداً.. ما بطيقه!».

- «بتحبيني؟».

ضحكت بمجون، دون أن تجيب عن سؤاله.

- «وطي صوتك.. بدك تفضحينا؟ هه، بتحبيني؟».

كانت تحاول التملّص منه، وهو يمسك بها بقوة يديه وذراعيه، ويضغط عليها بجسده. أحست كأنما ثمة مطرقة تضغط بين ساقيها.

- «عم توجعني!».

- «أنا بحبك».

سمعا صوت كعب حذاء امرأة تنزل الدرج، فثبتا في مكانهما، في قلب الظلام، منتظرين أن تغادر صاحبة الخطوات المبنى.

لمحت هند الساعة على الأرض، وعرفتها من شكلها. إنها لشريف. انحنت لتلتقطها، فسمعت صوتاً غريباً. خشيت أن يكون ثمة لص يتربّص بالمكان، فأخرجت

هاتفها المحمول، وأضاءت البقعة المظلمة، خلف الدرج، ووقعت عينها على مشهد أصابها بالذهول.

تجمّد ثلاثتهم. كانت يد شريف تمسك بسعاد من كتفيها، وبدا كما لو أنهما على وشك مطارحة الغرام. احمرّ وجهه خجلاً من منظره أمام الدكتورة، بينما أطلقت الصبية ضحكة ماجنة، وقالت دون اكتراث: «طالعة أدخّن أركيلة فوق.. تأخّرت على نجوى وشريف الصغير!».

غمزت شريف بمكر، صاعدةً السلم دون مبالاة، كأن شيئاً لم يحدث. بينما مدّت هند يدها بذهول صوب شريف لتناوله الساعة.

- «هي ساعتك؟».

هزّ رأسه وأخذها بيد مرتجفة. شعر أن ريقه قد جفّ وليس لديه ما يقوله، فخرج مغادراً، بينما ظلت هي وحدها، تحاول ضبط دقات قلبها الذي يخفق بعنف. أسندت ظهرها على الحائط، وكأنها تدير ظهرها إلى ذلك المكان الذي كان يختبئ في ظلمته العاشقان. منعت نفسها من البكاء. لا تريد أن تصدّق ما رأت. اتجهت صوب سيارتها، وانطلقت بها، دون أن تعرف وجهتها، ودون أن تتصل بزينب لإلغاء مواعيد النهار، ثم اختفت تماماً عن الأنظار.

---

10 استعمل ممدوح لفظاً شعبياً مخجلاً بدل كلمة

الأعضاء، وكذلك سمي عضوه باسمه في اللغة الدارجة.

11 يقصد عضو المرأة.

الزربة - ريف حلب - عام ٢٠١١

صباح الخير أيها الحزن!

لم يعتد سكان الحارة غياب الدكتورة هند. إذ إنها حتى في أيام العطل، كانت تمرّ إلى بيت أم شريف، وتُرى سيارتها في الحارة. أما أن تُغلق العيادة لأسابيع، فهذا كان محبطاً لكثير من النساء اللواتي اعتدن على وجودها، ورفضن الذهاب إلى أيّ طبيبة خارج الحارة، بانتظار عودتها.

كانت أم شريف في غاية القلق عليها، بعد أن اتصلت على كل أرقامها، وتركت لها رسائل نصيّة وصوتية، دون أن تتلقى أيّ ردّ. أما زينب فلم يعد لديها ما تقوله للمريضات، إذ لم تكن تعرف أين هند، ولماذا هي مختفية، ولا متى تعود.

وحده شريف كان يخمّن سبب اختفائها. ذهب إلى بيتها، وسأل عنها هناك، فأخبرته أم أيمن أن الدكتورة جمعت أغراضها وسافرت، ولكنها لا تعرف إلى أين.

لم يكن الحزن وحده هو ما شعرت به هند، بل كانت تعاني من مشاعر كثيرة متداخلة. كمية مشاعر أوقفت دماغها عن التفكير، وعرفت أنها بحاجة إلى الابتعاد، لتعيد ترتيب حياتها من جديد، فذهبت إلى المزرعة.

هناك بدأت تسترجع كل شيء. شعرت كما لو أنها سافرت في قطار، وبعد رحلة طويلة، وقبل أن تصل إلى المحطة، اكتشفت أنها أخطأت وجهتها، وأن عليها أن

تنزل أولاً، ثم تبحث عن قطار آخر، يوصلها إلى الوجهة الصحيحة.

كانت تواجهها مشكلتان أساسيتان: النزول من القطار الحالي، ثم ركوب آخر. فأما الحالي، فهي لا تزال جالسة فيه، لا تعرف كيف تنزل منه، وهو يسير مسرعاً. هل ترمي بنفسها من النافذة؟ هل تقتل السائق ليتوقف؟ كان عليها مواجهة طريقة النزول من القطار الذي أخذها إلى الحارة، فتعلّقت بالحياة الجديدة، وتعرّفت إلى أشخاص جدد، وعاشت تفاصيل ممتعة ومدهشة.

ثم، كيف ستعرف أين هي وجهتها الفعلية؟ هل تعود إلى لندن؟ هل تبقى في حلب، وتفتح عيادة في حيّ آخر؟ هل لديها القدرة للبدء من جديد؟

كانت متعبة وواهنة. امتصّت الصدمة كل طاقاتها، وشلّت قدرتها على التفكير. كانت تجلس لساعات طويلة في الغرفة، دون أن تتحرك، دون أن تأكل، دون أن تفعل أيّ شيء.

سألها والدها عمّا إن كانت تحتاج إلى طبيب نفسي، فهو لم يرها هكذا يوماً، رغم كل ما مرت به في حياتها. تجاوزت الكثير من الأزمات من قبل: إجهاض، انفصال عن قصيّ، انفصال عن ويليام. كانت دائماً قويّة وصلبة، فما الذي حدث الآن؟

«أنا حمارة!». قالت له مرّة واحدة هذه الجملة، وعادت إلى الصمت والوحدة. كان شعوره بالقلق عليها يزداد، فاتصل بزوجته المنفصلة عنه، والتي تعيش في

لندن. وأخبرها بأن ابنتهما تتحدث إلى الدمى والحيوانات. فقد سمعها مرة تتحدث مع جرو صغير، أحضرته منذ فترة، كما سمعتها الخادمة تتحدث إلى شخص يدعى مامد، وحين فتحت الباب ودخلت عليها، رأتها وحدها.

بعد يومين كانت نهى في المزرعة. حاولت التقرّب من ابنتها ومعرفة ما بها، لكن الأخيرة ظلت محتفظة بصمتها.

كانت هند تشعر أنها فقدت كل شيء دفعة واحدة، كأن زلوخ ماتت الآن، وكأن مامد أيضاً مات الآن. شعرت بالوحدة، بالعجز، بالظلم. رغم ذلك كانت تؤنّب نفسها، لأنها ذهبت في الاتجاه الخاطئ. لم تحترم نفسها، ووضعت هند، التي تستحق مكاناً أفضل، في مكان وسخ، لا يليق بها.

كانت تتحدث إلى مامد، وتعتذر منه لأنها وثقت بشخص آخر، واعتقدت أنه مثل مامد النبيل والفقير، فاكتشفت أن شريف رجل تافه، وأنها تحتقر نفسها لأنها تعلّقت به وحلمت به زوجاً وأباً لطفلها. كانت تبكي وتتحسّر على غياب رفيق الطفولة، وتقول له بصوت مسموع، وهي واثقة من أنه يسمعها، إنه لو كان هنا الآن، لاحتضنها وبكت على صدره. كانت تشعر بالوحدة، حتى أمها لا تستطيع فهمها، وهي أصلاً لا تهتم لأمرها.

حدادٌ عميق في روحها، كما لو أن ستارة سوداء أسدلت على روحها، فدخلت في حياة مظلمة، دون

طعم ولا معنى. كما لو أن تلك الستارة الجميلة التي أزاحها شريف ذات يوم، عن ناظريها، حين أعاد شالها إلى مكانه فوق كتفها، كانت خداعاً.

شعرت بالكراهية العميقة. تكرهه وتكره نفسها لأنها انزلقت إلى مستوى رجل منحطّ، ومنحته ثقتها. بل إنها اشتهته في لحظات، وتمنّت لو تعانقه. حلمت بغرفة نومه، ولون غطاء سريره. كل هذا بينما كان هو، يخونها ويخون زوجته، مع فتاة مخطوبة، تخون خطيبها هي أيضاً، كمراهقين صغيرين يتبادلان القبل، تحت الدرج، في العتمة.

جاء الدكتور نادر، الذي أرغمها والدها على استقباله في غرفتها، ووصف لها بعض المهدئات والأقراص المنوّمة. صارت تنام كثيراً، وكلما أفاقت، أحسّت بألم في روحها ورغبة في البكاء. كانت تفيق على الحزن، وتنام فيه.

أوصى الدكتور نادر والديها بأن يتصلا بشخص تثق به وتحبّه، قال إنها بحاجة إلى الكلام مع أحد تطمئن له. هذا يساعدها لأنها في صدمة، وتشعر بالوحدة فوق ذلك.

اكتشف صائم فجأة، أنه لا يعرف شيئاً عن ابنته. لا يعرف أصدقاءها، ولا أيّ شخص يمكنه أن يلجأ إليه للتخفيف عن ابنته. أما نهى، فشعرت بالملل بعد أيام قليلة، وقررت العودة إلى لندن.

قبل سفرها، عانقت هند، وقالت لها: «لازم نتجاوز

الأزمات.. الحياة كفيلة تنسينا أيّ شي وبتساعدنا دايماً نطوي صفحاتها القديمة».

السقطة

كأنّه متوارٍ عن المحكمة بسبب مرض الشرطي المكلّف بالبحث عن المطلوبين. كان شريف يشعر بحتمية العثور عليه وسوقه للمحاكمة ما إن يتعافى الشرطي ويعود إلى عمله. ذلك الشرطي لم يكن بالنسبة إليه سوى هند. فحين ستظهر، سيعرف أهله على الأقل، وهم المقربون منها، سبب ابتعادها المُباغت، واختفائها الذي ستشرح أسبابه. إلّا أنه كما يقول المثل في بلدنا: «أمّ القتيل تنام وأمّ المهدّد لا تنام». كان يفضّل ظهور هند وفضحه ومحاكمته، على أن تبقى غائبة، لا لأن هذه اللحظة آتية لا محالة فحسب، ولكن لأنه كان قلقاً عليها أيضاً، وخائفاً من أن تكون قد تأذت بفعل الصدمة.

قدر صدمتها به، فهو الشهم النبيل، الأخ الذي دقّ على صدره أمام أهل الحارة، وأمام أهله، وقال للجميع إنها تخصّه، وإن كلمتها تمشي على كل من تمشي كلمته عليهم، بل وحتى عليه هو نفسه.

كان يعرف ما معنى أن نفقد ثقتنا بشخص اعتقدنا أنه نقي، ثم اكتشفنا دناءته. لو أن مديحة هي التي ضبطته مع سعاد تحت الدرج، لكان الأمر أهون، فزوجته تستطيع رؤية هناته، وربما التسامح معها. فهي تراه بعريه المادي، وتعرف عاداته الحميمة التي لا يكشفها

المرء إلّا لشريك حياته. كانت ستتشاجر معه، وتغضب، ولكن من باب آخر، من باب غيرة الزوجة.

ولو أن أمه رأته في ذلك الموقف، لغفرت له أيضاً، فهي أيضاً تعرف عيوبه وأخطاءه البشرية، هي من ربّته وكبّرته، وغسلت أوساخه في طفولته. ولو أن إحدى أخواته هي من رأته، لشعر بعارٍ كبير، ولكن القضية ستمرّ. أما أن تراه هند، الدكتورة الرقيقة، النقية، النظيفة، الأخلاقية إلى درجة المثالية، المعقّمة، فهذا أكبر من العار. إحساس يقترب من السقطة الأخلاقية، والعهر الذي لن يستطيع تبريره.

لو كانت امرأةً عادية لشرح لها دناءة الكائن البشري وبهيميّته أمام الشهوة. ولو أن ما وقع له، كان قد وقع لصديق ما، تعرفه هي، لوضع عينه في عينها، وشرح لها ضرورة فهم الضعف البشري أمام الغريزة، تلك التي يعتمد عليها علم النفس، وتُبنى عليها نظريات طويلة في تحليل سلوك الإنسان. لكن أن يتعلّق به الأمر قبالتها، أن يكون هو المخطئ أمامها، فهذا موقف لا يُحسد عليه، ولا يمكنه أن ينظر في عينها، للتبجح بأخطاء الكائن الإنساني، منذ الشهوة الأولى لقابيل، منذ لحظة العري الأولى، التي رآها آدم وفهمها، ففقد براءته واستحقّ مغادرة الجنة.

كان الوقت الطويل الذي تمضيه هند بالحزن والبكاء والنوم وتأنيب الذات، يُمضي شريف بموازاته، وقتاً من القلق والخجل والحزن، والشعور بالهبوط الأخلاقي.

لاحظت أمه بحدسها وخبرتها في الحياة، أن ابنها ليس على ما يرام، وفسّرت الأمر في البداية على أنه مجرد قلق، مثلها، على هند. لكنها صارت تنتبه أن الأمر تجاوز القلق، فهو لم يحلق لحيته منذ غيابها، وطوال الوقت يبدو شارد البال، كما أن شهيته قلّت، وصار يفقد وزنه.

ربطت بين اختفاء هند غير المفهوم، وحالة ولدها، فأخذته إلى غرفتها ورجته ليفتح لها قلبه.

- «صاير شي بينك وبين الدكتورة؟ لا تهزّ راسك.. شايفني عمياء؟ بعرفك مقهور كتير.. بعرف أنت السبب، مزعّلها؟ شو صار حتى زعلت؟ احكيلي بيجوز ألاقي حل. لا تكذب علي، انت ابني وبعرفك.. حطّ عينك بعيني.. شو صاير؟ احكي!».

بكى شريف. أخذت أمه رأسه في حضنها، وراحت تهدهده وتطمئنه: «احكيلي يا ابني. أنت ابني وهي بنتي. والله بيعلم مكانها عندي، بس أنت ابن بطني. أنت غير العالم.. أنت وحيدي، الصبي اللي الله أكرمني لقا ولدته.. احكيلي!».

أشعل سيجارة، وحكى لها كل شيء بالتفصيل. لكنها بدلاً من أن تواسيه، وتتعاطف معه، صمتت طويلاً، ثم قالت له: «انقلع من هون.. مو قادرة أشوفك أو أسمع صوتك!».

شعر بأنه طفل أحمق. سلّم أسلحته لأمه، التي لن تتركه وشأنه. ستؤنبه ليل نهار، على ذنبين لن تغفرهما:

أن يتسبب في خسارة العائلة للدكتورة، وأن يأخذ سعاد بين أحضانه، تحت الدرج.

الحضيض

بدأت هند تستعيد هدوءها، وتناقش ما حدث، بينها وبين نفسها، لوضع الأمور في نصابها. مضى أكثر من شهرين على عزلتها في بيت المزرعة، وانقطاعها عن عملها ومريضاتها.

يجب ألّا تتوقف الحياة، لأن أحد الأنذال خرج في وجهها. شعرت أنها هشة ودون خبرات حياتية، وأن كل ما عاشته كان عبارة عن حياة داخل الكتب الجامعية والمحاضرات وجثث التشريح والمواد الطبية والأدوية. لم تعرف حياة حقيقية مثل سائر البشر خارج حياتها كطالبة وطبيبة. حياتها الزوجية كانت سريعة، وكانت اختياراتها عشوائية وساذجة، من أجل الإنجاب لا غير.

وصلت إلى نهاية مفادها أنها كائن رومانسي مثالي، لم يختبر الحياة، ولا يعرفها. وكل نظرياتها وحواراتها مع نساء الحارة، كانت عبارة عن أفكار قرأتها في الكتب. لكن الحقيقة أنها شعرت نفسها طفلة غبية وساذجة حين قرّرت أن تختبر البشر، وتعيش الحياة. تماماً كما شعرت ذات يوم، أنها كانت تتعامل مع الحياة بقفازين يحولان بينها وبين لمس الحقيقة. استعادت هذا الشعور، وردّت صدمتها الشديدة بشريف إلى سببين، الأول مبالغتها في تقديره إلى درجة أنها ألغت منه الجانب الإنساني القابل للاهتزاز والضعف والخطأ،

والثاني أنها حملت له مشاعر ليس مسؤولاً عنها، فهو لم يلفح لها بأي مشاعر من نوع خاص، ولم يعاملها إلا بكل احترام وتقدير، وأعلن مراراً أنها مثل أخته.

ليس شريف مسؤولاً، إذاً، عن المكانة العالية التي وضعته فيها، لتتحدث عن الحضيض الذي نزل إليه. هو كان هناك منذ الأصل. كان في ذلك الحضيض الأخلاقي، وهي لم تكن تعرف عنه تفاصيل حياته كرجل، خارج محيط بيت أمه، وعلاقته بأخواته.

هو لم يخنها، ولم يخدعها. هي التي وضعته في خانة الملائكة، ثم رأته شيطاناً قذراً. لكن الذنب في النهاية ذنبها هي، لأنها عاطفية وساذجة وتُضفي على الآخرين صفات مثالية، ولا تفهم قانون الخير والشر، إذ تظن أن الحياة وردية، كما عاشتها في طفولتها مع زلوخ ومامد.

على العكس تماماً، من بداية الصدمة، صارت تشعر بالامتنان لما حصل، إذ فتحت عيونها على الحياة الحقيقية. الحياة خلف الدرج.

لقد اعتادت على الرؤية السطحية، على رؤية المدخل والدرج والباب. لم تفكر في التنقيب خلف الجدران وفي الأقبية وفي السقيفة، حيث يخبئ الإنسان أغراضه التي لا يريد أن يراها الآخرون، أو يخجل من عرضها عليهم.

هذه الصدمة أنضجتها، عليها أن تكبر وتخرج من طفولتها العالقة في إسطبلات والدها، وحقل القمح مع

مامد، وغرف القصص والأساطير مع زلوخ. الحياة أوسع من دائرتها الصغيرة، الحياة تمتد في اتجاهات كثيرة: خلف الدرج، تحت الأبنية، في الأقبية، في الحظائر، في المحالّ المهملة، في الزوايا المنسية.

هي طبيبة، كان عليها أن تتعامل بذكاء أكثر ووعي ونضج، وألا تسمح لشخص نصف متعلّم، ونصف أحمق، شخص لم يكمل تعليمه حتى، ولم يقرأ كتاباً خارج المدرسة، أن يكون مثل أبيها أو أخيها، أو رفيقها الروحي، أو عزّابها النفسي.

كيف سمحت لنفسها بأن تنزل إلى سويّة ذلك الرجل؟ رجل مثله تنجذب إليه فتاة مثل سعاد، أو مديحة التي تغار عليه، ولكن ليس هي.. هي أهمّ منه وأكبر قيمة ومكانة.

هكذا راحت هند تعالج نفسها، بين العقاب مرة، والطبطبة مرة أخرى، إلى أن اتخذت قرارها، بضرورة الخروج من هذه العزلة، والعودة إلى العمل، ولكن في عيادة جديدة، وفي حارة أخرى.

نساء الخيال

مضى أسبوعان على اعتراف شريف لأمه، عمّا وقع في ذلك اليوم. ومنذ ذلك الاعتراف، لم يخاطب لسانها لسانه، ولم تنظر إليه حتى.

اعتقد أنه سيرتاح حين يُشركها في مشكلته، لكن الأمر تفاقم عليه، فقرّر ترك الحارة، والانتقال مع زوجته

وولديه، إلى حارة أخرى.

دخل على أمه وأخبرها عن نيّته في ترك بيته والانتقال، فلم تقل شيئاً، ولم يرفّ لها جفن. صفق الباب خلفه، وغادر غاضباً بعد أن قال لها: «لو كنت قاتل قتيل، كان انحكم علي وطلعت من السجن.. شو أنت قاسية يا أمي.. والله ما بيقبل بالظلم!».

حين وصل إلى محلّه وهو يغلي من الغضب، رأى سيارة هند أمام مدخل المبنى. خفق قلبه بشدة، واختلطت مشاعره، ما بين فرحٍ بعودتها، وفرحٍ بأن أمه ستغفر له وتكلّمه حين تراها. ولكن كيف سيداري خجله وارتباكه حين ستقع عينها في عينه؟

تردد شريف، ولم يعرف ماذا يفعل. جلس أمام محلّه، محاولاً ضبط انفعاله، وضبط نبضات قلبه المتلاحقة بسرعة. هل يصعد إليها ويتحدث معها؟ وبينما هو يفكر، سمع حسين يقول، وهو يرفع إصبعه صوب رجل يعلّق لافتة كبيرة: «عيادة للبيع بكامل تجهيزاتها. للمعلومات الاتصال بمكتب العقارات على الرقم 2234144».

نهض شريف وقد فار دمه من الغضب، وقرر أن يصعد إليها ليمنعها من تلك الخطوة.

تلاقى بها أمام المدخل. ما إن رأته حتى حوّلت وجهها عنه وكأنها لا تعرفه. أمسكها من ذراعها، فتوقفت ونظرت إليه بقسوة قائلة: «اترك إيدي، وإلا بطلب الشرطة!».

كان حسين ينظر إليهما، دون أن يسمع ما يقولان.

ابتسم شريف بحنان وعذوبة، وقال مداعباً: «أول مرة شفتك فيها، كنتِ رح تجيبيلي الشرطة.. بتتذكّري؟».

لم ترد عليه، بل تابعت طريقها صوب سيارتها، فأمسك ذراعها مجدداً: «لحظة.. أنا شو عملت حتى تعاقبيني؟ طيب شو ذنب أمي وأخواتي حتى ينشغل بالهن عليك؟».

سحبت ذراعها بقوة قائلة: «إذا بتلمسني مرة ثانية مستعدة أضربك، فهمت؟».

أحسّ شريف بإهانة لم يتعرض لها يوماً. قال لها وهي تدير ظهرها: «رح أترك الحارة، وأبيع المحل، إذا هالشي بيريحك!».

التفتت إليه، وقالت بنبرة أهدأ: «وبتترك أمك؟».

- «أمي تركتني».

سألته مرتبكة: «أمك بخير؟».

- «مقاطعتني بسببك».

- «حكيت لها؟»، سألته شامتة، فردّ بصوت حزين ومنكسر: «نعم، كنت محتاج أحكي».

فأجابته بسخرية، مشيرة برأسها إلى بيت سعاد: «كأنه ما عندك اللي تحكي لها!».

- «خلينا نحكي على رواق.. ممكن نطلع لفوق عالعيادة، أو تتفضلي عالمحل، منشرب فنجان قهوة سوا ومنحكي».

نظرت إليه باستعلاء مفتعل: «مين أنت لحتى أدخل

لعندك عالمحل؟ أنا غلطت لما تعاملت مع حدا بمستواك.. لأ وإلك عين تحاكيني! أنت نذل وكذاب، وأنا ما بحترمك!».

- «هند بتعرفي مكانتك عندي، وما ممكن تطلع مني كلمة تزعجك. بتموني على رأسي، بس أرجوكِ لا تكوني قاسية، خلّينا نحكي، تعالي!».

كادت تختنق من لهجته الضعيفة المتوسلة. أمسكت نفسها كي لا تبكي، شعرت بأنها بالغت في كلامها ضده، واحترمت صبره عليها. لولا أن لها مكانة كبيرة عنده، لما قبل منها هذا الكلام. شعرت بالندم، واحتارت ماذا تفعل. لا تستطيع التراجع، فهي مقهورة، لكنها في الوقت نفسه، لا تستطيع المكابرة، لأنها تحبه.

رغبت في تلك اللحظة، وهي تغلق باب سيارتها، وتشغّل المحرك، وتتركه حزيناً، مقهوراً، مكسوراً، لو أنها تنزل من السيارة، لتعانقه وتبكي على صدره، وتعتذر له. كانت مشاعرها متضاربة بشدة.

أما شريف فقد دخل إلى محله يائساً محبطاً، بينما تابع حسين الدكتورة بعينيه، ورأى تلك الدمعة تنزل رغماً عنها، فتمسحها، وتلفّ بسيارتها، خارجةً عبر ذلك الشارع الضيق، مديرةً ظهرها للمحل والعيادة وللحارة ولكل شيء.

بكى شريف بحسرة. بكى ظلم هاتين المرأتين: هند وأمه. نساء الخيال. نساء معجونات بالحب والقسوة، بالطيبة والظلم، بالبراءة والتجريح. ظبيات مستذئبات.

نساء يحبهن، فيدعسن على قلبه، مطمئنات أنه مهما فعلن، لن يجرؤ على جرحهن.

في الطريق إلى البيت، فكّرت هند عشرات المرات في العودة إلى الحارة، والتحدّث إلى شريف، بل حتى إنها توقّفت عن القيادة، وأمسكت بهاتفها لتتحدّث إليه، لكنها تراجعت. كانت حائرة وقلقة، وكأن لقاءهما السريع قد حرّك كل مشاعرها التي حاولت كبتها، وإخفاءها حتى أمام ذاتها، لتقنع نفسها بأنها لا تحبّه وليست متعلّقة به.

في البيت، كانت تلفّ وتدور حول نفسها، كقطة تركها صاحبها، أو كأمّ أرسلت ابنها في سفر بعيد. ولم تنم إلّا بعد أن اتخذت قرارها الشجاع، ضدّ نفسها المتعالية، بأن تتحدث إليه في الصباح.

نامت بأمان، متخيّلة لقاءها به وحديثهما القادم، عتابهما، وغفرانها له، بل وربما اعترافها له بكمية الغيرة والألم التي أحسّت بهما حين رأته مع سعاد، والشعور الكبير بالفقدان، حين تركت الحارة والعيادة، وحرمت نفسها من رؤيته. غداً ستخبره بكل شيء. بأنها لا تستطيع العيش دونه، وأن الحياة لا طعم لها، بعيداً عن الحارة، وعنه.

حين تأتي الأشياء الروحية أولاً

في تلك الغرفة التي كانت من قبل، غرفة الأشياء المهملة، وصارت غرفة حسين، جلست سعاد تحاول فك صمته الحزين.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، حين نزلت ببرميل الزبالة، لتضعه أمام المدخل. كانت بهذه الذريعة، تنزل كل ليلة لتراه، بعد أن ينام أبوها باكراً، إذ إن عليه الاستيقاظ للعمل في الخامسة فجراً، وتكون أمها أمام التلفزيون غالباً.

لم تزَ سعاد حسين حزيناً بهذا الشكل من قبل. تأثرت كثيراً، وجلست تمازحه وتداعبه، وهو يدير وجهه عنها قائلاً: «من فضلك اتركيني وحدي!».

- «كيف أتركك؟ يا بارد.. أنا بحبّك!».

- «قلت لك مليون مرّة، علاقتنا مو معقولة.. أنا بحبك وأنت مخطوبة».

- «وأنا ما بحبّه».

- «اتركيه!».

وتكرر الحوار الدائم بينهما، الذي جرى مرات ومرات من قبل. هو يطلب منها ترك خطيبها، وهي تتذرع بأن إدريس يابس الرأس، وسيقتل كل من يتقدّم لخطبتها. قالت له إن الحل الوحيد هو موت ابن عمّها. يجب أن يُقتل، أو أن يقتل أحداً فيذهب إلى السجن وتتخلص منه.

كان يكلّمها دون أن ينظر إليها، بينما هي كانت تلمسه وتعبث بشعره وتحاول فك أزرار قميصه. أبعد يدها عنه متأفّفاً. حاولت سعاد التذاكي، فقالت له: «بعرف ليش زعلان.. كرمال الدكتورة، صحيح؟».

- «وشو دخل الدكتورة؟».

- «أنت بتحبها.. قصدي بتحبها مثل أمك.. زعلان لأنها رح تترك الحارة».

- «خسارتها، هالست ما في مثلها، كأنها من الملائكة».

- «بتحبها؟».

- «ومين ما بيحبها بالحارة؟».

- «أنا. أنا ما بحبها. مغرورة وشايفة حالها.. وكمان في قضة صارت من كم يوم».

نظر حسين إلى سعاد باهتمام، كأنه أمام مشهد سينمائي مشوّق ينتظر تفاصيل القصة، فأطلقت سعاد ضحكة ماجنة، وضع يده على فمها خائفاً من أن يسمع أحدهم صوتها. إن عرف أبواها سيطردونه من الغرفة، وإن عرف خطيبها، فقد يقتله.

- «احكي، شو القصة؟».

- «بحكيلك، بس اوعدني ما تنزعج!».

أطلقت ضحكة وسرعان ما كتمتها، ثم قالت: «شافتنا سوا».

أخبرته كيف رأتهما هند، بينما كان شريف يقبّلها تحت الدرج. فارتجف حسين من الغضب: «معلّمي كان عم يبوسك؟».

راحت تحدّثه بغنج، أنها لا تحب شريف، لكنها تتركه يلمسها أحياناً، وفي نيّتها أمر آخر. لا حل للفكاك من التيس، إلا بقتله، أو توريطه في قتل أحد. الموت أو السجن المؤبد، سيمكّنها من عيش سعادتها مع حسين،

لهذا تقوم بإغواء شريف وجذبه.

- «أنت عم تلعبي بالنار.. معلّمي ما رح يقتل كرمالك، بس إدريس رح يقتلك إذا شافك معه!».

- «ما رح يقتلني.. رح يقتل شريف».

أضاء وجه حسين بفرح مباغت: «معقول؟».

- «طبعاً.. هه، شو رأيك؟ ما خبرتك من قبل، لأني خفت أنك تغار من شريف. أنا عم ألعب فيه حتى أستخدمه ضد إدريس، وأبقى إلك وحدك، فهمت؟».

كان حسين يحب شريف، وكان مثله الأعلى، لكنه حين رأى الدكتورة هند، في موقف مماثل لموقف أمه المقهورة أمام أبيه، أحس بغتة بانقلاب مشاعره صوبه، وسقط معلّمه ونموذج الأب المُرتجى الجديد في عينه، فتمنّى موته، أو حتى قتله.

وضع حسين يده على خدّ سعاد، وقال: «أنت كارثة!».

أمسكت يده وقبّلتها. طار صوابه من الفرح، فهي عادة تُبعده عنها، لكنها ولأول مرة تُعامله بذلك الحنان. كان قلبه يقفز من الانفعالات الجديدة، كراهية ونفور من شريف، وتعلّق شديد كتّفته قبلة سعاد على يده، فلمعت عيناه بفكرة خبيثة: «اسمعي.. عندي خطة!».

قال متحمّساً، ثم أضاف: «هاتي هاتفك!».

أخذ حسين هاتفها النقّال، وكتب رسالة لشريف: «حبيبي.. أنتظرك الليلة، الساعة 12، بغرفة حسين. رح

ينام الليلة عند أقاربنا بالقرية. رح تشوف الليلة، اللي ما شفته في حياتك».

أرسل الرسالة ثم قال لها: «رح أطلع فوراً.. بعد ساعة بتنزلي، بيكون شريف وصل».

- «وبعدين؟».

- «اتركي الباقي عليّ!».

- «اشرح لي!».

- «مو مهمّ، المهم أنك تنزلي لهون في نصف الليل، وتفتحي باب الغرفة بانتظار شريف، اتفقنا؟».

- «وبعدين، رح نتزوج؟».

هزّ حسين رأسه. بدّل ملابسه، ثم غادر الحارة، وهو ينظر خلفه، إلى اللافتة التي كان يسقط عليها ضوء الشارع: «عيادة للبيع بكامل تجهيزاتها»، متذكّراً دمعة الدكتورة.

شعر بارتياح غامض يغمر روحه، وهو يتخيّل الراحة التي سيمنحها لها. الأشياء الروحية تأتي أولاً، سأريح روح هند الحزينة، وأطمئن قلبها. لن أدع رجلاً على الأرض، يؤلم امرأة أحبّها، أمام ناظريّ.

ليلة التنبؤ

راحت أمّ شريف، تذرع بيتها، وقد ملأ القلق رأسها، واحتشد في قلبها. عادةً تكون نائمة في مثل تلك الساعة، لكن كوابيس غامضة أيقظتها، فغادرت سريرها، وذهبت إلى الحمّام لكي تتوضّأ وتصلّي. الصلاة هي

السبيل الوحيد الذي كان يريحها في حالات أرقها النادرة.

تثق دريّة بحدسها حين يهجس بأخبار سيئة، كانت تقول لبناتها: ثمّة بوم في داخلي، يشمّ رائحة الخراب قبل وقوعه، ويفرفر في صدري كأن هناك من قطع عنقه، فيستغيث طالباً الحياة.

كانت قد ظنّت أن بومها، الذي يجثم على صدرها، وينبئها بحدث جسيم قادم، قد مات. إذ لم تعد تحسّ به منذ أكثر من عشرين سنة.

كان ذلك في صيف سنة 1987، حين كان شريف يستعد لامتحان الثانوية العامة. وقد سهرت دريّة مع زوجها حتى انتهاء فيلم ليلة الخميس. لا تزال تذكر الفيلم: «أحلام هند وكاميليا». كان زوجها يحب أحمد زكي.

تلك الليلة ذهبا إلى النوم، وكانا في حالة عالية من الرضا والمزاج. قال لها قبل أن ينام، وهو مستلقٍ بجوارها: «بتصدقي أنه شريف يصير محامي مثل ما بيحلم؟».

- «إي، عم أتخيّله عم يصول ويجول في المحاكم، ويقول: سيدي القاضي، السادة المستشارون!».

وضحكت وهي تقلّد صوت الرجال.

كان زوجها قلقاً لسبب ما يجهله، وقال إنه لا يصدّق أن يصبح ابنه محامياً، بينما كانت دريّة تقنع زوجها لتصرف عنه الأفكار السوداء، وتحدّثه عن تفوّق شريف

في الدراسة. لكن الأب لفت نظر زوجته إلى الصور التي يلصقها ابنهما على جدران غرفته، فهو مولع بالكاراتيه والكونغ فو، وصور سيلفستر ستالون. ومن يرى غرفته، يقول إن مستقبله هو قتل الآخرين، وليس محامياً للدفاع عن المظلومين. لكن الأم كانت مؤمنة بأخلاق ابنها وفروسيته النادرة، وبرّرت لزوجها، بأن اهتمام شريف بالرياضة العنيفة، ينبع من رغبته في حماية الضعفاء الذين يحتاجون إلى قوّته لا إيذاء الآخرين.

- «نام وأنت مرتاح البال يا أبو شريف، عندك صبي كل رجال الحارة بيحلموا لو كان ابنهم».

أمسك زوجها يدها بحنان، وقبلها قائلاً: «الناس بيحسدوني عليكِ يا دريّة.. أنت أكبر حظ طلع لي في هذه الحياة.. شريف تربيتك، أنا رضيان عنك يا دريّة!».

- «الله يطوّل بعمرك يا أبو شريف! يالله، تصبح على خير! بكرا نجلاء وأولادها جايين يفطروا عندنا.. بدّك تجيب الفول وتحضّرلنا التّبلة، ما بتطلع معي مثل ما بتعملها!».

- «عم تدلّلي عليّ؟ صارلك عمر بتشوفيني كيف بحضّر الخضار، بفرم البقدونس والثوم والبندورة والفليفلة الخضراء، وبفرط حبّات الرمّان!».

- «من إيدك أحلى، يا ابن عمّي!». قالت ذلك بغنج، فشدّها إلى صدره، وسرعان ما سمعت صوت شخيره.

لم يكن يعاني من أيّ ألم، ولم يشك من وجع. كان مرتاحاً ومرحاً وذا مزاج رائق. نامت بعده بدقائق،

وصحت بعد أن رأت كابوساً. بركة من الدم تتوسط الساحة، أمام محلّه.

أفاقت مذعورة، ووقفت على الشرفة، بعد منتصف الليل، ثم توضأت وصلّت، وعادت لتنام قرب زوجها، دون أن يخطر في بالها لمسه أو إيقاظه ليخفّف أرقها الشديد. حاولت النوم مستعيذة من الشيطان، لكن تلك البومة لم تكفّ عن النعيق في صدرها، حتى الصباح.

حين لم يستيقظ زوجها، عرفت أنه كان ميتاً حين أفاقت وخرجت إلى الشرفة. كان قد لفظ آخر أنفاسه، بينما لم تكن هي إلى جواره.

خافت دريّة من استعادة الذكريات الأليمة لتلك الليلة السوداء. راحت تقرأ السور القرآنية، محاولة طرد هذا الخوف، ومحاولةً الاقتناع بأن إرادة الله فوق كل شيء، «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

ظلت متسمّرة بين الشرفة والنافذة، وفجأة لمحت شريف.

قصة موت معلن

اتصل حسين بإدريس من كابينة الهاتف، وراح يحرّضه على الدفاع عن شرفه وكرامته. حثّه على أن يذهب ليرى ماذا يحصل في غيابه كل ليلة. ونبّهه ألا يدخل إلى الحارة بدرّاجته النارية، لأن صوتها سيفضحه، مثلما تفضح أصوات السيارات الشرطة قبل وصولهم إلى وكر الجريمة، فيهرب المذنبون، ويُخلون

المكان، قبل أن يُقبض عليهم.

أغلق السماعة وعاد إلى الحارة، واختبأ في مدخل عمارة عتيقة، منتظراً وصول اليد التي ستنفّذ رغبته.

طار صواب إدريس، وهو الذي لا يحتاج إلى الكثير من الجهد، ليثور ويغلي دمه غيرةً وكبرياء. خرج من بيته قبل منتصف الليل بربع ساعة تقريباً، وطلب من سائق سيارة الأجرة أن يقف على بعد أمتار من مدخل الحارة، كي ينزل دون أن يثير أيّ صوت.

كان شريف قد فوجئ برسالة سعاد، فجفاه النوم. تقلّب على سريره حائراً ماذا يفعل. هل يذهب إليها وهو المتحرّق لعناقها وتمضية ليلة معها، أم يقاوم هذه الرغبة الوحشية الهائجة، التي لا تزال أمه وهند تعاقبانه عليها؟

لم تدم حيرته طويلاً. حسم أمره. ارتدى ملابسه وفتح الباب ليخرج. سألته مديحة مستغربة: «لوين؟».

- «طالع أشمّ هوا.. مخنوق».

- «بهالوقت المتأخر؟».

- «وشو يعني؟ ما عم بقدر نام. نامي أنتِ.. ما بتأخّر».

حين لمحته أمه انقبض قلبها. رأته يتّجه صوب ذلك الممرّ الضيّق، ويدخل هناك. خمّنت أن النوم جافاه، وأنه ذاهب إلى حسين، لكن نداءً خفياً ظلّ يلحّ عليها، لتلحق به.

أحسّت بتوقّف الزمن، تمنّت لو أنها نادته وهي تراه يغادر البناية، ولو أنها تخلّت عن عنادها في معاقبته التي طالت. تردّدت في الخروج في تلك الساعة، ماذا سيقول ابنها إن لحقت به؟ سيضحك عليها هو وحسين، وسيمسك بيدها ويقبّلها من الفرح: «أمي، لهون وصلت معك؟ تلحقيني حتى بزياراتي!».

تماسكت درية، وجذبت الكرسي القش، وجلست تنتظر عودة ابنها على الشرفة. لمحت إدريس يدخل الحارة، دون درّاجته. عرفته في الظلام، إذ كان يسير على ضوء هاتفه المحمول. انخلع قلبها من الرعب فجأة، حين رأته في تلك الساعة المتأخرة. عمّه ينام باكراً، وامرأته رمزية تكون قد نامت الآن دون شك. فما الذي جاء به؟

قررت أن تنزل من بيتها، مهما كان ردّ فعل ابنها، حتى لو سخر منها. القلق كان أكبر من احتماله وانتظار ما يحدث هناك، فهي تعرف أن شريف وإدريس مثل النار والبنزين، لا يطيق أحدهما الآخر. ويكفي وجود أحدهما قرب الآخر حتى تشتعل الدنيا.

حين صارت في الساحة، صادفت ولدها، فصرخت بصوتٍ أيقظ الحارة كلها. أضيئت أنوار البيوت، وأطلّ السكان من النوافذ والشرفات، وهرع بعض الرجال حفاةً، ولحقت بهن النساء يصرخن: «إسعاف! إسعاف! حدا يتّصل بالإسعاف!».

كما خرج «سانتياغو نصّار» يحمل أحشاءه بين يديه،

بعد الطعنات التي تلقّاها في بطنه، في رواية ماركيز الشهيرة، شوهد شريف يخرج ممسكاً ببطنه، ورسم دمه خطوطاً على الأرض، من غرفة حسين، أسفل بيت القصّاب، حتى وسط الساحة.

ارتمى في حضن أمه، ورسم دمه خطوطاً على وجهها ويديها، فشعرت أن الدم يتجمّد في عروقها، وجحظت عيناها، كأنها فارقت الحياة.

*

أفاقت هند على رنين هاتفها المتكرر، كانت معتادة على الاتصالات المتأخرة، إذ توقظها النساء الموشكات على الولادة، حين يداهم المخاض إحداهن، فتُسرع للذهاب إلى المشفى، في أي وقت.

ردّت على الهاتف، فجاءها صوت دريّة: «قتلوا بابا!».

- «شو؟!».

- «قتلوا بابا.. الله يخلّيكِ تعالي بسرعة!».

حيّ بطينا (وطى المصيطبة) - بيروت
أعوام ٢٠٠٦-٢٠٠٩

كوابيس بيروت

بعد وفاة سميرة، ترك عبد الغني بيته في كفر حمرا. أخذ ابنه الوحيد معه، وقرّر الاستقرار في بيروت، مُعلناً لأقاربه أنه لا يحتمل العيش في بيت كانت تعيش فيه حبيبته، فهو مُحاط بذكرياتهما، وصوتها يلعلع في الدار، كأنها حيّة، إذ يفيق على غنائها وهي تشطف أرض الدار وتغسل الزرع في الحديقة وتضحك. حتى إنه أقسم إنه أفاق ذات يوم على رائحة قهوتها، فنهض من فراشه، متجهاً إلى مكانهما المُعتاد قرب الدالية، متوقّعاً أن يراها، جالسة بانتظاره، لكنه حين لم يرها، تذكّر أنها ماتت.

في بيروت، استأجر عبد الغني شقّة صغيرة، مؤلّفة من غرفتين وصالة. وحين سأل حسين والده، لماذا يدفع إيجار شقة كبيرة، ما دامت غرفة واحدة تكفيهما، والأسعار باهظة؟ أجابه الأب متلعثماً، بأنه لا يعرف ماذا تخبئ لهما الأيام.. قد يحلّ عليهما ضيف ما من القرية أو يزورهما أحد الأصحاب.

لمح حسين في عينَي أبيه، في ذلك اليوم، أمراً غامضاً.

كان يدرس في الصالة، استعداداً لامتحانات البروفيه، التي سيعود بسببها إلى حلب، أثناء

الامتحانات فقط، حين دخل والده مع صبيّة بارعة الجمال، قائلاً لابنه، إنه بإمكانه مناداتها بـ«خالة ميرنا»، أو حتّى «ماما»!

مرّ الوقت سريعاً. لم يمضِ شهر على وفاة أمه، حتى جاء والده بهذه المرأة، وخلال أسبوع واحد، كان قد اشترى غرفة نوم جديدة لها. شرح لابنه أن هذه هي سنّة الحياة. قال إنه أحب سميرة، لكن الحياة يجب أن تستمر، وهو بحاجة إلى امرأة تعتني به. ثم أضاف أنه لن يتغيّر أي شيء على حسين، سيبقى معهما، حتى ينهي الثانوية العامة، وبعد ذلك يمكنه الذهاب إلى الجامعة إن رغب. ثم أخبره بأنه عزم على بيع السيارة، وافتتاح محل صغير لتصليح السيارات، بمشاركة أحد أصدقائه في بيروت. ووعده بأن يستمر في العمل والإنفاق عليه حتى يتخرّج في الجامعة، مقابل طلب وحيد منه، هو أن يُحسن معاملة زوجة والده التي صارت في مقام أمه، فميرنا امرأة طيّبة ومسكينة، وليس لها أحد غيره.

صمت حسين ولم ينطق بأي كلمة.

كان ينام في الغرفة المجاورة، ويسمع ضحكات أبيه وزوجته الشابة، فيغطّي رأسه باللحاف، كي لا تصل الأصوات إليه. كانت الكوابيس تداهمه دون هوادة، إذ صار متيقّناً من أن أبيه كان يعرف هذه الصبية الحسناء، قبل وفاة أمه. وصار متأكّداً أنه قتل سميرة.

لم يقتلها بأداة مادية. لم يطلق عليها النار، ولم يقطّع

شراييينها بالسكّين، ولم يدسّ لها السمّ في الطعام، لكنه استعمل وسيلة أقوى من كل ذلك، مع امرأة عاشقة، حين راح يشكّك في حبّها. طعنها في كبريائها وفي أهمّ ما تعيش من أجله: ذلك الحب.

كان يتخيّل سيناريوهات عديدة، متصوّراً أبيه وميرنا يتآمران على الإطاحة بالزوجة.

ربما قال عبد الغني لها ألا تقلق، فهو سيجد طريقة للتخلص من زوجته، إذ إنه لن يستطيع الزواج وهي على قيد الحياة، لأن العائلة ستقف في وجهه، ويقاطعونه، وسيكرهه ابنه، وهو لا يريد خسارته لأنه وحيده. ربما شرح لها إنه لا يستطيع وضع عينه في عين سميرة ليخبرها بأنه لا يحبها، وأن هناك امرأة أخرى. لكنه سيقلب اللعبة، وسيدعها تظنّ أنه يغار عليها، وأنه يشك في برودة مشاعرها، لا بل سيلمّح إلى وجود رجل في حياتها. وربما أكّد لها أنها لا تعرف سميرة، إنها حسّاسة وعنيدة، وستقتل نفسها بمجرد شكّه بها، لتثبت أنها تحبّه، وأنها مجنونة في هواه.

يتخيّل تلك العبارات، وتتوالى الصور المتآمرة. ينام وسط تلك الصور، فتأتيه الأحلام مكمّلة تصوّراته على شكل كوابيس. كان يفيق من النوم مذعوراً، على صوت ضحكات أبيه وهو يقول لميرنا: «ماتت.. قتلتها!».

صار لا ينام، قبل صناعة فيلم في رأسه، عن العلاقة الغرامية الملتهبة بينهما، ومخططات التخلص من سميرة، ويفيق على أصواتهما المنتشية بعلاقة الغرام

الواقعية، بعد أن جمعهما عش الحب في بيروت.

أنهى حسين امتحان الإعدادية، ونقل أبوه أوراقه إلى ثانوية مار إلياس. كان يقرأ كثيراً، ويتجنّب الاختلاط بأبيه وزوجته. وكان يخطّط لترك البيت، فور حصوله على البكالوريا.

في تلك الأثناء، لم تتوقف الكوابيس عن مداهمته، كوابيس بيروت كادت تقتله. لم يحتمل صمته على مقتل أمه، وصار يشعر بالذنب والشراكة في قتلها. وراحت التخيّلات تأخذ مجرى آخر، إذ صار يفيق على كوابيس أخرى، يرى فيها يديه ملوثتين بدماء أبيه وزوجته.

راح حسين يقتل أبيه في كل ليلة، ويتردد في قتل ميرنا. بل، في أغلب الأفلام التي كان يتخيّلها، وتستمر في نومه، كان يترك ميرنا مذعورة أمام جثة زوجها، وفي بعض الأحيان، كان يرى نفسه يطبطب عليها.

لم يستطع أن يكرهها، رغم قناعته بتواطئها مع أبيه، للتخلّص من أمه. كانت مشاعره تجاهها غامضة. حاول تشويه صورتها في مخيّلته، وفي أفلامه السردية قبل النوم، لكنه فشل في كراهيتها، فهي امرأة فاتنة إلى حدّ مدهش: ممشوقة القوام، عيناها سوداوان واسعتان، شعرها أسود كشلّال يتموّج على كتفيها وظهرها، بشرتها بيضاء لامعة كبشرة الأطفال. وكان على الأخص، يحبّ رائحتها، فقد كانت تضع عطراً يغمره بالحنان. وكانت تعامله برقّة وطيبة وتعتني به.

وفوق كل ذلك، تعاطف معها حين حكت له قصتها.

امرأة في الثلاثين

كانت ميرنا تعيش في حلب، حين وقعت في غرام محمود، الشاب الذي يعمل في محل التصوير في حارتها في السليمانية. تزوجته هاربة من بيت أهلها، ثم فرّت معه إلى بيروت، لأن إخوتها الذكور أقسموا على أن يذبحوها. لكن محمود مات بعد شهرين من الزواج، حين انقلب به الباص، المثجه من بيروت إلى صور، حيث كان ذاهباً في عمل إلى هناك.

لم تعرف ميرنا أين تذهب بعد موته، ولا كيف ستعيش. اشتغلت في تنظيف البيوت وشطف مداخل البنايات في حارات الأثرياء، لتتمكّن من دفع إيجار الغرفة التي كانت تسكن فيها مع زوجها.

تعرّضت لتحرّشات عديدة، كما قُدّمت لها عروض جادّة للزواج، لكنها خافت من دخول علاقة جديدة، وهي لم تبتر بعد تاريخها مع أهلها.

عادت إلى حلب، وترجّت أمها أن تجعل إخوتها يسامحونها، لكن الأم طردتها، وطلبت منها ألا تعود أبداً إلى دار أهلها، وهدّدتها بأن إخوتها سيذبحونها إن لمحوها.

في ذلك اليوم تعرّفت إلى عبد الغني، حين استقلّت سيارته المنطلقة من حلب إلى بيروت.

رآها تبكي طيلة الطريق، فسألها عن السبب بعد أن

نزل كل الركاب. حكت له قصتها، فأعطاها رقم هاتفه اللبناني، وأوصاها، إن احتاجت إلى شيء، ألّا تتردد في الاتصال به، وأن تعتبره بمقام أخيها الكبير، أو عمّها أو خالها.

كان عبد الغني يكبرها بخمس عشرة سنة. وكانت تبدو للناظر الغريب، وكأنها أخت حسين الكبيرة، لا زوجة أبيه.

لم يستطع حسين أن يكرهها، وهي الصبية التي ظلمتها الحياة، لكنه كره أبيه وحده، واعتبره قاتلاً لأمه. وظلّ، لثلاث سنوات متتالية، يقتل أباه في نومه، ويستيقظ على كوابيس جثة أبيه المقطّعة بين يديه. إلى أن أفاق ذات يوم، وبدلاً من الذهاب إلى امتحان المادة الأولى في الثانوية العامة، فعل أمراً آخر.

في ذلك اليوم، حين عادت ميرنا من السوق، بعد أن ذهبت لتشتري بعض اللحم والخضار والخبز، رأت زوجها يتدلّى معلّقاً في سقف الصالة.

التمّ الجيران على صوت صراخها. وعندما رجع حسين بعد ساعات، تظاهر بالصدمة وبكى.

الجريمة والعقاب

قتل أبي أمي بالنيّة. هناك نوايا قاتلة لا يعاقب عليها القانون. حين تعرف شخصاً بشدّة، وتعرف نقاط ضعفه، تستطيع إنهاء حياته.

ارتكب جريمة قتل عن قصد. تخلّص من زوجته، ثم

تفرّغ لحياته الجديدة، مع امرأة أخرى، بانياً سعادته، على جثة أمي.

على عكس راسكولنكوف، بطل رواية الجريمة والعقاب، الذي عذّبته جريمة قتله للعجوز، كانت تعذّبني جريمة عدم قتل أبي.

اعترف راسكولنكوف بجريمته، ليتخلّص من عذاباته، بينما عشت كوابيس مدمّرة ورغبات تحوّلت إلى هذيان، بضرورة قتل من كان سبباً في موت أمي.

كنت أقتله في كل ليلة، وأفيق على الخوف والشعور بالذنب المتشعّب الاتجاهات: شعور بالذنب تجاهه. أخجل من النظر في عينيه، إذ أقتله بيني وبين نفسي. لكني كنت أيضاً أشعر بالذنب تجاه أمي، التي ماتت جاهلةً الحقيقة. لو أنها شكّت للحظة، في أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى، لم تكن لتقتل نفسها وتجعل من روحها وجسدها قرباناً لذلك الحب.

ماتت متوهّمة أن الرجل الذي أحبّته، يحبّها. ماتت برومانسية ملائكية، متجرّعة السمّ، لأنه شكّك بها. توقف قلبها لتقول له إنها تحبّه وحده، حتى الموت.

أعرف أنني أكرر هذه الهذيانات، ولكن هذه الأفكار أحاطت بي ودمّرت روحي لسنوات. كنت أقتله في داخلي. نواياي كادت تقتلني أنا أيضاً. أجل، هذه هي النوايا القاتلة. إنها تقتل مرّتين، تقتل صاحبها، وتقتل خصمه.

تحوّلت إلى راسكولنكوف معكوس، فأنا أتعذّب

بعقاب عن جريمة لم أقم بها، إنما أنويها في نفسي.

«إنما الأعمال بالنيّات»، وهذه النيّات كانت تسيطر عليّ. لم يكن على أبي أن ينجو من العقاب على جريمته، ولم يكن عليّ احتمال كوابيسي طوال تلك السنين الثلاث.

حين ربطت عنقه، وحملته لأعلّقه في تلك الحلقة في سقف الصالة، كنت أشعر بقوّة خارقة، كأنني قبيلة من الرجال. كنت أتعرّق وأرتجف وأهذي: «أنت قتلت أمي لتتهنّى بزواجك السعيد، وأنا بتعذّب كل ليلة.. بقتلك بالليل وبشوفك بالنهار عم تتحرّك بالبيت، بتاكل وبتشرب وبتدخّن وبتضحك وبتنام مع مرتك.. بقتلك وبترجع.. بقتلك وبرجع بشوفك عايش.. ما عاد متحمّل شوفك بين الموت والحياة.. سامحني لأني رح اقتلك مرة واحدة وأخيرة منشان أتخلّص من إحساس إني عم أقتلك بلا نهاية.. بدّي أخلص من هالدائرة اللي عم تسكّر عليّي وتخنقني!».

كان ينظر إليّ مندهشاً، لم يناقشني، لم يحاول منعي، صار يبكي كالأطفال. لا أعرف ما الذي جعله يتركني أنفّذ فيه حكمي. لا أعرف. ربما كان يتعذّب بصمت، طوال الوقت، وهو يدرك أنه قاتل أمي، واعتقد أنه سيرتاح، كما راسكولنكوف، حين يُعاقب على جريمته.

المحاكمة

عاد حسين من بيروت مع جثة أبيه، وتصريح

بالدفن، إذ سجّلت حادثة الموت انتحاراً، وفسّر المقرّبون ذلك بأنه حزنٌ على حبيبته وابنة عمه، وندمٌ على الزواج، وفشل في فتح صفحة جديدة بعد رحيل سميرة.

شعر حسين بالراحة بعد موت أبيه، وتوقفت الكوابيس عن مداهمته. ترك محل أبيه في بيروت، وأوصى شريكه أبا هاروت بأن يقدم حصّة أبيه من المحل، كمبلغ شهري لأرملته ميرنا، فقد اكتشف أنها كانت حاملاً في شهرها الثالث. تركها في بيروت مطمئناً على الدخل الشهري الذي ستعيش منه بكرامة هي وطفلها القادم.

دُفن عبد الغني في كفر حمرا، في قريته التابعة لريف حلب.

التقى ابنه بالعائلة الكبيرة، وتم تقرير مصيره بالإقامة في بيت عمته رمزية، التي لديها غرفة فائضة مستقلّة عن البيت، إذ سيتمكن في المدينة من متابعة تعليمه. لكن الصبيّ أعلن، ما إن وصل إلى الحيّ، رغبته بترك الدراسة والتوجّه إلى العمل.

راح يتسكّع في الحارة، ويطّلع على الأعمال والمهن التي يمكنه الاشتغال فيها. عمل في محل الفوّال لأسبوع واحد، ولم يعجبه الشغل، ثم عمل في فرن الكعك، ولم يرُق له العمل أيضاً. وكان قد رفض العمل مع زوج عمّته في محل الجزارة، لنفوره من مشهد اللحم النيّئ.

كان يمرّ من أمام محل زوج عمّته ويدير وجهه، خائفاً من رؤية اللحم المقطّع والحيوانات المذبوحة، وبدا له ذلك تناقضاً لم يفهمه. كيف تمكّن من قتل أبيه، وهو الآن يخاف من رؤية لحوم الحيوانات الذبيحة؟!

التقى حسين بشريف عدّة مرات في جلسات الرجال في الحارة وأُعجب بشخصيته، فطلب منه أن يشتغل معه، وبما أن الأخير كان بحاجة إلى عامل جديد، بعد أن تركه محمد، العامل القديم عنده، فقد وافق فوراً. هكذا تعلّم حسين مهنة الحدادة، وبدأ صفحة جديدة من حياته.

كان يذهب من وقت إلى آخر، في أيام العطل، ليطمئنّ على ميرنا، ولم يكن أحد من أهل الحارة، أو من عائلة عمّته أو حتى شريف، يعرف أن حسين يغيب في بيروت.

لم ينقطع عن زيارتها والوقوف إلى جانبها، خاصةً بعد أن أنجبت «فادي»، الذي اختار هو له اسمه، اشتقاقاً من اسم «فيودور»، وذلك وفاءً منه لفيودور دوستويفسكي، الذي أنقذه من الكوابيس، فتمّ الحكم وأخذت العدالة مجراها، حين حكم على أبيه بالموت، عقوبة له على جريمته.

محاكمة عادلة، حقّق جميع الأطراف فيها معنى الحقّ. أبوه مات أسوةً بأمه التي تسبّب في قتلها. ميرنا لديها دخل المحل، وصبي يعوّضها عن أهلها، كما أنها لا تزال شابة، ويمكنها الزواج من جديد. وهو، حسين ذاته،

القاضي القاسي، ذلك أن العدالة تتطلب القسوة، صار مرتاحاً، ويشتغل في محل شريف بطمأنينة، ولا ينقصه في الحياة سوى أن يعثر على نصفه الثاني، بنت الحلال التي سيتزوجها ذات يوم.

لم يشعر لحظة واحدة بالندم أو تبكيت الضمير، بل كان يشعر دائماً بالقوة والنقاء، وبأن روح أمه ارتاحت.

«صار عندك يا سميرة.. عاقبيه أو سامحيه.. مصيره بإيدك!». كان يقول لأمه كل ليلة، ثم يغطّ في نوم عميق ومريح.

حبل سري

تكاد تكون الجملة الوحيدة التي علقت في ذهن حسين من أبيه، هي حين أوصاه بحُسن معاملة ميرنا، وقال له إنها في مقام أمه.

شعر حسين أنه مسؤول عن زوجة أبيه، رغم أنه يصغرها سناً. لذلك ظلّ يتصل بها عبر الهاتف، ويزورها بين حين وآخر ليرى احتياجاتها، واحتياجات أخيه الصغير. حتى أنه بحث لها عن مربّية ومساعدة لها في البيت، حتى لا تظل وحدها، فيما لو تعرّض الصغير لمرض مفاجئ في الليل. وكان يدفع راتب المربّية من حصّته في محل أبيه.

كان يمكن لحياته المريحة أن تستمر، إذ لم يعد ثمة ما ينغّص حياته. ميرنا بخير، تعتني بفادي الذي منذ مجيئه إلى الحياة جعل حسين يشعر بأنه لم يعد

وحيداً، صار لديه أخ، سيكبر مع الأيام، ويكون معه. ومما زاد في راحته، أنه لم يرَ مشاعر الصدمة والحزن في عيني ميرنا، بل رأى الأمان وهي تهدهد طفلها، فاعتقد أنها لم تفقد شيئاً بموت عبد الغني، كما لو أنها لم تكن تبحث عن حبيب أو زوج، بل عن بيت وأمان وظلّ رجل. كأن وجود عبد الغني، في تلك السنوات، حتى تحمل منه، ويترك لها دخل المحل، كان كافياً، ولم تعد تريد شيئاً من الحياة.

إذاً، كان يمكن لحياة حسين المريحة أن تستمر، لولا تلك الدمعة التي رآها في عين هند وهي تغادر الحارة منكسرة. أعادت إليه دمعتها صورة أمه، التي أمسكت بنفسها قبل أن تبكي في المطبخ، مقهورة.

خاف، في ذلك اليوم، من عودة الكوابيس، خاصة إذا قتلت هند نفسها. خفق قلبه وهو يتخيّل خبرَ وفاتها، وتذكّر كيف أفاق على خبر موت أمه. وظلّ يفكر، بأنه لن يسامح نفسه، إن قتلت الدكتورة نفسها، قرباناً لشريف.

ستعاوده الكوابيس، ولن ينجو ضميره من التعذيب، حتى يقتل شريف. فلماذا لا يسارع في قتله قبل أن يحصل مكروه للدكتورة؟ في هذه الحالة، يموت هو فقط، وتبقى هي. وهذا أفضل من أن يموت الاثنان.

كان يعرف أنها تحب معلّمه. كان يرى ذلك في عينيها. هو وحده من رأى ذلك الحب، ووحده من قدّر إمكانية أن تقتل امرأة نفسها، انتقاماً من قهر الحبيب

وظلمه.

كان يحب هند كأنها أمه، كما أحب ميرنا أيضاً. لم يكن يفهم ذلك الرابط الغامض بينه وبين بعض النسوة. كأنهن أمهاته.. كأنما ثمة مشيمة عاطفية مليئة بالدم والحب، تربطه بهن. كان مرتبطاً بهن إلى درجة أنه كان مستعداً لرؤية الدم مُراقاً في الساحة، ليحافظ على هذه الكائنات الجميلة اللواتي يشبهن أمه.

كان اندفاعه لنصرتهن، أقوى منه. إذ اعتبر نفسه مسؤولاً عن حمايتهن. كل امرأة مقهورة من رجلٍ تحبه، ولا يستحقها، هي أمه، وسيقتل ذلك الرجل من أجلها.

طفل من حقول الكاكاو

وجد أدهم نفسه فجأة يحل مكان أبيه. طفل الكاكاو، قفز في غضون أيام، ليصبح رجل العائلة الذي سيقوم المحل على كتفيه، إذ أعلمه حسين أنه سيبقى معه لمدة عام واحد فقط، لكنه لن يبقى في هذه الحارة المنحوسة - كما سماها - ولا ليوم إضافي بعد مرور هذه المدة. سيعلّمه الشغل وينصرف.

كان طفل الكاكاو، هو اللقب الذي أطلقته العائلة عليه، لولعه بمشروب الشوكولا الساخنة مع الحليب، إذ كان يشرب منه في الصباح، وخلال النهار، وفي الليل قبل أن ينام.

سار أدهم في طريق أبيه ذاته، فشريف أيضاً مات أبوه وترك له حمل العائلة. كلٌ منهما اضطر لترك المدرسة، والشغل، للإنفاق على نساء العائلة. قالت له أمه بأنه صار اليوم رجل العائلة وأن الكلمة له وحده في كل صغيرة وكبيرة.

دست السم في كلماتها، فهي تعرف أن السلطة قد عادت لها الآن بعد موت زوجها، وبإمكانها أن تعاود التفكير بمشروع زواج ابنتها الرابح. زواج يقلب حياة ولديها وحياتها أيضاً.

وجاء اليوم الموعود. فبعد أقل من سنة على وفاة شريف، جاء العريس.

كانت دزينة قد انتهت من امتحان البروفيه، وحصلت على علامات مرتفعة، وراحت تعد نفسها، للذهاب إلى المدرسة الثانوية. ثلاث سنوات وتأخذ البكالوريا، ثم تذهب إلى كلية الطب، كما اتفقت مع أبيها، قبل موته. لكن أمها جاءتها بالعريس اللقطة، كما وصفته: مال وجاه وابن عائلة كبيرة.

جنّت الصغيرة، ولجأت إلى هند لتنقذها من هذا الزواج. فما كان من مديحة إلا أن تصدّت للدكتورة، وطردتها من بيتها. وهي تذكّرها بأن من كان يدعمها ويقويها عليها قد راح، وهي لن تسمح لها بدخول بيتها بعد اليوم، أو التدخل في شؤون عائلتها.

لكن أدهم لم يقبل بسلوك أمه، وطلب منها أن تتحدث مع الدكتورة هند بطريقة مهذبة ولائقة بها. على الأقل تقديراً لروح أبيه الذي كان يقدّر هذه المرأة ويحترمها. لكنها صرخت به:

- «اخرس أنت، وروح اشرب كاكاو!».

اندهش الصبي من انفلات أعصاب أمه، فهي التي أوهمته أنه رجل العائلة، وله الكلمة الأخيرة في كل شيء. لحق بهند التي غادرت بيتهم منكسرة الخاطر، وأوقفها على الدرج وهو يخفف عنها، ويقول بأنه لن يقبل بأن تُعامل أقل مما كانت تُعامل في حياة أبيه.

وضعت يدها بلطف على كتفه، وطلبت منه الاعتناء بأمه، فهي الآن تحتاجه أكثر من أي شخص آخر. لكن أدهم لم يحتمل أن تذهب هند منكسرة الخاطر، فأخذها من يدها بحنان جديد عليه، لم يسبق له أن اختبر ممارسته مع أحد، وكأنه صار رجلاً كبيراً ويحتمل مسؤولية الآخرين، وتوجه بها إلى بيت جدته التي انعزلت في غرفتها، منذ فقدانها لابنها، وتخلّت عن كل الدنيا وشؤونها.

كانت درية تبتسم وتلتمع عيناها، حين يدخل عليها أدهم فقط. تعانقه وتشم رائحته، ثم تبكي بصمت.

كان لأدهم رائحة الكاكاو الذي يشربه، وكأنه مولود في حقول الكاكاو. وكانت حين تعانقه تحس بجسد شريف بين يديها.

دخل مع الدكتورة، وعانق جدته كالعادة، وحكى لها ما حصل للتو في بيتهم، ثم ذكّرها برغبة والده: «قال درية أمانة برقبة الدكتورة!».

استمعت أم شريف إلى حفيدها صامتة. كانت نجوى أيضاً تستمع، إذ كانت قد تركت بيتها، وجاءت إلى بيت أمها، طالبةً الطلاق. لم تحتمل البقاء مع ابن عم قاتل أخيها، خاصة أن أخته، كانت السبب في موت أخيها، وفي تلك الفضيحة التي طالته، بعد موته: «شريف كان قليل الشرف مع ابنة حارته!».

بعد أن أنهى أدهم حديثه، رنت أم شريف على كتف هند بلطف، رافضة التعليق بأي كلمة.

تحت جرس زجاجي

بعد ثلاثة أيام، أفاقت درية باكراً وخرجت من غرفتها، لتشرب القهوة في الصالة. طارت نجوى فرحاً بأمها، التي لم تكن قد غادرت الغرفة، منذ وفاة ابنها، سوى إلى الحمام. حتى طعامها الذي كانت هي تجبرها على تناوله، كانت تأكله في السرير.

انتظرت درية دخول حفيدها عليها، الذي كان يتبع خطوات والده وتسلسل تصرفاته، بحذافيرها: يستيقظ، يغتسل ثم يرتدي ملابسه، ويأتي إلى بيت أمه ليشرب القهوة معها، ويثرثر قليلاً إلى أن تلحق به مديحة

وتجهز طعام الفطور، يأكل لقمات سريعة وينزل إلى المحل، حتى موعد الغداء، حين يصعد ويمز عليها أولاً، يتفقدها، ثم يعكف على بيته. أو تكون مديحة في بيت خالتها، فيأكلون معاً.

هكذا درجت العادة، منذ زواجه وسكنه في الشقة المجاورة لشقة أهله، لكن مديحة خرجت عن تلك اليوميات بعد موته، وصارت تفضل تحضير الغداء في بيتها، مقترحة على خالتها، إن رغبت، أن تأتي لتناول الطعام عندها.

حين دخل أدهم ورأى جدته في الصالة، شعر بقلبه يرقص من الفرح: «تيته، حبيبة قلبي، هاتي بوسة!».

- «الله يحميك ولا يحرمني ريحتك!.. كأنك شريف!».

بكت نجوى من الفرح، فهذه أول مرة تنطق فيها أمها منذ حادثة الوفاة.

- «وينها أختك؟».

- «باليبيت».

- «ناديها من فضلك يا ابني، واتصل بالدكتورة هند، وكمان خبر أمك، بذي أحكي قدام الكل».

حين جاءت مديحة، جلست وأشعلت سيجارة، ثم سألت ساخرة: «اجتماع عائلي؟»، فأخبرتها نجوى أنهم ينتظرون وصول هند، وطلبت منها إطفاء سيجارتها، التي تضر بصحة الوالدة، مستهجنةً ما تقوم به، فهي لم تكن تدخن أصلاً.

- «صرت دخن من القهر.. شريف كمان كان ينفخ الدخان بوجه أمه وما كان حدا يعترض، أو بس دخاني هو اللي بيضر صحة العجوز؟».

انزعجت نجوى من مديحة وردودها غير المهذبة، إذ لم يسبق لها وصف خالتها بالعجوز، كما أن طريقة ذكرها لشريف، خلت من أي تقدير لذكرى الميت.

- «اللي عم تحكي عنه بيكون زوجك وأخي الوحيد اللي موته كسر قلوبنا!».

- «لو كنت مكاني واكتشفتي أنو زوجك عم يخونك، بتحكي عنه باحترام؟».

ثم أفلتت عبارة أدركت بعد أن نطقتها، أنها تسرعت: «أخوك انقتل بجريمة شرف، يا خانم، أخوك كان قليل شرف!».

- «اخرسي يا مديحة!».

جاءها صوت خالتها بغتة، فارتجفت مديحة، وشعرت بالخوف، وصمتت، فهي ما زالت تخشى هذه المرأة، حتى بعد أن هرمت وتحطمت سلطتها، بوفاة زوجها وابنها الوحيد.

خيم الصمت للحظات، قبل أن يقطعه صوت جرس الباب. كانت هند قد وصلت. وبعد أن سلّمت على الجميع، وأبدت فرحها بخروج أم شريف من عزلتها، جلست منصتة لما ستقوله.

أخبرتهم أنها رأت حلماً هذه الليلة، وهي ترغب بأن تقصه عليهم.

كان المنام غريباً، رأت فيه شريف يجلس بوضعية الجنين في بطن أمه، متكوّماً على نفسه، داخل مصباح زجاجي كبير، في غرفة من الكريستال، وبدا كل ما حوله مصنوعاً من الزجاج. كانت تراه ولكن يفصلها عنه جدران زجاجية. حاولت الدخول والخروج من فتحاتها، لكنها لم تستطع الوصول إلى ولدها. تناديه فلا يرد عليها. مشت طويلاً في ممرات من الزجاج، إلى أن وصلت أمام المصباح، وصارت تطرق عليه، دون أن يصدر أي صوت عن هذه الطرقات. رفع شريف وجهه، لكنه لم يكن هو. صار فجأة ابنته درية.

خافت، وراحت تحدث نفسها: «كيف صار هيك؟ هي درية أو شريف؟». وإذ بيد تحط على كتفها، بحنان كبير، وتقول لها بهمس: «نسيتيني بسرعة؟ ما عرفتيني؟».

استدارت فرأته يقف إلى جوارها مبتسماً، يرتدي جلابية زرقاء بلون السماء، ويحمل مسبحة من حبات العقيق البني. قال لها مشيراً إلى ابنته داخل المصباح: «شو صار.. ليش درتولي ضهركن؟ كأنو ما كنا مع بعض.. نسيتوا الخبز والملح يا أم شريف؟».

وضعت يدها على وجهه، ولمست خده، وقالت باكية: «ليش هيك عم تقول يا ابني؟ الله بيعلم أني من يوم موتك ما غبت عن بالي ولا لحظة!». أجابها بأنه لم يمت، وأشار إلى داخل المصباح حيث تجلس ابنته، وقال: «أنا هون.. شوفي!». ثم رأت أدهم يفتح باباً من داخل المصباح نفسه ويقترب من أخته ويعانقها.

قال لها شريف إن أولاده يكملان وجوده، ولهذا فإنه سيبقى معها. وطلب منها ألا تسمح لأحد بأذية ابنته في غيابه. فهي مسؤولة عن العناية بها في غيابه. ثم أوصاها بألا يتم زواج ابنته، وأن تتصل بالدكتورة، وتستمع إلى ما تقوله، وتنفذه، لأن هند تنطق بلسانه. بعد ذلك أضاف:

«خلّيها تاخد البنت.. درية لهند يا أمي مو لمديحة!».

هنا طار صواب مديحة، وخبطت يدها على الطاولة، فانكسر فنجانها، وتناثرت القهوة على مفرش الطاولة.

تابعت أم شريف منامها، وقالت بأن ابنها أخرج من جيبه جرساً زجاجياً صغيراً، وناولها إياه قائلاً إن هذا الجرس هو لغتهما، كلما احتاجت إليه عليها أن ترنه، وسيأتي، وحين سيحتاجها هو ستسمع الصوت نفسه. وراح يرن الجرس الزجاجي حتى استيقظت على صوته.

- «يعني جامعتينا لتنفيذ وصية ابنك في المنام؟»، سألت مديحة ساخرة.

- «نعم.. روح ابني ما بترتاح إلا إذا درية كفلت دراسة!».

- «ومين رح يصرف عليها حتى تخلّص دراستها؟ الطب مصاريفه كبيرة، وشغل أدهم بالمحل ما بيكفي».

تدخلت هند سريعاً: «درية من حضتي.. دراستها علي حتى تتخرج وتفتح عيادتها، والعيادة كمان رح تكون علي!».

- «قولوا إنها مؤامرة وخلصوني.. بس ما رح أخلّيكم تنهلوا بتخريب مشروع زواج بنتي!».

قالت مديحة غاضبة وهي ترد على خالتها وعلى هند، ثم نهضت قائلة لولديها: «يالله على بيتنا، هالبيت ما عاد إلنا!». ثم استدارت نحو خالتها وقالت ساخرة: «لا تنسي ترني الجرس لابنك، وتحكي له شو صارا!».

قالت درية الصغيرة: «أنا رح أبقى هون».

سحبتها مديحة بعنف، وهددتها بأن تجزها من شعرها إن لم تأتِ معها. لكن أدهم فاجأ أمه، بأنه سيبقى في منزل جدته، ويعيش معها، هو وأخته أيضاً، وقال لأمه: «بابا مات، بس كلمته لسه هي التي بتمشي على الكبير والصغير!».

أجمل قتيل في العالم[12]

كانت مديحة تنام وتستيقظ على تلك الصورة. لا تفهم ولم تتساءل أصلاً كيف استطاع ابنها التقاط صورة الجثة المضرجة بالدم. ابنها الرقيق الذي يدير وجهه عن التلفاز حين يرى مشهداً عنيفاً، كيف امتلك الشجاعة والأعصاب لتصوير أبيه الذي لم يبرد دمه عليه بعد؟

اكتشفت الصورة بعد دفن شريف. كانت وحدها حين لمحت هاتفه

المحمول على طاولة الصالون. استغربت أن يكون هنا. فتحته وراحت تقلّب فيه، فرأت صورة الجثة. اعترف لها أدهم في ما بعد أنه حين رأى أباه مرمياً على الأرض والدم يحيط به، عرف فوراً أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيراه بها، لذلك سحب جهاز الهاتف من جيب أبيه، وصوّره.

اندهشت مديحة من برودة دم ابنها، وقسوته على نفسه.

ومنذ ذلك اليوم وهي تحمل الهاتف معها طيلة الوقت، دون أن تسمح لأحد بلمسه. كل ليلة، تفتح تلك الصورة، وتبكي بصمت لساعات.

حين تحاول النوم، تتخيله أمامها، فتتحدث إليه كما لو كان موجوداً فعلاً. تشتمه، يعلو صوتها وتهدده: «رح أقتلك.. والله العظيم رح أقتلك يا نذل! كل الوقت كنت عم تخونني مع سعاد العاهرة، وعم توهمني أنك بتحب الدكتورة حتى تصرفلي انتباهي عن الحقيقة.. والله لأقتلك!».

تنهض مرتعبة من صوتها. تنفض خياله عنها.

ثم تشعل الضوء، وتسحب الموبايل من جديد، لتتفرّج على صورته المضرجة بالدم، وتخاطبها: «مبسوط هلق؟ حطّيت راسنا بالتراب.. أهنتني وأهنت حالك.. شوف كيف صرت عالأرض مقتول والناس عم تتفرج عليك.. ما فكّرت بهاللحظة؟ كيف تجرأت تعمل هيك؟ كيف بترملني وأنا بعزّ صباي؟!».

كانت تنوس بين الشماتة لموته، لأنه خانها، والحزن عليه لأنها ظلت وحيدة بعده. كان وجوده يعطي لحياتها معنى، لا بل كان هو كل حياتها. في كل لحظة تتذكر فيها موته، كانت تشعر أنها تريد الانتقام منه، ثم تستوعب أنه غادرها إلى الأبد، ولم يبقَ منه إلا صورة في جهاز الهاتف المحمول.

كانت تستحضره كل ليلة لكي تعيد قتله. تتخيله عائداً من العمل، وتنهال عليه بساطور القصاب وتقطّعه إرباً. لكنه يضحك عليها ويقول: «أنا متت يا مديحة، وما عاد تقدري تقتليني.. الإنسان ما بيموت مرتين!».

للتخلص منه، من استحالة الحياة دونه، من كوابيس الانتقام منه، قررت مديحة الزواج، ليشاركها رجل ما سريرها، ويمنع صورة شريف من التسلل إلى حياتها في كل صباح ومساء.

انتهت الرواية

درية شريف

لندن - أيلول 2015

---

12 لعب على عنوان قصة ماركيز: «أجمل غريق في العالم».

رسالة الناشر: هذه ليست رواية

الأستاذة درية شريف المحترمة:

تلقّينا باهتمام مخطوط كتابك: «حي الدهشة». ونوضح أدناه رأي لجنة القراءة فيه:

هذه ليست رواية. هذا ما ارتأته اللجنة، إذ تعتقد أن المخطوط المرسل لدارنا، هو عبارة عن تجميع روايات، أو عناوين لروايات عربية وعالمية، وبحذف هذه العناوين، تسقط القيمة الإبداعية للنص. وكأن النص يستند على إبداعات الخلف، ولا أهمية لنص السلف.

إلا أن أحد أعضاء لجنة القراءة، الدكتور شكري، يعتقد بإمكانية نشر هذا المخطوط، نظراً لحداثته الأسلوبية، وخرقه لما يمكن دعوته بالأجناس الأدبية.

وبعد النقاشات المطولة بين أعضاء لجنة القراءة، توصلوا إلى أن هذا العمل يقع بين الرواية الجديدة، والبحث الإبداعي عن فن الرواية. أي أنه بحث أدبي بصيغة إبداعية تنتمي للرواية وتكن لها ولاءً يستحق التقدير.

لهذا، فإننا نقترح عليك، أستاذتنا الموقرة، أن يقوم الدكتور شكري بالاشتغال على المخطوط، بالاتفاق معك، لإعداد النص بطريقة مختلفة قليلاً عن صيغته الحالية، وتوضيح الالتباسات الموجودة فيه.

في انتظار ردّك على مقترحنا، لوضع الكتاب بصيغة جديدة تفيد القارئ.

مع خالص الاحترام والتقدير!

د. سميح عبد العزيز

مدير دار الحلم للنشر والطباعة والتوزيع

الحرب والسلام

وصل «إيميل» دار النشر، بعد أسبوعين من إرسال درنة للمخطوط. لم تقبل بالاقتراح الذي جاء فيه، بل أرسلت كتابها، إلى دار نشر جديدة، فقد قررت أن ترسل الكتاب لعشرات الناشرين، إلى أن تعثر على واحد جريء، يقبل بنشره كما هو.

تمسكت بالإبقاء على أسماء الروايات كعناوين فرعية أثناء الانتقال من مشهد إلى آخر، دون اتباع أي تبويب آخر أو ترقيم للفصول. كان تمسكها ذاك نابعاً من أهمية الرواية لديها، إذ غيرت الكتب حياتها، كما أنها بسببها قررت أن تصبح طبيبة، أي أنها أحبت الطب، من خلال قراءاتها. وعبر الأدب انتصرت على الكثير من الأزمات في حياتها، وخاصة في زمن الحرب.

تأثرت كثيراً بالكتب، ومنها كلام كاواباتا الذي قاله في خطبة تسلّمه لجائزة نوبل 1968، إذ قال الروائي الياباني إن هناك ثلاث مجموعات من البشر بمقدورها توليد الجمال الخالص، وهي العملية التي يتعين على الأدب تسجيلها، وهذه المجموعات الثلاث هي على التوالي: الأطفال الصغار، النسوة الشابات، والرجال المحتضرون. كانت درنة تشعر أنها هذه المجموعات الثلاث، فهي الطفلة والصبية الشابة معاً، كما أنها، بعد اندلاع الحرب، صارت تواجه الموت في كل ليلة، وكأنها تحتضر، وهي تحضّر نفسها على أنها قد لا تستيقظ في الصباح.

خلال سنوات الحرب أنقذتها الروايات من الخوف، من اليأس، إذ لا شيء يحدث سوى المزيد من أخبار الموت والخراب. منحتها الكلمات القوة للاستمرار في الحياة. حين نطلع على حياة الآخرين وخبراتهم، نضيف هذه الخبرات إلى حياتنا، وكأننا عشناها. منحتها القراءة عالماً موازياً لحياة الحرب، كانت تنزل إلى كهفها السري، لتقرأ وتعيش مع أبطال كافكا ودوستويفسكي وهاني الراهب وجبرا إبراهيم جبرا ورشيد بو جدرة وفيرجينيا وولف وفرانسواز ساغان... دفعتها الأخيرة لفكرة إعداد الرواية، فقد نشرت أولى رواياتها في سن درنة الحالية.

ستكتب الكثير من الكتب، هذا مشروعها. ستكتب كيف كانت تقرأ مدام بوفاري، فتغرق في حياة البطلة، وتنسى أصوات القصف. ستروي كيف أنها أحياناً واست نفسها بأنها لو سقطت ميتة تحت الأنقاض، فإن

عزاءها هو عيشها في أزمنة أخرى، أكثر جمالاً من زمن الحرب. وبها تحدث القصف والقذائف والطيران والاستغاثة والذعر والأشلاء والدم. كل تلك الخلائط الممزوجة بطعم الموت، كانت تجدلها بصورة الحياة. كانت الروايات بالنسبة لها، هي منبع الحياة، ومنها أخذت خيوط العيش وغزلتها، لتصنع خوذتها ورداءها المضادين للرصاص. منها أخذت فرصة أن تصنع الحياة فوق الحرب، حياة السرد.

مع الساعات الطويلة لانقطاع الكهرباء، وعجزها عن القراءة، والنوم تحت أصوات القصف التي ترتج لها البيوت والقلوب، اكتشفت متعة الكتابة. كانت تكتب في رأسها، متخيلة الكلمات التي ستخطها في ضوء الصباح.

عبر مخيلة الكتابة تلفست درنة درب السلام الضيق في غابة الحرب الكثيفة، وتخلّصت من تهديد الموت الجاثم على صدور جميع الناس.

كانت تكتب حتى لا تشعر بالخوف، كانت تكتب عن ذلك الخوف، متمنية، إن ماتت تحت القصف، أن تنجو أوراقها، ليقرأ العالم شهادتها عن الأمل.

كانت الرواية، حالة السلام الوحيدة المتحققة لها. هكذا عرفت أن الرواية، في حالة الحرب أو اللاحرب، سلام.

عادت درنة إلى مخطوط روايتها، وراحت تدوّن لنفسها الفصل الذي لن تنشره، والذي سيبقى في مذكراتها، إلى أن تقرر ذات يوم، إمكانية نشره، كملحق للرواية، أو تركه في حاسوبها، مع باقي الملفات الشخصية.

ملف شخصي: انفعالات

كنت أقلّب في صفحات الفيسبوك، مستعيدة بعض ذكرياتي التي تركتها خلفي قبل خمس سنوات. بدقة أكثر، كنت أقلّب في صور روعة، التي كانت تدرس في كلية العمارة في حلب، وعثرت على حساب أخيها زهير في الفيسبوك، وأرسلت له طلب صداقة. زهير صاحب الفضل علي في توجهي صوب الكتابة.

وصلني طلب إضافة من حسين، الذي كان يعمل في ورشة أبي، وكنت أكن له مشاعر مميزة. قبلت الطلب على الفور، حين كتب لي في رسالة خاصة: «مرحبا درنة.. بتتذكريني؟».

خفق قلبي بطريقة لم تحدث معي منذ سنوات، منذ حلب، حين كان قلبي يخفق كلما دق حسين جرس باب بيتنا هناك، لتوصيل غرض ما، أو

للسؤال عن أبي حين يكون في البيت.

استرجعنا تلك الأيام، وتحدثنا في كثير من الأمور حين اتصلت به عبر «مسنجر الفيسبوك».

روى لي كل شيء. منذ «خيال الزرقا» و«كوابيس بيروت»، مروراً بنظريته في العشيقة العاطفية ونصرة النساء، حتى مقتل أبي.

غادر حسين الحارة مصطحباً سعاد التي انكشف أمر علاقتها بأبي، وصار بقاؤها في بيت والدها صعباً. هربا معاً إلى بيروت، حيث يقيمان مع ميرنا وأخيه فادي. لم يفكر أحد من عائلتها في اللحاق بهم، إذ قامت القيامة في حلب بعد ذلك، وصار هم الناس محصوراً بالنجاة.

عاد حسين إلى الدراسة، واستعاد حلمه في دراسة الحقوق في الجامعة الأمريكية. كان مخططه إعداد رسالة الماجستير عن «النوايا القاتلة»، إذ سيقدم نظريته، في تأثيم القتل المعنوي، واعتباره جريمة لا تقل خطورتها عن جريمة القتل المادي، وضرورة أن تنص القوانين الحديثة على العقوبات الخاصة بالجرائم النفسية: جرائم النية.

تحدثنا طويلاً، عما حصل في الحارة، منذ مغادرته. حكيت له عن دراستي في ظل الحرب، إلى أن حصلت على الثانوية العامة، في ظروف لا يصدقها عقل، إذ كنت أذهب إلى الامتحان، والخوف من قصف المدرسة لا يفارقني. مدارس كثيرة قُصفت، وكنا ـ نحن الطلاب ـ غرضة لنيران الطرفين، أو الأطراف المشاركة في القتال. بعد حصولي على الشهادة وصلتني المنحة البريطانية، وغادرت حلب وحدي أولاً برفقة هند، ثم لحقت بنا عفتي وابنها وجدتي.

قد يستغرب البعض تواصلي مع المخطط والمدبر لقتل أبي. لقد قامت الحرب في بلدي، وابتلعت كلّ شيء، لهذا، ربما لن يتفهم أحدٌ مشاعري صوب حسين، بسهولة. لم أتمكن من تأثيم ما فعله، فأنا أعيش حالة فقدان البلد برمتها، وقد نخر الخراب روحي، إلى درجة لم تعد تؤهلني لمحاكمة حسين نفسياً. بل ربما شعرت بشعور غامض من الارتياح، لأن أبي مات ودفن في بلده. مات قبل أن ترى عيناه كلّ ذلك الدمار الذي حلّ بأماكنه. كان موته قتلاً رحيماً له، لتخفيف قهره على العائلة والحارة. لو أنه لم يمت، كنت سأرى في عينيه الانكسار والخوف. هل كان سيغادر ويتشرّد في بلاد الآخرين، كما حصل لأترابه؟

في عمقي، كنت أشعر بأن حسين لم يكن شخصاً سيئاً، ولم يكن مجرماً. كانت دوافعه نبيلة. كان ثائراً ضد كل من يؤذي الأمهات الطيبات.

قتل أباه أولاً، ثم رثب مقتل أبيه الرمزي الجديد، لأنه آذى هند، التي كانت تكراراً لصورة أمه. كان يعرف أنه لن يحتمل العيش ضمن كوابيس القتل المتكررة مرة أخرى.

هل يغفر لي أبي، حين يشعر بي، من قبره، أنني أعتبر موته تفصيلاً صغيراً أمام موت السوريين الكبير والشاسع؟ هل يتفق معي بأن موته كان ارتياحاً مبكراً حتى لا يدخل في تجربة التشرد أو الاعتقال أو التعذيب حتى الموت؟! شيء ما في داخلي، إحساس من الراحة صوبه، صوته الضعيف يصلني، لأعرف أن الإجابة هي: نعم. موت أبي كان خلاصه، حتى لا يموت عشرات المرات، بطرقٍ أكثر إيلاماً. هل أنا ابنة عاقة، أم أن بذرة الكتابة أفقدتني ولائي الدموي العائلي، لأكترث أكثر بموت الأحياء الذين يشتهون الموت، ولا يتحقق لهم؟!

الحب الضائع

ركبنا الطائرة من مطار إسطنبول إلى مطار هيثرو، أنا وهند. تاركات جدتي وعمتي نجوى في إسطنبول، بانتظار حصولهما على الإقامة، إذ تقدمنا بطلب اللجوء إلى بريطانيا، عبر الأمم المتحدة.

منذ اللحظة الأولى لإقلاع الطائرة، لمحتُ دمعة في عينها، فاستغربتُ، لأنني أعرف أنها ليست المرة الأولى التي تسافر فيها، وخاصة إلى لندن، فقد أمضت أكثر من سبع سنوات فيها. لم أجرؤ على سؤالها عن سبب حزنها. كنت حزينة أيضاً، وأنا أترك خلفي نصف عائلتي في إسطنبول، والنصف الثاني، أخي أدهم، الأقرب من الذين تبقوا لي من أهلي، في سورية. لم أكن قادرة على احتمال المزيد من الألم.

كان أمامنا، هند وأنا، الكثير من الوقت للكلام عن أشياء كثيرة. خاصة هي، فقد التزمت الصمت طويلاً بعد موت أبي، وكانت تتحدث باختصار، حين يتطلّب الأمر.

ظلّت ترتدي اللون الأسود، فترة طويلة زادت عن سنة، كأنها تعترف بأهمية أبي في حياتها، إذ لا تلبس امرأة اللون الأسود لأكثر من عام، حداداً على شخص عارض في حياتها. لم تخلعه إلا حين طالبتها جدتي، بإصرار، لأن قلبها لم يعد يحتمل تذكر تلك الفترة.

كنا نمضي النهار في استكمال الأوراق الرسمية وإجراءات التسجيل في الجامعة، وإجراءات السكن الجديد.

كانت الليالي طويلة علينا، نتقلّب أمام شاشة التلفزيون، ولا ننام من

الأرق، وتفرتر حتى الصباح.

لا أعتقد أنني أبالغ إذا قلت بأن هند أكثر من تألم لفقدان أبي. وإن لم تكن أكثرنا تألماً، فهي على الأقل، تأتي بعد جدتي في درجة الحزن.

حكت لي، عن اللحظة التي تحزكت فيها الطائرة من مطار إسطنبول. شعرت أنها تترك حلب نهائياً هذه المرة. انتابها إحساس أنها ستموت وتُدفن في لندن. رغم أنها تعرف أن إسطنبول ليست حلب، ولكنها كانت مطمئنة إلى قربها. نستطيع التنقل بسهولة، عبر المدن التركية، للوصول إليها. وصفت لي مشاعرها القاسية وهي تتخيل أنها لن تكون في الأرض التي يُدفن فيها المقربون إلى روحها: زلوخ ومامد و... (لم تكمل لتذكر اسم شريف).

كانت تدرك أن قسوة الحرب تمتد حتى بعد الموت، لتفرق بين قبورنا، فنُدفن في بلاد الشتات، ورغم أنها تحمل الجنسية البريطانية، لكنها لن ترتاح وهي مدفونة تحت التراب الإنكليزي، لأن روحها معلّقة هناك، في حلب، وكل من تحب ظلّوا هناك.

حدثتني عن علاقتها بالفقد، عن ميمد وزلوخ، وشعورها بالوحدة، وافتقادها للعائلة، وللرجل في حياتها. اعترفت لي ذات ليلة، أن أبي كان حلمها الأخير وفرصتها في عيش حياة مشتركة مع رجل، وأنها حلمت بالإنجاب منه. وها قد ضاع كل شيء بموته. ذبلت هند، وتحوّل حلمها إلى مأساة. صار كل هدفها في الحياة هو الاعتناء بي، حتى أحقّق طموحي بالتخرج في كلية الطب، وإصدار أول كتاب لي.

كانت هند الفاقدة للعائلة، الضائعة روحياً، الحزينة، هي عائلتي. كانت تعويضاً عن أمي التي اختارت أن تبدأ صفحة جديدة مع زواج جديد، وكانت تعويضاً عن أبي، الذي كدت أفقد مستقبلي بموته، لأتزوج قسراً وأنجب الأولاد، وتسحقني عجلة الحياة الروتينية. أنقذت أحلامي وحياتي. كنت أتأمل حزنها العميق، وأحبها أكثر، لا لوفائها لرجل أحبته بصمت، دون أن يعلم، فحسب، بل أيضاً لأن ذلك الرجل هو أبي.

تبادلنا الاعترافات، كأمّ وابنتها، أو كصديقتين.

أخبرتها أني أشعر عندما تعانقني وتحضنني بأنها تعوّض فقدانها لأبي، وفي الوقت نفسه أشعر أنها تكاد تكون أمي. بل إني أفقت ذات ليلة، وأنا أنام إلى جوارها، في الصالة، قبالة التلفزيون، على كابوس مخيف، فهززتها لأوقظها منادية: «ماما.. ماما!».

ربما، لأن أمي كانت على العكس منها. فمقابل كل الحنان الذي أحاطتنا

به هند، عاملتنا أمي بقسوة، انتقاماً من أبي. لا أنسى كيف أنها ذات مرة قالت لنا وهي غاضبة: «يا أولاد شريف!».

يومذاك، دخلت إلى غرفتها فوجدتها تقص صور أبي، شهقت وسألتها: «بفهم أنو ممكن تقضي صورك معه. بس صوره لحاله ليش؟».

- «منشان أقتله عالأخير.. لو كان قدامي هلّق، كنت قتلته بهالمقص، وما اكتفيت بقص صوره على الورق!».

تماماً، كما كانت هند تشعر أنها فقدت فرصتها الأخيرة في الحب بعد موت أبي، كانت أمي تشعر بضياع الحب، وتتخبط لأنها لا تعرف كيف تعيش بعد أبي. أظن أنها لم تكن صادقة تماماً في مسألة الرغبة في قتله، هي تفعل ذلك لأنه مات، ولأنها مقهورة لفقدانه. إن حبها له لا يقل أبداً عن حبّ هند، لكنها تحبه بطريقة مختلفة.

كلتاهما أضاعت الرجل الذي تحبه، فراحت الأولى تعنتي بي لتتلمس روحه من خلالي، بينما تركتنا الثانية، أنا وأخي، حتى نتخلص من التفكير به.

الجميلات النائمات

صارت نهى تدعو بيتنا «منزل الجميلات»، حيث كنا نقيم نحن البنات الثلاث: هند ونجوى وأنا، إضافة إلى شريف وجدّتي. وتُضيف هند مازحة، متلاعبة بعنوان رواية كاواباتا فتقول: «منزل الجميلات النائمات».

تزورنا نهى من وقت إلى آخر، بعد أن قامت صداقة غريبة بينها وبين جدّتي.

حصلت عمّتي نجوى على حق اللجوء الإنساني في بريطانيا، وصار لها حق العمل أيضاً، وعثرت على وظيفة في متجرٍ لبيع مواد التجميل، إذ كانوا يحتاجون إلى فتاة تتكلم اللغة العربية وتفهم في مساحيق التجميل. قامت بتسجيل شريف في حضانة، لكن جدّتي كانت تفضّل الاعتناء به بنفسها، وكلما نادته باسمه يقفز وجه أبي أمام عينيها.

أما هند، فصارت تتنقّل بين لندن وغازي عنتاب، إذ تشتغل طبيبة متطوعة لمعالجة النساء السوريات النازحات في المخيمات.

هنا، في هذا المنزل، عادت لي ذكريات الأشهر الأخيرة في حلب. فبعد أن بقيت في منزل جدّتي، ظللت أطلّ على أمي، وأقضي معها أوقاتاً طويلة، فيما أصرّت هي على رفض دخول بيت خالتها، وصارت تعاملنا، أنا وأدهم، بعدوانية غريبة، وكأنها ليست أمنا. فهمت جدّتي حالتها، وطلبت

منا أن نبقى إلى جوارها، لأنها مصدومة، إذ لم يكن شريف مجرد زوج، بل كان كل عائلتها. كان حاميها الدائم، وملبي رغباتها، فهي قد كبرت وتدلّلت على يديه، تماماً مثل بقية أخواته، وصارت حصتها فيه أكبر حين تزوجته.

بعد موته بسبعة شهور تقريباً، صارت تخرج من البيت، وتغيب طيلة النهار دون أن تخبرنا أين تذهب، ثم فجأة أعلنت نبأ زواجها، وطلبت حصر الإرث، مصرّة على بيع البيت، لتأخذ حصتها وترحل.

كانت تصرّفاتها غير مفهومة، وقد خفنّ أنها لا تزال تحت تأثير الصدمة. إذ كانت تقول لي إنها كانت تتمنى لو تأجّل موته ليتسنى لها معاقبته على الخيانة. لو أن التيس إدريس لم يطعنه حتى الموت، وترك فيه بعض الحياة، لكانت استمتعت بإذلاله واستعادة كرامتها، لكن موته أنقذه وأذلّها. كانت تردد هذه العبارة دائماً، ثم تضيف أن سعاد ستبقى أمام ناظريها، تطقطق العلكة وتنظر إليها باستعلاء، لأن شريف كان يخز كالثور على صدرها، تاركاً زوجته تتحرق لرائحته في الفراش.

تزوجت أمي من شقيق زوجة خالي، وهو صاحب معمل نسيج شهير في المدينة، ولديه ثلاثة أولاد، تركتهم له زوجته بعد أن فقدها في حادث سير. كان يبحث عن امرأة، ووجد في مديحة ضالّته، فهي أمّ وستجيد العناية بأولاده، كما يظن، وهي وجدت فيه أيضاً فرصتها في الزواج من ثريّ، تلك الفرصة التي كانت تبحث عنها من أجلي، أخذتها لنفسها، وانتقمت من العائلة، فقد كانت تحقد عليهم جميعاً، على جدتي وعمّاتي، متخيلة أنهن كن يعرفن علاقة شريف مع سعاد، بل وكانت تقسم لي، إنهن كن يتسترن على غرامياته، فسعاد لم تكن عشيقته الوحيدة، لأنه كان على علاقة محرمة بالدكتورة أيضاً، بعلم جدتي وتدبيرها. ثم تؤكد إنها مستعدة لحلاقة شعرها على الصفر مثل الصبيان، إن خاب ظنها.

لا أعرف من أين جاءت أمي بتلك الهلوسات. لكنها ذهبت أخيراً إلى البيت الذي حلمت بمثله طيلة حياتها: بيت الأكابر والأثرياء. وحصلت على خادمة وسائق والكثير من المجوهرات. وراحت علاقتها بنا، تفتر مع الأيام.

حين رأيتها آخر مرة، قبل أن ترحل إلى تركيا، مع عائلتها كلها: زوجها وأبنائه، أبيها، أخويها وزوجاتهما، شعرت أنها فقدت عقلها تماماً. كانت تتحدث كأنها امرأة أخرى لا أعرفها، كأنها ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب، ناسية أنها تربت يتيمة في بيت خالتها.

في تلك الفترة، حصلت على الشهادة الثانوية بمجموع عالٍ. واقترحت هند على الفور أن أدرس الطب في لندن، لا في حلب. ووافق الجميع على

اقتراحها بسبب الأوضاع السيئة في البلد. راسلت الجامعات التي كانت تعرف فيها أشخاصاً يثقون بها، من أساتذة وزملاء درسوا معها، وحصلت بمساعدتها على منحة جامعية من كلية الملكة ماري.

استطعنا إقناع جدتي وعمتي نجوى بالذهاب معنا، لأن الحرب كانت تشتد يوماً بعد آخر، وكنت خائفة من تعرضهما للخطر، إذ كنا قد غادرنا الحارة، بعد بيع بيت أبي، واشتداد القصف على الحي، وانتقلنا للعيش في بيت هند في الشهباء، المنطقة الأكثر أماناً من حينا.

كنا نتابع أخبار أدهم عبر الاتصال به حين يكون الإنترنت متوفراً لديه، فقد رفض الخروج من حلب، وقرر أن يبقى لمساعدة الناس الذين تشبثوا ببيوتهم ورفضوا مغادرتها.

أما المفاجأة التي لم أتوقعها آنذاك، وصرتُ أستوعبها الآن في لندن، بعد ابتعادي عن حلب، وتحليلي لظروف الحرب، فهي خروج إدريس من المعتقل، بعد صدور عفوٍ عن جميع المساجين، وتشكيله لفصيل عسكري. إدريس المحكوم بالمؤبد، أفلت من السجن، وصار من أمراء الحرب وأثريائها.

أنا هنا الآن، في هذا المنزل، الذي تسميه هند، بمنزل الجميلات النائمات. أعيش مع عائلتي التي اخترتها، وأتابع أخبار البلد التي تركتها.

لا تزال الحرب قائمة، لحظة انتهاء هذا الكتاب. وأنا أصحو في كل صباح، فأشعر أنني في بيت جدتي في حلب، نجوى تحضّر القهوة التي تأتي بها هند من بائع القهوة الحلبي في غازي عنتاب، وتدندن أغاني فيروز وهي تسمعها في راديو المطبخ، فننهض كلنا لنشاركها الطقس الصباحي.

تقفز حلب معي من السرير، وتظل ترافقني حتى أصير في الشارع، وأرى وجه نهر التايمز، فأدرك أنني في لندن. تقفز حلب مني هناك، تنزل في الماء، وتعود خفيةً لتنتظرني في البيت، حيث أخطط لكتابي القادم، عن المنفى والدهشة: «حلب فوق نهر التايمز». فيه، سأنبش تلك الكنوز التي تركتها خلفي: كنوز الحارة.

اليوم أنشر هذا الكتاب على عجل، وأعرف أن حكاياته مبتورة بسبب الحرب. رأسي يضجّ بالقصص والخوف. قصص من هناك، وقصص تولد هنا. كأنني أجلب حارتي المدهشة، كما تصفها هند، إلى شوارع لندن. لكنني ربما أتنفس عميقاً في السنوات القادمة، وأستعيد وجوه أولئك الناس المتروكين هناك، الذين مات اليوم أغلبهم بين القصف والرحيل.

أعرف أنني لم أعش جيداً هناك لأتعرف على كامل الدهشة.

الدهشة ليست اليوم في لندن، إنها أنني أنا في لندن، وأن حي الهلك لا يزال معي هنا.

الدهشة كنزٌ مختبئ في حلب، في حارتي هناك.. سنجلبه أنا وهند، عبر الكتابة والذكريات.

لائحة بأسماء الروايات المستخدمة عناوين فرعية في «حي الدهشة»، وأسماء مؤلفيها:

- الفراشة، هنري شاربير.
- أولاد حارتنا، نجيب محفوظ.
- العين الأكثر زرقة، توني موريسون.
- زينب، محمد حسنين هيكل.
- حفلة التفاهة، ميلان كونديرا.
- الصخب والعنف، وليام فوكنر.
- حفلة التيس، ماريو بارغاس يوسا.
- العاشق، مارغريت دوراس.
- انتقام امرأة، ألفريد هيتشكوك.
- الدون كيشوت، ميجيل دي سيرفانتس.
- المزحة، ميلان كونديرا.
- الاحتقار، ألبرتو مورافيا.
- عرس الزين، الطيب صالح.
- أوراقي حياتي، نوال السعداوي.
- العطر، باتريك زوسكيند.
- لا مكان في بيت أبي، آسيا جبار.
- مذكرات فتاة صغيرة، آن فرانك.
- قصر الشوق، نجيب محفوظ.
- البحث عن الزمن الضائع، مارسيل بروست.
- مزرعة الحيوانات، جورج أورويل.
- بيت الأرواح، إيزابيل الليندي.
- ميمد النحيل، يشار كمال.
- الذرة الرفيعة الحمراء، مو يان.

- ذهب مع الريح، مارغريت ميتشل.
- الغثيان، جان بول سارتر.
- الستارة، أغاثا كريستي.
- بذور سحرية، فيديادر سوراجبراساد نيبول.
- المفصلة، ألبير كامو.
- تحت العجلة، هرمان هيسه.
- القط والفأر، غونتر غراس.
- الخبز الحافي، محمد شكري.
- الأحمر والأسود، ستاندال.
- الرجال الشاحبون وفناجين القهوة، هيرتا مولر.
- البئرالأولى، جبرا إبراهيم جبرا.
- الخلود، ميلان كونديرا.
- عناقيد الغضب، جون شتاينبك.
- البؤساء، فيكتور هوغو.
- الحياة الجديدة، أورهان باموك.
- أجمل نساء المدينة، تشارلز بوكوفسكي.
- لوليتا، فلاديمير نابوكوف.
- الاستحواذ، كولن ولسون.
- الثعبان والزنبقة، نيكوس كازانتزاكي.
- امرأة على الضفة المقابلة، ميتسويو كاكوتا.
- ابتسامة عند قدم السلم، هنري ميلر.
- قلب الظلام، جوزيف كونراد.
- صباح الخير أيها الحزن، فرانسواز ساغان.
- السقطة، ألبير كامو.
- الحضيض، مكسيم غوركي.
- نساء الخيال، ممدوح عزام.
- حين تأتي الأشياء الروحية أولاً، سيمون دو بوفوار.
- ليلة التنبؤ، بول أوستر.
- قصة موت معلن، غابرييل غارسيا ماركيز.

- كوابيس بيروت، غادة السمان.
- امرأة في الثلاثين، بلزاك.
- الجريمة والعقاب، فيودور دوستويفسكي.
- المحاكمة، فرانز كافكا.
- حبل سري، مها حسن.
- طفل من حقول الكاكاو، جورج أمادو.
- تحت جرس زجاجي، أناييس نن.
- الحرب والسلام، ليو تولستوي.
- انفعالات، ناتالي ساروت.
- الحب الضائع، طه حسين.
- الجميلات النائمات، ياسوناري كاواباتا.